إبتكار

باقي
للنشر والتوزيع

المدير العام / أسماء محمد نافع
مدير النشر / محمد عبدالرازق

رواية: إنفوكار

تأليف: هشام مسفاني

مراجعة لغوية: أحمد شعبان

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

التنسيق الداخلي: أسماء عطا

رقم الإيداع: 7618

التدمك:978/977-6718-01-2

جميع حقوق محفوظة ©
لا يجوز، دون الحصول على إذن خطي من الناشر،
استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا المصنف، أو استنساخها
أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة
إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام
أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any electronic or mechanical means, including information storge and retrieval systems, without permission in writing from the publisher,except by reviewers, who may quote brief passages in a review

رواية

إنفــكــار

تأليف

هشام مسغاني

دعاء

ياخالقَ الزمانِ، أنتَ ربُّ الزمانِ، خلقتهُ
ليحكمَ خلقَك، وسيّرتهُ ليخدمَ
مشيئتَك، أعِنّا في يومنا
هذا............. في مكاننا
هذا......... في زماننا هذا........
لينجح كتابنا هذا....

تنبيه مهم:

الرواية فرعٌ من فروع الخيال الأدبي، الذي يُسمى "التاريخ البديل"، أو يوكرونيا Uchronia، وهو نوع أدبي يُفسر الأحداث التاريخية بطريقة خيالية مبنية على التخمين المُستند على حقائق تاريخية وعلمية.

الشخصياتِ والأماكن في الرواية غير حقيقية، ولا تمتُ للواقع بصلة، جرى تركيبها ومزجها بأحداثٍ تاريخيةٍ حقيقية؛ لتخدُم حَبكة الرواية.

الإهداء

إلى أبي وأمي، لولاكما لما جئتُ للوجود، فأنتما كل الوجود.

إلى ملهمتي وحاملة سري زوجتي، لولا حملك أعباء الحياة على كاهلك لما كتبتُ سطرًا في روايتي.

إلى طفلاي المَلَكَيْن، أنتما منبع إبداعي والرقيبُ على قلمي.

إلى أشقائي وعائلتي وأصدقائي، دعمكم لي سرُ نجاحي.

هناك خيطٌ رفيعٌ بين الحقيقة والخيال، اسمه الإبداع

هشام مسفاني

الفصل الأول

رجلٌ كالآخرينَ

الثلاثاء 13 **فبراير الساعة** 7:15 **ص**

مدينة الدار بيضاء

نفسي ترتجف من عصف الزمان، وجسدي ينكمش من ضيق المكان، يا رحيم يا رحمٰن، يا خالق الإنسان، أنا عبدك الحيران، أدعوك بدعاء الصالحين والرهبان، وبصلواتك كل الأديان، أن تُطلِقَ لجسدي العنان، وتملأ روحي بالإيمان، وتُحررني من قيد الزمان

كَكُلّ يومٍ قرأ تامر هذا الدعاء الذي يحفظه عن ظهر قلبٍ، وارتشف آخر جُرْعة من فنجان القهوة الموضوع أمامه وهو يَحُوم بنظره حول الوجوه الشاحبة التي تجلس في المقهى الشعبيّ، دخانُ السجائر التي تَقتُل أصحابها تتجول بِحُرية في المكان وكأنها تملكه، انتبه إلى الوقت في ساعة معصمه، ثم قفز من كرسيّه مُسرعًا بعد أن تيّقن من تأخُّره.

دخل إلى محطة الترام المتجه إلى مركز المدينة، حيث يعمل منذ سنتين، فقد تخرّج في الجامعة بشهادة الإجازة في الحقوق، ومنذ ذلك اليوم وهو يبحث عن عمل فلم يجد، وبعد جُهْدٍ جهيد وبحثٍ لا ينتهي، استطاع أن يجدَ عملًا بسيطًا في مكتبة بأحد أحياء المدينة القديمة، لا يكفيه أجرها ثمن القهوة أو حتى المواصلات، المهم أنه عمل ويُمنِّي النَّفس كلَّ يومٍ بفرجٍ قريب.

انتبه لصوت الترام الشبيه برنة الجرس فلمحه قادمًا من بعيد، مُكْتَظٌ كعادته، ما أن فُتِح بابه حتى خرج منه هواء حارٌّ مشبعٌ برائحة العرق البشريّ، الناسُ من مختلفِ الفئات والأعمارِ يستعملونه، بعضهم جالسٌ وأغلبهم واقفٌ يتكِئ بعضهم على بعض أو على الأعمدة المُخصصة لذلك، يتمايلون ويترنحون ترنُّحَ السُّكارى كلما داس السائق على المكابح، وجوههم مُتَجهمة عابسة لقلة نومهم ولسخطهم الشديد على الواقع، تسأل نفسك لرؤيتهم: "هل فعلًا ينقلهم هذا اللعين إلى أشغالهم أم يَجرّهم غصبًا عنهم إلى مَحْشرهم؟".

التفت يُمنة ويُسرة في محاولةٍ يائسة لإيجاد مقعد شاغر فقد كَرِهَ الوقوفَ المتكرّر كُلَ يومٍ؛ الطريقُ إلى مركزِ المدينة بعيدٌ جدًا ويستغرق ساعةً للوصول، في بعضِ الأحيان كان يجدُ مقعدًا يجلسُ عليه، لكنْ سرعانَ ما يرِقُّ قلبه لسيدةٍ عجوزٍ أو رجل مريض فيمنحه مكانه ويعودَ هو للوقوف مرةً أخرى مُترنحًا مع السُكارى، سلّمَ أمرَه لله واتّكأ على أحدِ الأعمدة الشاغرة ووجَّه نظرهُ ناحية النافذة مُتعقبًا المحطة التالية.

توقفت العربة ببطء، جحافلُ بشرية أخرى تتسابق للصعود إلى المقصورة، وسطَ الزحامِ ظهرت ثلاثة فتياتٍ يحمِلن كتبًا في أيديهن ويسابقن الآخرين للركوب، أُصِيب بالذهول عندما لَمح تامر إحداهن وفرك عينيه ليتأكد، إنها الفتاة التي يَتَرَّقبُ صعودها كل يوم، لم يرَها منذ أسبوعين، ربما كانت فترة عُطلة جامعية فهي طالبةٌ في الكلية نفسها التي تخرّج فيها هو من قبل.

كان النظرُ إليها هو المُتعة الوحيدة التي يجدها في ذلك الترام اللعين؛ رؤيتها كانت كفيلة بأن تنسيه واقعه المُحزن وبؤسه الدائم.

منذ سنة تقريبًا وهي تداوم على استعمال الترام للذهاب إلى الجامعة، منذ أول يوم لمحها فيه امتلكت أيامه نكهةً خاصة لم يشعر بطعمها منذ سنوات.

اقترب منها ككُلِ مرةٍ مُحاولًا الانصاتَ لمُحادثاتها وصديقتيها كما اعتاد، تلك كانت طريقته الوحيدة ليتقصّى أخبارها، لقد أحبّها شيئًا فشيئًا دون أن يدري، ودون أن تعلم هي أصلًا بوجوده. كم هي الليالي التي سهر وهو يتطلعُ لصورةٍ لها التقطها خِلسةً بهاتفه المحمول، يُكبِّرها مراتٍ عديدة ويُمرّرُ يده على الشاشة وكأنه يداعبها، يشكو لها همومه وأحزانه كل يومٍ قبل أن يُثقله النوم فيستَسلِمُ له مُحتَضِنًا الهاتف.

عادةً عندما يُصادِفها في الترام يقتربُ منها خِلسةً ليقف بجانبها، يَسْترقُ النظرات إليها ويُمنّي النفس أن تُكلِّمه يومًا أو أن تُحسَّ بوجوده على الأقل، يظلُ شاردًا في أمنياته حتى يَصِلَ إلى محطة نُزولِه المُعتادة.

لن ينسى أبدًا أول مرة يَكتشفُ فيها اسمها عندما سمِع إحدى صديقتيها تُنادِيها بـ"هدى".

"هدى، نعم إنه اسم جميل، عسى الله أن يهديها إلى حُبِي". هكذا حدَّث تامر نفسه وهو يُنصِتُ لقهقهتهن وكأنهن سَمِعن ما يدورُ في خُلده.

لم يصادفها يومًا وحدها، فزميلتاها في الدراسة تُرافقانها دائمًا؛ الأولى سمراء اللَّونِ أطول من هدى بقليل، تهتمُ بشكلها كثيرًا وتُكثر من مساحيقِ التجميل، تُشبه الجميلات السمراوات في الأفلام الأمريكية، ممشوقة القوام، تتكلم دائمًا بإزدراء، تُثَرثر وتُناقِشُ كُل الموضوعاتِ حتى التي لا تفقَهُها، تنتقِدُ كل الأساتذةِ وتتذمّرُ من التعليم، لقد أَحبّ تامر شخصيتها المرحة، فقد عدّها مصدرًا مُهمًّا للمعلومات عن هدى؛ فثرثرتها الزائدة وارتفاع صوتها كانا كافيَيْن؛ لينهل كل مرة بمعارف جديدة عن حبيبته.

صديقتها الثانية كانت أكثر هدوءًا وخجلًا، مُحتجبة، ذات ملامح قوية، تتميز بضحكة خفيفة لا تُفارقها إِلا نادرًا، قصيرةٌ وممتلئة لا تتكلم إلا قليلًا.

هدى كانت مُختلفةً عنهما، كانت أَكثر حُسنًا وجمالًا، وجهها الملائكي يُعبرُ عن الطيبة والبساطة والوقار، يخالُها الناظر أميرةً تُحيط بها الوصيفات، لو جُمع حسن نساء الدنيا ما أدركنَ حتى ظفرها.

حاول أن يُكلمها أكثر من مرّة، لكنه كان يترددُ في آخر لحظة، ليس لجُبنٍ فيه أو خجل، بل لخوفٍ دفينٍ يتخبّطُ في داخله من الأسئلة التي ستطرحها عليه ولن يجد لها جوابًا شافيًا، فكيف سيقدم نفسه لها؟! وما الذي سيخبرها به عن حياته؟! كان يقول دائمًا إن حظّه سيئ، حتى أشقى البناتِ لن تقبل التعرّف عليه، فكيف بفتاةٍ رائعة كهدى؟! كان دائمًا يستعرض حوارًا داخليًا يتخيل فيه كيف سيُكلّمها أول مرة:

- مرحبًا، أنا تامر، شاب طموح، تخرّجتُ في كلية الحقوق قبل خمسة سنوات، لم أجد عملًا مُستقرًا بعد، أشتغِلُ الآن في مكتبةٍ بسيطةٍ بأجر زهيد لا يكفي حتى لتطلُبي عصيرًا إن وافقت أن نلتقي يومًا في المقهى.

وُلِدتُ في بيتٍ صغيرٍ يملكه جدي الذي رباني منذ صغري، توفيتْ أمي وأنا في العاشرة من عمري، أما أبي فقد تركنا واختفى بعد ولادتي بأسبوعين، ولا أحد يعلم أين رحل أو لماذا اختفى! كانت أمي امرأة بسيطة متواضعة، جمعت حنان الدنيا ووضعته بين كفيها لتهبه لي، أنا لا أمدحها لأنها والدتي، فكل من عرفها يشهد بطيبتها وصفاء روحها.

بعد اختفاء والدي كانت تجلس قرب النافذة كل يوم مُنتظرةً عودته، كانت تخبرني دائمًا أنه سيرجع في يوم من الأيام، مسكينة أمي، فقد أحبته حبًّا أسطوريًّا، أما أنا فلم أكترث لغيابه أبدًا، بل كرهته في سري بعد أن طالت غيبته، وأيقنت أنه تخلى عنّا للأبد.

لقد ظلت أمي المسكينة تترقبُ رجوعه كل يوم حتى ماتت- رحمها الله-، أما هو فلم يَعُد أبدًا....

أتذكرها جيدًا وهي على فراش الموت، مازِلتُ أحس بدفء يدها عندما لامست خدي قائلة رغم الألم الذي ينخر جسدها الهزيل:

"لا تحزن يا ولدي لموتي، سأكون دائمًا بقربك وستشعر بوجودي كلما تذكرتني. ولا تنسَ والدك أبدًا، ولا تغضب أبدا لغيابه، فلكل غائب حجته،

عندما يعود أخبره أنني طبقت وصيته وربيتك أحسن تربية وصُنته في غيابه، اطلب منه من فضلك أن يَقبل اعتذاري؛ لأنني لم استطع انتظاره مدة أطول، فقد دقّ الموتُ بابي، ولا يُمكن لأحدٍ أن يرفض نداء الموت.

أخبره يا ولدي أنني أحببته وسأظل أحبه دائمًا، وكما أنتظرتُ عودته هنا في هذا العالم، سأنتظره أن يلحق بي هناك، في عالم الآخرة، حيث سنعيشُ أنا وهو ولن نفترق أبدًا. أوصيك يا ولدي بالدعاء الذي تحفظه، رَدِّده دائمًا ولا تُهمله، واجعله في قلبك قبل لسانك، هذه وصية والدك لي قبل رحيله، وهي وصيتي إليك الآن".

لن أنسى تلك اللحظات المؤلمة أبدًا، أَمسكتُ يدها الدافئة وضممتها إلى صدري ثم رفعتُ عيناي إلى السماء أُنصِتُ إليها وهي تتلو الدعاء وأنا أرددُ خلفها:

نفسي تَرْتَجِف مِنْ عَصْف الزمان، وجسدي ينكمش مِن ضيق المكان، يا رحيم يا رحمن، يا خالق الإنسان، أنا عبدك الحيران، أدعوك بدعاء الصالحين والرهبان، وبصلواتك الأديان، أن تُطلق لجسدي العنان، وتملأ روحي بالإيمان، وتحررني من قيد الزمان...

ربما هذا هو سرّ حبّ تامر لهذا الدعاء، وترديده له كل يوم؛ فهو وصية من أمّه والشيء الوحيد الذي تركه له والده، تلاوته للدعاء تَجعلهُ يشعر أن أمه معه دائمًا، تُراقبه وترعاه من العالم الآخر.

مَسح دمعةً اعتادت أن تسيل على خده كُلما تذكر والِدته، وانتبه للصوت الذي يُعلن وصوله لمحطته المُعتادة، أما هدى فما زالت تتحدثُ لصديقتيها غير مُكترِثةٍ بالاكتظاظ الذي لم يَخِفَ بعد.

******

وَصلَ إلى المكتبة مُتأخرًا، جلس وسط الكُتب المتراكمة التي جاءت بالأمس وبدأ بترتيبها وتقسيمها حسب الموضوع ووضعِها على الرفوف المُخصصة لذلك، بدا شاردًا ومُشتَّت التفكير، يَفرِكُ عينيه باستمرارٍ لِقلةِ النّوم والإرهاقِ فالرّاحة والهدوء لا يجدان سبيلًا إليه منذ أن اكتشف حُبه لهدى، أميرة أحلامه المنتظرة، كان يُحلل كل السيناريوهات المُمكِنة في قصة حُبه المُبهمة، فإن كلَّمها ورَفضته سيكون قد فقد بصيص الأمل الوحيد الذي يضيء حياته التعيسة، وإنْ وافقتْ بمعجزة على التعرُفِ عليه فستكون بدايةً لتعاستها هي؛ فهو والبؤس إخوة! فكيف له أن يتقدم لخطبتها وهو لم يَجد شُغلًا مستقرًا بعد؟ ناهيك عن مستواه المعيشي المُزري، وهل ستقبلُ هي بوضعٍ كهذا؟ وحتى أن حالفه الحظ وقبِلت به زوجًا، هل سيقبل أهلها تسليم ابنتهم إلى الفقر لينهشها ببطء؟

طريقةُ كلامها وملابسها الأنيقة تدُل على أنها من أُسرةٍ ميسورة، على العموم فقد استنتج أن محاولة التقرُبِ منها ستُؤذي حتمًا أحد الطرفين:

إنْ رفضته ستُخدش كرامته ويفقد الأمل الوحيد الذي يضيء ظلام حياته، وإن وافقت على التعرف عليه وهو الاحتمال الأقرب للمستحيل ستَكتشِفُ

تدريجيًا أنها ستعيش في جحيمِ فقرٍ لا يُطاق ولن تكون كلماتُ الحبِ والحنانِ التي سيُلقيها يوميًا على مسامعها كافيةً لسدِ حاجياتها.

انتزعه من شروده صوت طفلٍ صغيرٍ يحمِل في يده اليمنى دريهمات محسوبة ويسأله ببراءة عن أحد المقرراتِ المدرسية، ابتسم تامر وأخبره أن ثمن المُقرَّرِ أغلى مما يَملِكُه من نقود، لكنه سُرعان ما غيَّر رأيه عندما رأى ملامِح الخيْبةِ تَرتسِمُ على وجهِ الطفلِ البريء فطلب منه الانتظار ثم ذهب ليُحضر له مبتغاه، فجأةً سمع صوتًا ناشزًا يَكرهُهُ قادمًا من غرفة صغيرةٍ بالداخل:

- إنها مكتبة سيد تامر، وليست جمعية خيرية نُعينُ فيها المُحتاجين.

ابتسم رغم غيظه وحنقه الشديدين وأجابه:

- لا تقلق سيد يوسف سأدفعُ الفارِقَ من جيبي.

أومأ يوسف برأسه موافقًا وضحك حتى ظهرت أسنانه الصفراء ثم أحنى رأسه، ليُكمل ما بدأه من حسابات متعلقة بالمكتبة.

قال تامر مُحدثًا نفسه بعد انصراف الطفل:

- "هذا الرجل الضّخمُ غريبٌ حقًا لم أرَ في حياتي أبخل منه! ليس في قاموسه كلمة مساعدة، حتى الأجرة الشهرية لا يدفعها لي إلا بعد إلحاح! رغم أنه يملك مكتبة جميلة لكن الثقافة والفكر بريئان منه براءة الذئب من دم يوسف، لم أره يقرأُ كتابًا في حياتي قط، لا يفتح الكتب إلا ليتفحص ثمنها أو يقيم جودتها لبيعها.

المكتبة إرث من أبيه، لم يتخلص منها بعد وفاته ليس لرغبته في الحفاظ على وصية والده بتركها، ولكن لأنه لا يفقه عملًا غيرها رغم ربحها القليل.

قضى يوسف طفولته يساعد أباه في الشغل منذ تركه لمقاعد الدراسة، حاول والده بشتى الطرق تحبيب العلم والثقافة إليه، لكنه استسلم في أخر المطاف تحت ضغط غباء ابنه ذي البطن المُنتفخة والعقلِ الفارغ.

اليوم يُتاجر في الكُتبِ القديمة طيلة العام وفي بداية السنة الدراسية يبيعُ المُقرراتِ واللوازِمَ المدرسية، كان دائم التذمر من التكنولوجيا ويكرَهُ الإنترنت والهواتف الذكية كرها شديدًا؛ مُعتبرًا إياها السبَبَ المُباشر لعزوفِ الناس عن شراء الكُتب، كان يتحدثُ كل يومٍ مع الزبائن القلائل عن أيام المكتبة الخوالي حينَ كان العملُ مُربحًا، عندها كان الناسُ يصطفون للحصول على الكُتبِ ويدفعون كل مُدخراتهم من أجلها، أما اليوم فلا أحد يسأل عن روايات نجيب محفوظ أو كُتبِ العقَّاد، بالنسبة له الشيء نفسه حدث للتلفاز، فقد حلَّت الأغاني الساقطة مكان الطرب الأصيل وانتزعت الأفلام الهابطة منصب الأفلامِ الكلاسيكية العظيمة المُقتبسة عن القصص والروايات، أما فلسفة الشارع والدردشة العامية فقد أصبحتا أهم من فلسفة ديكارت ولُغة شكسبير".

كان تامر يستغرب دائمًا من هذا الرجل الخمسيني الذي يتحدثُ عن أولئك المُفكرين والأدباء وكأنه يعرفهم عن ظهر قلب! الناس يَحسبونه مُثقفًا وذا

معرفةٍ وعلمٍ واسعين، فقط هو مَن يعلمُ حقيقة أمره، فهذه الجُمل التي تعوَّد إلقاءها على مسامع الزبائن كل يوم ما هي إلا كلماتُ والده المُقتبسة، كان تامر مُقتنِعًا أن سوء حظه هو ما جعل شابًا مُثقفًا مثله فقيرًا مُعدمًا وجعل يوسف شخصًا ثرياً.

الشئ الوحيد الذي جعله يصبر على بخله وِثقل دمه هو إحساسه بالعرفان اتجاهه، لأنه الشخص الوحيد الذي قَبِلَ تشغيله بعد أن أُغلقت في وجهه كل الأبواب.

****

أخيرًا انتهى اليوم، رائحةُ العرقِ البشري لم تُغادر الترام بعد، فَطِن تامر أنه قد أدمن استنشاق تلك الجرعة اليومية من الروائح؛ لذلك كان يشعرُ بصُداعٍ شديد يلازمه يوم الأحد لأنه لا يستعمل فيه الترام أبداً. لم يحاول البحث عن هدى فرؤيته لها تقتصرُ على الصباح، أما في المساء فهي لا تتأخرُ أبدًا إلى ذلك الوقت، وصل إلى محطته المعتادة واخترق الحاراتِ الضيِّقة وهو يرفع يديه في تحياتٍ متفرقةٍ للمارين الذين يعرفهم جيدًا عن ظهر قلبٍ حتى وصل لِحارته، مكانٌ شعبيٌ مبانيه مُهترئة، جدرانه ونوافذه مُتلاصقة في عشوائية غريبة، أزقته الصغيرة يجهلُها عُمّال النظافة، يحفظُ جيدًا كل شبر فيها فقد أفنى طفولته يلعب بين دهاليزها الغريبة، السكانُ طيبون رغم فقرهم المدقع، أبوابهم مفتوحة في الأفراحِ والأتراح، يُحبون بعضهم البعض ويُقَدمون يد المساعدة لمن

يطلبها، رغم ضيق الحال وصعوبة العيش، فابتسامة الرضا تَعلو شفاههم وتُخفي بصعوبةٍ تعبيرات وجههم الشحيحة.

وصل إلى باب العمارة التي يقطنُ بها ورفع نظره إلى أعلى؛ ليتأكدَ من جلوس جده في الشرفة مُنتظرًا عودته كَكُل يوم، ابتسم ابتسامة رضا عندما لمحه مُتكئا على عصاه ينظر إلى المارَّة، فلوح له بيده ليوقظ انتباهه ثم توجه إلى البقال الموجود في ناصية الزُقاق الضيِّق؛ ليشتري بعض المستلزمات المنزلية التي اكتشف نفاذها صباح ذلك اليوم.

في طريقه مرَّ بمجموعةٍ من أطفال الحارة المُستمتعين بألعابهم الطفولية، تتعالى أصواتهم صخبًا رغم تأخر الوقتِ وكأنهم في أوج عطلة صيفية، متناسين وجوب ذهابهم للمدرسة اليوم الموالي، تأملَ تامر بإشفاق أولئك المساكين الذين يلعبون ببراءة في العراء، غير مبالين بما يُخبئه لهم المستقبلُ من نَكدٍ ومشكلات ونغوصات، وقارنهم بأبناء الأغنياء الذين ينعمون في تلك الأثناء بنومٍ هادئ ومريح على أسرتهم الوثيرة بعد أن استمعوا لقصةٍ جميلةٍ تلتها عليهم بالفرنسية أمٌ جميلة ومُثقفة ذات قوام ممشوق، أحداثُ تلك القصص المستوردة تدور أغلبها عن أمير يُحارب الساحرة الشريرة؛ ليُنقِذ محبوبته الغالية، وعندما ينتصر في نهاية القصة يتزوجها ويحكُم بلاده ناشرًا العدل والمساواة بين الرعية، منذ صغرهم يتعلم أولئك المُدللون النائمون كيف يُصبحون أسيادًا عبر تلك القصص ذاتِ المعنى العميق!!

فبعد سنواتٍ سريعةٍ سيتخرَّجُون في أحسن المدارس والجامعات الفرنسية، وبمساعدة أقربائهم ومعارفهم سينالون بسرعةٍ مناصبَ مرموقةً في المُجتمع؛ ليُصبحوا أسيادًا بدورهم، وعندها تتحققُ النبوءة الحتمية لقصصٍ طفولتهم وسيحكمون هؤلاءِ الحُفاةَ العُراةَ بأجرٍ لن يمنحهم حدًا أدنى من الأمان.

اشترى اللوازمَ التي يحتاجُ إليها وعاد مُسرعًا في خطواته، في الطريق صادف عند باب المسجد المُلتصق بالعمارة التي يقطُنها صديق جده المُقرب الشيخُ حسن وهو يهمُ بالخروج مُرتديًا بُلْغَته الضيِّقة الصفراء.

حيَّاهُ تامر بصوتٍ خافتٍ قائلاً:

- مرحبًا يا شيخ كيف حالك؟

ضيَّق عينيه مُدققًا قبل أن يتهلّلَ وجهه:

- ولدي تامر! كيف حالك لم نرك منذ فترة! لماذا لم تعد تحضرُ للصلاةِ في المسجد؟

أطرقَ تامر برأسه خجلًا ثم أجابه:

- لا شيء، إنه فقط التعبُ والإرهاق اليومي يا عمي.

ابتسم الشيخ ابتسامة عريضة وهو يداعب لحيته البيضاء الطويلة وقال:

- العبادة أيضًا راحة يا ولدي، إن ضيعتها فقد ضيعتَ معها البركة في الرزق والصحة.

أومأ تامر برأسه موافقًا كلامَ الشيخِ الوقورِ الذي يُكِن له الحبَ والاحترام الشديدين، فهو إمام مسجد الحي منذ عقود، تربى تامر وتعلم القرآن صغيرًا على يديه، وكان مُتعلقاً به كثيراً، كان رجلًا ذا هيبة خاصة يُصلي بالناس ويَفُكُ في منازعات الجيران، إذا صمت عليه الوقار وإذا تكلَّم علاه البهاء، لا ينطِقُ إلا بطيب الكلام، يُحب التطيبَ وتَفوحُ منه رائحة مِسكٍ قوية تجذِبُ إليه كل الناس.

لم يستطع تامر أن يُجادله في موضوع صلاة الجماعة وتقوقعَ على نفسه خجلاً؛ لأنه لم يركع لله ولو ركعة واحدةً منذ فترة ليست بوجيزة، ولو عَلِمَ الشيخُ بذلك لَزَجَره.

قال الشيخ حسن وهو يتساءلُ عن غياب صديقه المُقرب:

- هل جدك في المنزل؟ لم أره منذ أسبوع!

أجابه تامر بسرعة، لينسيه موضوع الصلاة:

- هو ليس على ما يرام هذه الأيام، لقد أصيبَ بوعكةٍ صحية لذلك يُلازم المنزل.

أجابه الشيخ حسن باهتمام:

- سأذهب لزيارته غدًا بإذن الله، فقد اشتقتُ إليه كثيرًا ولم أتعود أن يغيبَ عني فترةً طويلة كهذه.

غادر مُودعًا تامر الذي دلف بسرعة إلى العمارة؛ قبل أن يلتقي شخصًا آخر يُؤخره، فقد بلغ منه التعب مبلغًا عظيمًا ولا يكاد يفتح عينيه، كان الظلام دامسًا في الممر الداخلي فمشى يخترق السواد ويتحسس بيده الحائط باحثًا عن "الدرابزين"، فجأة ترنح مُتعثرًا بإناء للغسيل تركته قُرب السلالم كعادتها جارتهم الحاجة أمينة التي تسكن الدور السفلي، ألقى اللعناتِ جزافًا عليها وعلى ابنها الغبي المُتسبب في العطل الكهربائي قبل أسبوع عندما حاول سرقة الكهرباء من أحد الأعمدة المُثبتة في الشارع، صَعِد الدَرج يلتمس طريقه حتى وصل للدور التاني، أدار المفتاح بهدوء ودخل البيت، كان جده جالسًا على كرسِّي خشبي قُرب الصالة يتلو القرآن، رجلٌ عجوز ببشرة سمراء وشعرٍ يشتعل شيبًا، رسم الزمن على وجهه حروفًا غائرة تروي خطوطها حكاياتِ سنواتٍ من المعاناة والشقاء، جسده نحيلٌ ومثقلٌ بالأمراض، يتكئ في مشيته على عكازٍ خشبي مُهْتَرِئ، تقدم إليه تامر وقبّلَ رأسه كالمعتاد، وجلس لتناول العشاء البسيط الذي أعده له عندما علم بوصوله.

****

على الطاولة بدا تامر شاحبَ الوجهِ مهمومًا، ويمضغُ الخُبزَ بصعوبة بالغة وهو مُنصبُ التفكير على وَضعه المعيشي المُزري وحُبه المستحيلِ لهدى، وحال جده المريض الذي لا تكفي الأجرة الشهرية ثمن دوائه، لم يُوقظهُ من تفكيره الذي كاد يُغرِقه سوى صوتُ جده مناديًا إياه بصوتٍ أنهكه المرض:

- تامر! ما بالك يا ولدي شارد الذهن؟.

زفر زفيرًا عميقًا وأجابه:

- لا شيء يا جدي، لا تقلق! انتبه لصِحتك فقط.

- أخبرني فأنا جدُك وأعلم جيدًا أن هنالك أمرًا ما يشغلُ تفكيرك.

تنهد تنهيدةً عميقةً، وأجابه:

- لقد مللتُ هذه الحياة التعيسة، فقد أكمَلتُ الثلاثين قبل شهرٍ ولا أُحس أنني أفعلُ شيئًا مفيدًا في حياتي، كلما استطعتُ إيجاده بعد سنواتٍ من الدراسة عملٌ متعبٌ أتقاضى عنه أجرًا زهيدًا لا يكفيني، كل زملائي في الدراسة شقوا طريقهم، منهم مَن توظف ومنهم مَن أنهى تخصصه وأصبح محاميًا معروفاً، أما أنا فأختبئ في مكتبةٍ حقيرةٍ صاحبها أحقرُ منها، أتوسل كلَ يوم ألا يأتي أحدٌ من زملائي القدامى ليُشاهدني على هذا الحالِ بعد أن كنتُ الأول دائمًا على دفعتي.

وضع الجد كفه الذابلة برقة على كَتفِ تامر قائلاً:

- ثق بالله يا ولدي ودعك من هذه الأفكارِ المُظلمةِ التي يزرعها الشيطان في عقلك، واحمد ربك على كُلِ شيء، فأنتَ تَجهلُ ما يُخفيه لك القدر.

تحجرت الدموع في مُقْلتيه وانكفأت إلى الداخل وقال بحسرة:

- أنا أحمد الله كل يوم في سري يا جدي، الموضوعُ فقط أنني يئستُ من وضعي المُزري، وسئمت العيش على هامش الحياة، وأريد أن يكون لي دورٌ في

المجتمع أُحقِقُ به ذاتي وأضمن به مستقبلي، أما القدر فأنا متأكدٌ أنه يُخفي لي أسوأ مما أعيشه اليوم.

قام جده من مكانه بصعوبة بالغة مستندًا على عكازه ورَبَت على كتفه ليواسيه وهو يقول:

- لا تَقْنط من رحمة الله يا ولدي، هو من خلقك وهو من سيُدبر أمورك فرحمته وسعت كل شيء، سأذهب الآن للنوم فقد تعِبتُ كثيراً، وغدًا بإذن الله سأدعو لك دُعاءً خالصًا في صلاة الفجر؛ عسى الله أن يتقبله مني ويُفرِّج عنك ولو القليل من همومك.

ما أن أكمل كلامه حتى غادر الغرفة تاركًا تامر غارقًا في همومه وأفكاره.

قام من مكانه وحمل بقايا الطعام إلى المطبخ الصغير في زاوية البيت، ثم دخل غرفته الصغيرة المُهملة، غيّر ثيابه واستلقى على سريره البالي ذي الأزيزِ المُزعج، وفتح هاتفه ليُلقي بنظرةٍ أخيرةٍ على حبيبته قبل أن يستسلم لنومٍ عميق وهو يُعانق الهاتف.

الفصل الثاني

يومٌ مُختلف

الأربعاء 14 فبراير

الساعة السابعة والنصف صباحًا، الترام ممتلئ كعادته، أصحاب الحظ الجيد ممن وجدوا مقاعدَ شاغرةً ينعمون بقسطٍ من الراحة الإضافية بينما بدأ السُكارى باحتراف الترنُح، استند تامر على أحد الأعمدة، لا يكادُ يفتحُ عينيه إلا بصعوبة بالغة، شعرهُ غير مرتبٍ وقميصه منكمشٌ وحذاؤه غير ملمع، بينما رسم الأرق خُطوطًا عشوائية تحت عينيه، لم يعد يستطيع النظر في المِرآة عند استيقاظه، فقد أصبح يكرَهُ ذلك الوجه الغريبَ الشاحبَ الذي ينظرُ إليه بإشفاق.

توقفتِ العربة في المحطة التالية، هدى تَصعد في وقتها المُحدد ككُلِ يوم، جمالٌ ملائكي تجسَّد في صورةٍ بشرية، كأن هالة من ضوء سماوي تُحيطها لِتُميزها عن الأخرين، ذُهل لمنظرٍ مُختلف لم يره من قبل أبدًا جعل وجهه يُشرقُ وقلبه يخفِقُ اضطرابًا وهو يقول: "هدى وحيدة، نعم لأول مرة تركب لوحدها"!

لم يتمالك نفسه من الفرح فلن يجدها على مثل هذا الحال أبدًا، توجه نحوها دون أدنى تفكير فيما سيقوله، عزم أن يبوح لها بكل شيء، عن خوالج صدره، وحبه العظيم لها، أراد أن يُعانقها ويبكي بين أحضانها، أراد أن يمسح دموعه

بوشاحها الأبيض الذي اعتادت أن تلُفه حول عنقها، والذي تُداعب رائِحة عطره القوي أنفه كلما اقترب منها، أراد فِعل كل شيء تمناه وحَلُم به في منامه.

بينما هو غارقٌ في أحلامه الوردية اختفت الفتاةُ فجأةً وسط الجُثثِ البشرية العابسة، إتكأ على أحد الأعمدة وهو يُكلم نفسه بصوت غير مسموع: "اليوم أو أبداً، سأتوكل على الله وأُفوض أمري إليه كما نصحني جدي، سأخبرها بكل شيء أخفيه في قلبي، فعلى العموم أنا لا أملك شيئًا لأخسره، هذا أفضل من انتظار قاتل سيقودني نحو الجنون".

وصل الترام إلى محطة تامر المعتادة وسط المدينة وتوقف ببطء، ألقى بنظرة عبر النافذة وَصمّمَ على عدم النزول، قائلًا في محاولة لتبرير قراره العفوي وقد غمرهُ الحماس:

- " فلتذهب تلك المكتبةُ إلى الجحيم، لن أضُرَ أحدًا إن غِبتُ اليوم، فهذه لحظةٌ حاسمة في حياتي كلها، سأُكلم معشوقتي للأول مرة!"

انطلقت العربةُ من جديدٍ بينما استمر هو في التحديق عبر النافذة وخياله يَسبحُ بين الاحتمالات المُمكن حدوثها.

بعد دقائق رنّ جرسُ الترام مُعلنًا وصوله إلى محطة الجامعة، وبدأ الطُلاب ينسلُّون من بين الرُكاب للنزول، خرجت هدى بهدوء وسارت عبر الشارع وهو يمشي خلفها مُتتبعًا خُطاها حتى عبرت باب الجامعة الرئيسي وتوجهت نحو الساحة الكبرى.

لم يكن قد دخل الجامعة منذ سنوات، الصخبُ يملأ الساحة، مبانٍ مُتراصة ينظر بعضها لبعض في خُيلاء، أجنحةٌ متعددةٌ باردةٌ ذات جدران إسمنتية صامتة كأنها تنعي أيام الأوج الغابرة، حيث كان للعلم معنىً وللدراسة هدف.

سار تامر وهو يستكشِفُ المكان الذي تغيرت ملامحه؛ مجموعاتٌ مُتفرقةٌ من الشباب انتشرت في أرجاء الساحة، أجساد بوجوه مختلفة، اختلطت ألوان ملابسهم وأشكالهم وتسريحاتهم، بعضهم مُحتشم وأنيق، وآخرون كأنهم شخصياتٌ من عالم ماد ماكس الخرافي، لا تُميز جنسَهم إلا بعد تدقيق، منهم من يرتدي سروالًا ضيقًا أو مُمزقًا ويحمِل كتابًا تكاد تُقسم أنه لن يكتشف محتواه إلا عند حلول فترة الامتحانات.

مرَّ قُرب مجموعةٍ أخرى من الطلاب صنعوا حَلقَةً حول شاب ذي شعرٍ طويلٍ مُنسدل على كتفيه، يُغنون على نغمات قيثارته ويرقصون غير مبالين، بينما اجتمع أخرون- لم يزعجهم صوت الموسيقى- قربهم يُنصتون باهتمام إلى شابٍ يَضعُ نظاراتٍ سميكةٍ ويشرحُ لهم درسًا من الدروس المُستعصية وقد انتفضَ ريشه زُهوًا وكأنه يُفسر نظريةً من نظريات أينشتين المُعقدة، فيما تُؤكد ملامحهم المندهشة أنهم لا يفقهون شيئًا مما يقوله.

مشى وسط هؤلاء الطلاب يتأملهم ويتأسف للحال الذي آلت إليه الجامعة، ففي الماضي القريب كانت مركزًا للعلم والعلوم ومنارة للبحث

والابتكار، أما اليوم فهي مقر اجتماع شبانٍ نزحوا من كوكب آخر، قليلون فقط من يحملون همّ الدراسة والتحصيل، أما الأغلبية فقد تركوا أهدافهم مُعلقة بخيطٍ رفيع يجره المجهول نحو المجهول، يكرهون الجامعة ولا يبذلون فيها جُهدًا يُذكر، يتذمرون منها وكأنها عقابٌ سماوي يذوقونه مجبرين، كان تامر يستغرب لأمرهم حقًا فبعد أن تَنغَلقَ في وجوههم سُبل المدارس العليا يُهرولون إلى الجامعة فتقبلهم بصدرٍ رحب لا يُقدره أغلبهم، وما أن يضمنوا مقاعدهم فيها حتى تبدأ حملات انتقادها وتسفيه قوانينها وكأنهم أُجبروا كَرهًا على دخولها!

توقف برهةً وجال بنظره باحثًا عن هدى التي فقدها في تأملاته الفلسفية، بعد بحث بسيط لمحها تدخل للحديقة فلحقها إلى هناك بخطوات سريعة.

الحديقةُ أجمل مكان في الجامعة، مازالت تحافظ على جمالها ورونقها الذي لم يتغير منذ سنوات، مكان خلابٌ وفاتن، الأزهار تتطاول فيها مبرزة نفسها نحو الضياء، وأغصان الأشجار تُعانق بعضًا في رقة وحنان، موسيقى هادئة تنبعثُ من حفيف أوراقها وعبقُ الورد اختلط برائحة نسيمها، تسأَلُ نفسك لرؤيتها: هل هي حديقة جامعية أم بستانُ قصرٍ بابلي قديم؟!، كل تلك الأجواء الساحرة أيقظت في ذاكرة تامر أيام الدراسة الخوالي التي قضاها يذاكر في المكان نفسه وتحت الأشجار نفسها.

جلست هدى على أحد الكراسي الحديدية، وأخرجت من حقيبتها روايةً رومانسيةً تحملها معها معظم الأوقات، وسرعان ما غاصت في أحداثها باهتمام.

وقف على مسافة مترين منها ووضع يده على قلبه مُتحسسًا نبضه القوي، ثم مسحَ بسرعة العرق الذي صُبّ من جبينه، كلما حاول الاقتراب أكثر ارتفعت دقات قلبه وارتجفت أطرافه، نظر إلى ساعة معصمه الصينية المقلدة فوجدها تُشير إلى العاشرة وخمسة دقائق.

قال وهو يُحدثُ نفسه؛ ليحشد قواه ويثبت عزيمته: "هذه ساعة الصفر بالنسبة لي، كل الأفكار والأحلام التي بنيتها سأرى أين ستأخذني الآن، يجب أن أثق في نفسي وفي قدراتي، أنا شخص جيدٌ على كل حال رغم فقري ومستقبلي المجهول، وكما قال جدي : يجب أن يكون إيماني بالله قويًا وأكون واثقًا من أنه لن يخذلني".

أغمض عينيه بُرْهة وتلا دعاءه المعهود، ففي ساعة حاسمة كهذه، يحتاج إلى دعم والدته التي تسكن العالم الآخر.

اقترب منها أكثر حتى وقف أمامها وهو يرسمُ على وجه ابتسامةً خجولةً؛ ليخفي بها توتره ثم قال بارتباك:

-صباح الخير آنسة هدى كيف حالك؟

- رفعت رأسها باستغراب ونظرت إليه وهي تُدقق في هيئته غير المرتبة؛ قميص مُهْتَرِئ فاقِعُ اللَّون، وبنطال بالٍ من كثرة الاستعمال، وحذاءٌ متهالك فَقَدَ بريقَ سواده منذ فترة طويلة.

ابتسمت ابتسامةً شحيحة؛ لتُخفي خوفها الشديد وحيَّته بتحفظ قائلة:

- مرحبًا يا سيدي... هل يُمكنني مساعدتك؟

أجاب وهو يُخفي خجله الشديد بابتسامة مُصطنعة:

- اسمي تامر حمدي.... وأنتِ اسمك هدى، صحيح؟

أجابت وقد رسمتْ علاماتِ الدهشةِ على وجهها:

- نعم صحيح أنا هدى! ولكن من أين لك أن تعرف اسمي؟!

قال بعفوية سَاذَجَة، وقد أطرق رأسه:

- أنا أراقبكِ منذ سنة تقريبًا كلما صادفتُك تركبين الترام.

خلّلتْ أصابعها لتُرتِب خصلات شعرها الطويل التي عبث بها النسيم حتى غطى عينيها السوداوين وقالت وقد قَطَّبت حاجبيها:

كل فتياتِ المدينة يركبن الترام! ذلك لا يُعطي أحدًا الحق في مراقبتهن أو التنقيب عن أسمائهن!

أجابها وقد احمرت أذناه من فرط الخجل:

- أنا أعلم ذلك جيدًا لكنني لم أستطع منع نفسي من مراقبتك.

استنشق بعض الهواء، وأكمل كلامه باستعجالٍ ليتخلّص من ذلك الموقف المُربك:

- لن أُكثر عليك بالكلام، فأنا أعلم أنك مشغولة الآن، أنا شابٌ جاد وأريدُ التعرُف عليك أن رغبتِ بذلك...، فهل تقبلين؟

تبدلت ملامح هدى الناعمة لتُصبح حادةً بشكل غريب ومفاجئ وأجابته بصرامة مبالغ فيها:

- ما قِلة الأدبِ هذه؟ هكذا وبدون مقدمات!! ثم مَن أنت لأتعرف عليك أصلاً؟!

سكتت قليلًا لتتمالك غضبها لكنها لم تستطع فأكملت بعنف:

- أنت تقول إنك تراني في الترام عندما تركبه، فما الذي جاء بك هنا؟ هل أنت طالب في الجامعة أم أنك تبعتني إلى هنا أيضًا؟

لم يتوقع تامر أن تطرح عليه مثل هذا السؤال، فأجابها بارتباك وتلعثمٍ واضحين:

- لقد تبعتك إلى هنا.... فأنا أبحث عن فرصة لأكلمك منذ شهور، واليوم قررت أن أفعل ذلك دون تردد.

أجابته وهي تُقفِل كتابها وتهمُ بالمغادرة:

- لقد كان عليك أن تُفكِر جيدًا قبل أن تفعل، فما تقوم به الآن يُسمى وقاحة.

ما أن انتفضتْ من الكُرسي مُحاولةً تجاوزه حتى أمسكها من طرفِ ثوبها بعفويةٍ مُحاولًا إقناعها بعدم الذهاب قائلاً:

مهلًا آنسة هدى، أظن أنك أخطأتِ في فهم قصدي أريد فقط أن أخبرك أن....

انفعلت وتملّكها الخوف وهي تُبعد طرف ثوبها عنه، وصرخت بصوت عالٍ:

- ابتعد عني أيها المجنون وإلا اتصلت بالشرطة.

ارتبك تامر ورفع كلتا يديه إلى فوق، وقال مُحاولًا تهدئتها:

- أنا لا أريد أن أُزعجك حقًا، إن كنت تريدين أن أرحل عنكِ فسأفعل بالتأكيد فقط لا تخافي مني.

فجأة أحسَّت هدى بيد غريبة تجذبها بقوة من مرفقها فاستدارت بسرعة؛ لترتطم عيناها بشابٍ غريب انبعث من العدم.

حدّق ذلك الشابُ لثوان في تامر، ثم التفت ليقول لها وهو مقطبٌ حاجبيه:

- ما بالُكِ تصرخين يا هدى؟ ومَن هذا الغريب الذي تتحدثين معه؟

اضطربت عندما اكتشفت أن الجاثم أمامها هو حبيبها أحمد الذي كان قريبًا من الحديقة وسمِعَ صوتها المُرتفع.

ارتمت دون تفكير بين ذراعيه وقالت بنبرةٍ مُرتبكة:

- الحمد لله أنك جئتَ في الوقت المناسب يا أحمد، فهذا الشابُ يعاكسني ويقول إنه يُراقبني منذ فترة حتى أنه تبعني إلى هنا.

دنا أحمد قليلًا من تامر وعيناه تشتعلان غضبًا، وأمسك بخناقه ثم رجه بعنف قبل أن يدفعه إلى الخلف وهو يصرخ بشيء من التحدي:

غادِر الآن أايها المتسول وإلا سترى مني ما لا يرضيك.

انسحب تامر إلى الوراء قليلًا على إثْر الدفعة قبل أن يسترجع توازنه، احمرت عيناه غضبًا، وعاد ليدفع أحمد بقوة لم يعهدها في نفسه فأسقطه أرضًا، وقال وأنفاسه تتسارع بشدة:

- اسمع أيها الأحمق، أنا لستُ مُتسولاً، لقد كُنت طالبًا في هذه الكلية قبل سنوات وتخرجتُ بمرتبةٍ متفوقةٍ لن يحلم بها أغبياء مثلك أبدًا.

احتشد مجموعة من أصدقاء أحمد الذين كانوا على مقربةٍ من مسرح الأحداث عندما شاهدوا صديقهم يسقطُ أرضًا، ودون مُقدماتٍ أحاطوا بتامر وانهالوا عليه بالضرب من كل الجهات، حاول بيأسٍ التصدي لهم لكنه لم يستطع لكثرة عددهم فسقط أرضًا يتأوه من الألم لكثرة ضاربيه فداسوه بأحذيتهم واشتدوا عليه رغم صُراخه واستعطافه المُتزايد.

بدأت صيحاتُ الطُلاب الآخرين تتعالى، واحتشد عدد أكبر منهم حوله وانطلقت الألسنة تقذِفُ تامر بالسب والشتم وتلفيق التُّهم بكل أنواعها، بعضهم يظُنه سارقًا قُبض عليه متلبسًا، وآخرون تمادوا في نشر الإشاعات

العفوية، وقالوا إنه حاول اغتصاب طالبة ما...، وكُلما التحق وافد جديد بالحشد أراد أن يمنحَ تامر لكمة من اللكمات المجانية.

كل هذا يحدث وهدى تشاهد في اندهاش قبل أن يستيقظ قلبها وتُشفق عليه، فهي لم تتوقع أن تتطور الأوضاع إلى هذا الحد، وأحسَّت في قرارة نفسها بذنبٍ شديد واعتبرت أن المسكين لا يستحق ذلك العقاب القاسي؛ فهو لم يقُل شيئًا سيئًا رغم كل شيء، ذنبه الوحيد أنه أراد التعرف عليها.

أفلتت بخفة يد أحمد، واقتحمت الحشود وهي تصرخُ وتطلبُ منهم التوقف عن ضربه، لكن توسلاتها لم تزدهم سوى رغبة بالاستمرار وكأنهم وجدوا في ضربه ضالةً مجهولةً فقدوها منذ زمن.

تقدم مخترقًا الحشودَ حارس أمن نحيف، يرتدي بذلة رمادية تحملُ شعار شركة أمن خاصة وقبعة شمسية شبه بالية باللون نفسه، دفع الطُلاب محاولًا إبعادهم عن تامر، فتفرقوا بصعوبة من حوله وهم يُزمجرون ساخطين على تدخله الذي حرمهم مُتعةً قلّما يجدونها في أيام دراستهم الرتيبة والمُشبعةِ بالملل.

صرخ فيهم بقوةٍ وهو يُساعد تامر على الوقوف:

- ما لذي يَحدُث هنا؟ ! ولماذا تضربونَ هذا الشاب المسكين؟!

أجابه أحمد بفظاظةٍ مُستنكرًا تدخله المفاجئ، ومُحفزًا الآخرين على الاستمرار:

- هذا المُتسول دخل إلى الجامعة وتحرش بخطيبتي، وعندما أردتُ إيقافه هجم علي وضربني؛ لهذا سيذوق العقاب الذي يستحق.

سَرَتْ وسط الحشد همهمات استنكار.

رقَّ قلب الحارس حين نظر لملابس تامر المُمزقة، ووجهه المُنتفخ الذي اختفت ملامحه من كثرة الضرب، فسأله وهو ينظر إليه بإشفاق:

- هل أنت طالب في هذه الجامعة أيها الشاب؟

أجابه بصعوبة بالغة، وهو يمسحُ دمًا قليلًا سال من أنفه:

- لستُ طالبًا لكنني خريج هذه الجامعة، حصلتُ على الإجازة منذ خمسة سنوات.

إذن فلا يجب أن تكون هنا أصلاً،

سكت قليلًا ليُفكر ثم أكمل:

- هل صحيح ما يقولونه عنك، أنك تحرَّشت بفتاة ما؟

هز رأسه نافيًا وهو يفرك عينيه المنتفختين؛ ليرى بوضوح وجه الحارس:

- أُقسم أنني لم أقل لها شيئًا مشيناً، هُم مَن هاجموني دون سابق إنذار.

أجابه الحارس وهو يُبعد بقية الطلاب من أمام الطريق:

- يجب عليك أن تغادر الآن قبل أن يقتلوك ضربًا.

نَفَض الغبار عن جسده وهو يبحث عن فردة حذائه التي فقدها في الاشتباك، ثم مسح بيده الدم الذي نَزفَ مُجددًا من أنفه، وهزَّ رأسه وهو يقول:

- سأخرج وحدي، أنا أعرف جيدًا أين يوجد الباب، شكرًا لك على مساعدتي.

قال الحارس بتذمر وهو يمدُ له منديلًا ورقيًا:

- لقد كُنتُ جالسًا في مقصورتي أُشاهد مباراة كرة قدم على التلفاز، عندما جاء أحد الطلاب وأخبرني أن شجارًا قد اندلع في الحديقة.

رد عليه تامر متأسفًا وهو يأخذ المنديل:

- أنا أعتذر منك لأنك تركت المباراة وجئت لمساعدتي.

أجابه الحارس بعد أن ألقى نظرة خاطفة على الساعة في هاتفه:

- إنها العاشرة وعشرون دقيقة لا بأس الآن، فلا زال بإمكاني أن ألحق الدقائق الأخيرة من المباراة، يجب أن تعلم أنني لم أتعمد مساعدتك أبدًا فهذا عملي، كنت سأخسر وظيفتي اليوم لو تعرَّضتَ للقتل، وذلك الأحمق الذي يساعدني في الحراسة لم يحضر اليوم؛ لذلك أنا مُلزم بتغطية غيابه أيضاً، سأرافقك الآن إلى الباب، فأنا لا أضمن أنك لن تعود للاشتباك معهم من جديد.

مشى تامر مطأطئ الرأس بين الطلاب يجُر أذيال الخيبة والانكسار، فالجامعة التي كانت تشهد على تفوقه في الماضي تطرده اليوم ذليلاً، شريط ذكرياته يمرُّ سريعًا أمام عينيه، بالأمس ذاق هنا طعم التفَّوق والنجاح وصفّق له الأساتذة والطلاب، أما اليوم فهو يتجرَّعُ مرارة الذُّل والانكسار وكل هذا أمام مَن؟!! أمام حُب حياته، الفتاة التي تُعطر أحلامه، ها هي واقفة بين الحشود تنظرُ إليه بشفقة دون أن تدري أصلًا من يكون؛ سارقٌ غبي أم مجنون تائه، وتُمسِكُ يدًا غريبة لم يسمع عن صاحبها أبدًا في محادثات الترام.

كل هذا يحدث أمام أنظار الطلاب اللذين تجمهروا في الحديقة، بعضهم يسخرُ من الموقف والبعض الآخر ينظُر إليه بإشفاق، بينما حمل آخرون هواتفهم الذكية لتوثيق الحدث، أما هدى فقد منعتها الدهشة والإحراج من الكلام، بينما وقف أحمد- الذي لم يَشفِ غليله بعد- يُلقي على مسامع تامر شتى أنواع التهديد والوعيد.

ودَّع الحارسَ وخرج يمشي بصعوبة على الرصيف، عند وصوله إلى المحطة تحسّسَ جيبه باحثًا عن محفظته وهاتفه فاكتشف اختفاءهما، وفَطِن أنه تعرض للسرقة في الاشتباك دون أن يشعر، لام نفسه على ما حصل، وعاد مشيًا على الأقدام كل تلك المسافة إلى منزله؛ ليُغيِّر ملابسه قبل أن يذهب إلى عمله، جرَّ معه في طريقه أذيال الخيبة والندم وبكى بحرقة حظَّه العاثر، فقد أيقن أنه فقد كل أمل في أن تقبل به، كيف ذلك وقد داسته أحذية الطلاب وطُرد وأحتُقر

أمام أنظارها؟ لم يشعر بألم الكدمات المنتشرة في جسده بقدر ما شعر بذُلٍ رهيب ينهش روحه وهو يجر خطواته الثقيلة على مقربة من سكة الترام الحديدية.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة عصراً، عندما وصل إلى باب العمارة التي يسكنها وما أن دلف إلى الداخل وهمّ بصعود الدرج حتى فتحت جارته الحاجة أمينة باب شقتها وجرّته من كتفه بلهفة وهي تلهث قائلة:

- تامر، الحمد لله أنك وصلت أخيرًا يا بُني، فقد كنت أحاول الاتصال بك منذ ساعات لكن هاتفك لا يرد.

نسى تامر همومه في لحظة ليحِل محلها همٌ أكبر، التفت إليها وقد تغيَّر لونه وارتعدت فرائصه فهو يعلم أنها لن تتصَّل به إلا إذا ألَّم بجدِه أمر طارئ فقال:

- ماذا حدث يا حاجة أخبريني بسرعة؟

أجابته وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة:

- إنه جدك يا تامر لقد انهار في المسجد عند صلاة الظهر، وقد حمله بعض أبناء الحي إلى المُستشفى ومعهم الشيخُ حسن.

تسمَّر تامر في مكانه للحظات، وكأن صاعقة ضربته ثم انتبه من غفلته وضغط بيديه على كتفيها بقلق كأنه سيكسرهما وهو يقول:

- إلى أي مستشفى حملوه؟

أجابته بحروف متقطعة:

- لقد... لقد أخبرني ابني أنهم أخذوه لمستشفى الورود القريب من الحي.

ما إن أكملت الجارة كلامها، حتى قفز من الدَرَج وأطلق ساقيه للريح راكضًا نحو المستشفى.

وصل سريعًا إلى المدخل الرئيسي ثم استدار يمينًا عبر الرواق الذي يَفصِل مكتب الاستقبال عن الأجنحة الداخلية كما أشارت له الممرضة، جال بنظره باحثًا عن لافتة قسم المستعجلات حتى وجدها، وما أن دلف إليها حتى لمح الشيخ حسن على يمينه جالسًا في قاعةٍ للانتظار على كرسي يقرأ قرآنًا جيبيًا تعوَّد على حمله.

ركض نحوه بلهفة، وسأله وهو يلهثُ ويُقلّبُ رأسه يمنة ويسرة:

- كيف حال جدي يا شيخ حسن؟

أغلق مصحفه بهدوء وأجابه:

- لقد أدخلوه للعناية المركزة وطلبوا مِنا الانتظار هنا...

سكت قليلاً، وهو يتأمل باستغراب آثار الكدمات على وجه وملابسه الممزقة دون أن يُعلقَ عليها ثم أكمل كلامه:

- لقد أخبرتني إحدى الممرضات أن حالته خطيرة والطبيب يقدم ما بوسعه لإنقاذه.

جثا تامر على الأرض منهاراً، وأخفى وجهه بين كفيه وبدأ يبكي بحرقةٍ وهو يُفكر في حياته التي تزداد شؤمًا، فهذا اليوم اللعين لا يضاهيه سوادًا

وقسوة سوى يوم وفاة أمه، منذ استيقاظه وهو في خسارة مستمرة؛ حُبه لهدى، كرامته، والآن جده الذي يُسارع الموت وحيدًا بالداخل.

شريط ذكرياته يمر أمام عينيه بكل تفاصيله: جده هو الشخص الوحيد الذي عوّض غياب والده ووفاة أمه، مشكلات كثيرة عاشها في صغره، فقدْ كان الأطفال في سنه يسخرون منه؛ لأنه دون أب فلقبوه بابن الهارب، حتى المدرسة استعصى عليه ولوجها لأن اسمه لم يكن مُسجلًا في دفاتر الحالة المدنية؛ فوالده لم يُوثِق عقد زواجه بوالدته، لذا تبناه جده وأعطاه لقبه "حمدي" وكان دائمًا بقربه يدعمه ويسانده ويرفع معنوياته.

لم يكن رجلًا غنيًا بماله، بل بحبه وحنانه وعفويته، عمل لعقود حمّالًا في السوق البلدي يحمِلُ البضائع للتجار مقابل دريهمات معدودة، كانت شبه كافية لتربية تامر الذي كان متفرِّغًا تمامًا لدراسته.

لكن مع مرور الأيام، اشتد عليه المرض، ولم يستطع الاستمرار في العمل، فاضطُر تامر إلى التخلي عن حِلْمِه في أن يصبح محاميًا والبحث عن عملٍ؛ ليغطي به مصاريف علاجه، كان قد حصل على الإجازة بالفعل، هنا بدأت قصته مع البطالة والبحث الطويل الذي أفضى به صاغرًا إلى قبول العمل في المكتبة رُغمًا عنه.

بكى بحرقةٍ ومسح دموعه بقميصه المُمزَّق الذي لم يجد الوقت لتغييره، بينما رفع الشيخ حسن صوت تلاوته قليلًا في محاولة يائسةٍ لتهدئته.

بعد انتظار دام ساعة خرج طبيب يرتدي وزرة بيضاء مفتوحةِ الأزرار، بشرته شاحبة وشعره خفيف أبيض من القاعة التي أشار إليها الشيخ من قبل ودنا من قاعة الانتظار المكتظة، ثم وقف ينادي بصوت مرتفع وهو يتفحصُ بعض الأوراق التي يحملها بيده:

- أين هم عائلة السيد أكرم حمدي؟

انتفض تامر من مكانه عند سماعه اسم جده واتجه نحوه بلهفة، وهو يقول:

- أنا حفيده أيها الطبيب أرجوك أخبرني كيف حاله الآن؟

نظر إلى ملابسه الممزقة وحالته المزرية، وآثار الكدمات التي غطت وجهه بالكامل ثم قال بنبرةٍ كلها حازمة:

- جدك يحتاج لعملية فورًا.

جَمُد تامر مكانه قبل أن يتدخل الشيخ حسن بسرعة قائلاً:

- اعمل ما بوسعك أيها الطبيب لإنقاذه.

أجابه الطبيب بتذمر:

- سأفعل إن شاء الله، ولكن يجب أن تعلموا أن العملية ليست سهلة، وتكاليفها مرتفعة جدًا وتتجاوز مائة وخمسين ألف درهم.

نظر إليه تامر بدهشة وقد تملَّك الرعب قلبه:

- كل هذا المبلغ من أجل العملية؟

- نعم، فجدك يحتاجُ لعملية قلب مفتوح وهي مُكلفة كثيرًا، نحن لا نملكُ الكثير من الوقت، يجب أن تقوم بإجراءات الدفع الآن، سأطلب من الممرضات تجهيز غرفة العمليات لنباشر العملية، وإن كنتَ لا تملك المال الكافي الآن فلا تقلق، أترك للإدارة شيكَ ضمانٍ ريثما تُحضر النقود.

أجابه تامر وقد بدا عليه التوتر والارتباك:

- أنا أملك دفتر شيكاتٍ في المنزل، لكن ليس في رصيدي البنكي سوى دريهمات قليلة هي كل ما تبقى من أجرتي الشهرية، وحتى لو أعطيتكم شيكًا فأنا لن أستطيع توفير المبلغ ولو بعد شهور وسأُسجن بسببه بالتأكيد!.

سكت قليلًا يُفكر، ثم أضاف:

- أنا لا أستطيع تحمُّل تكاليف عملية كهذه أيها الطبيب، لذلك سأنقله إلى مستشفى حكومي بسرعة.

أجابه الطبيب وقد بدا عليه الغضب من قراره:

- لا يمكن للمريض أن يتحرك الآن، هو في العناية المركزة وأي حركة إضافية ستؤثر عليه، ثم لا يمكنك مُغادرة المستشفى قبل أن تدفع مصاريف الإسعافات التي قمنا بها من أجله، فهذا مستشفى خصوصي، وكان عليك التفكير بذلك قبل أن تُحضِرَه إلى هنا.

شعر تامر أنه سُجن بين نارين، فكّر في حلٍ لمأزقه فلم يجد، ثم قال مُرتجلا ليكسب المزيد من الوقت:

- أمهلني يومًا أخر وسأحاوِل توفير نقود العملية.

فكر الطبيب قليلاً، ثم قال بحزمٍ وقد قطَّب حاجبيه:

- يمكن للمريض أن يعيش يومًا أو يومين بالأكثر إن بقي على هذه الحالة، هذا هو أقصى ما يمكننا القيام به الآن، حاول أن تُنقذ الموقف وإلا لن نستطيع مساعدتك.

رمقه بنظرة تأفُف أخيرة قبل أن يتركه ويتوجه إلى موظفة الاستقبال؛ ليوبخها بصوتٍ يسمعه الزوار لسماحها بدخول المرضى دون أخذ الضمانات المناسبة، مُذكرًا إياها في خطبة طويلة أن المستشفى خصوصي، وليس جمعية مفتوحة في وجه المحتاجين.

اقترب الشيخ حسن من تامر، ورَبَت على كتفه قائلًا بتأسف:

- أعذرني يا ولدي فأنا مَنْ طلب مِن أبناء الحي إحضاره إلى هنا، فالمستشفى الحكومي بعيد جدًا، ولم أكن أتوقع أن حالته صعبة وسيحتاج لعملية جراحية باهظة الثمن.

رد عليه تامر بابتسامة مصطنعة يخفي بها قلقه وتوتره:

- لاعليك يا عمي لقد فَعلتَ ما بوسعك، سأتدبر أمر النقود، فلا تقلق.

غادر المستشفى هائمًا يسير دون أن يدري أين يتوجه ومَن يستعطف، الدنيا تدور من حوله ويفكر في حال المستشفيات التي أصبحت جحيمًا لا يُطاق حيث الجسم البشري بضاعة يتاجر بها، وذلك الطبيب المُتعجرف الذي يشبه

الجزار في مهنته؛ كلاهما يرتديان وزرة بيضاء ويداهما تغوصان دون تقززٍ وسط الدماء، على الأقل فالجزارُ أفضل منه لأنه وبسعر رخيصٍ يذبح البهيمة سريعًا ليُنهي ألمها، أما ذلك الطبيب فتدفعُ له كل نقودك ليذبحك ببطء شديد يُعمق من معاناتك وألمك.

الناس ترمقُ تامر بنظرات استغراب، يَصطدمُ بالمّارة ويبحثُ تائهًا عن المجهول، لا يملكُ سوى عشرة آلاف درهم جمعها بعد عناء طويل ويُخبئها في دولاب غرفته، كان يفكر في شراء خاتم وعفش جديد لزوجة أحلامه هدى، بينما هي في الحقيقة تلهو سعيدة بين أحضان رجل آخر.

الليل قد أدلى بستاره على المدينة، وقف يلتقِطُ أنفاسه أمام بيتٍ كبير في أحد الأحياء المرموقة، دق الجرس فأجابه صوت من الداخل:

- مَن هناك؟

-أنا تامر سيد يوسف.

بعد دقائق فتح يوسف الباب تعتليه دهشة عجيبة، ونظر باستغراب إلى تامر قائلاً:

- أين كنت طيلة اليوم؟ ومَن فعل بك هذا يا تامر؟ لقد قلقتُ عندما لم تحضر كعادتك إلى المكتبة، وحاولتُ الاتصال بك منذُ الصباح ولكنك لا تجيب.

نظر إليه تامر مُطوَّلا ثم سقط جاثيًا على ركبتيه وانهار بالبكاء قائلاً:

- أغثني يا سيد يوسف، جدي في حالة خطرة وهو يرقدُ في المستشفى الآن ويحتاجُ إلى القيام بعملية على القلب فورًا.

بدا على يوسف القلق والارتباك ثم قال:

- متى حدث كل هذا؟ وكيف حاله الآن؟

- إنه في حالة خطرة ويحتاج لعملية مستعجلة؛ لهذا جئتُ إليك في هذه الساعة المتأخرة لأطلب مساعدتك.

أجابه يوسف بفظاظة وكأنه فَطِن لسبب زيارته:

حسنا ما الذي تريده مني الآن؟

تسارعتِ الكلمات وهي تتدفق كالشلال من بين شفتيه:

- أريدك أن تقرضني نقود العملية، أنا أعمل معك منذ ثلاثة سنوات، وأعاهدك أني سأعيد لك المبلغ أقساطًا، خُذ كل أجرتي إن شئت حتى تستوفي كل نقودك.

أجابه بارتباكٍ بالغ:

- حسنًا، وكم تحتاج من نقود؟

- مائة وخمسون ألف درهم.

- م...م ..ماذا؟ أنا لا أملك كل هذا المال، وحتى وإن كنت أملكه كيف أضمن أنك ستعيد لي مبلغًا ضخما كهذا؟!

سكت قليلاً ثم أكمل:

- دخلُ المكتبة بالكاد يكفي أجرك ومصاريفها.

أجابه تامر وقد ضاعف جرعة استعطافه:

- إنها قضية حياة أو موت وليس هنالك وقت للتفكير، أتوسل إليك أن تساعدني، لقد أرسلتني مرات عديدة للبنك وأعلم أن أباك ترك لك ثروة كبيرة، أنا لا أحسدك، بل بالعكس فأنت الوحيد الذي وظفني بعد أن كَلّت قدماي من البحث عن عمل، ما أطلبه منك فقط أن تُنقِذ رجلًا فقيرًا حفيدهُ يعملُ عِندك بتفانٍ منذ سنوات.

تردد يوسف لبُرهة قبل أن يُجيبه بارتباكٍ فاضح:

- أُعذرني يا تامر، فأموالي وظّفتها في مشروعٍ أُجهزه منذ زمن، ولا يمكن أن أعطيها لك هكذا! ثم أنا لا أضمن أنك ستعيد لي المبلغ حتى ولو أردتَ ذلك، أتمنى من قلبي أن يُشْفَى جدك ولكن حَلُ مشكلتك ليس بيدي.

وفيما يتأمل تامر البائسُ وجه يوسف غير مصدق اعتذاره السخيف، تحوّل ردُ فعله فجأة من الصدمة إلى غضب عارم جعل البركان الخامد منذ سنوات ينفجر في وجهه، وقال له بانفعال:

- كنتُ أعلم أنك أبخل رجل في العالم، وغليظ القلب أيضًا، أنا أستقيلُ من عملك المزعج ومكتبتك الكئيبة، بل أتمنى أن تُحرق عن بَكْرة أبيها وأنت جالس بين كُتبها.

استشاط يوسف غضبًا وجال بنظره بغيظ في الأرجاء ليتأكد من غياب المارة، ثم صفع الباب فجأة في وجه تامر بقوة تتصدع لها الجدران ولسانه يقذف الشتائم دون توقف.

ضرب تامر الباب المُغلق برجله ضربة مدوية وصرخ بقوة شقت سكون الليل ثم غادر المكان حائرًا لا يدري أين يتجه، أفكار غريبة تتخبط رأسه: هل يسرق النقود؟ هل يبيع عضوا من أعضاء جسده؟..... أي شيء يفك أزمته في ذلك الليل ويوفر له نقود العملية فجده سيموت لا محال.

كانت الساعة تشيرُ إلى الواحدة صباحًا، ظلّ هائمًا على وجهه في الأزقة، حتى وجد نفسه مرة أخرى أمام باب المستشفى تلقائيًا، تقوقع قربه وأسند رأسه على الرصيف ليستسلم مجبرًا لنوم عميق.

الفصل الثالث

حُكمُ القَدَرِ

جاء الصباح بسرعة ليدلي بخيوطه الذهبية على تامر، أحس بيد قوية تهُزُهُ بفظاظة وتحاول إيقاظه.

فتح عينيه بصعوبة بالغة، غطّى وجهه بكفه ليحميه من شعاعِ الشّمس الذي ضرب مُقلتيه بضوئه المبهر.

تكلم صاحب اليد القوية بصوتٍ خشن:

- قم أيها الشاب فالممرضات يبحثن عنك منذ الفجر.

نظر إليه تامر متسائلاً:

- مَن أنت أيها الرجل؟ وهل هنالك أخبارٌ عن جدي؟

- أنا الحارس الليلي للمستشفى، لقد رأيتك بالأمس في حالةٍ مُزْريةٍ وتركتك تنام هنا ولم أرغب في إزعاجك رغم أن ذلك كان سيتسببُ لي في المشكلات، لقد سمِعتُ الممرضات يسألن عنك، فالطبيب الرئيسي يريدك في أمرٍ مهم.

دخل تامر مُسرعًا إلى المستشفى ثم دلف إلى مكتب الطبيب ليجِده جالسًا وسط كومةٍ من الأوراق يُعاينها ويُدَون ملاحظاته عليها، وقف أمامه مباشرةً وما أن لمحه الطبيب حتى انتفض بسرعةٍ من مكانه، وكأنَّ إبرة وخزته وقال له بلهجةٍ تُشبِه الاعتذار:

- سيد حمدي أنا فعلا متأسفٍ لإبلاغك بهذا الخبر، لكن جدك قد توفي هذا الصباح.

حام الصّمتُ للحظاتٍ أحسّ فيها تامر أن صدره قد انكمش وأنه فَقَد القُدرة على الكلام، ابتلع ريقه بصعوبة، وقال بحروفٍ مُتقطعة والصدمة بادية على وجهه:

- م.......مات؟

نعم ونحن متأسفون جِدًا فقد تأخرنا عن إجراء العملية.

أحسّ تامر أن الدنيا انغلقت أمام عينيه وقام وهو يهذي لا يعرف ماذا يفعل ويلطُم وجهه، فجأة نظر إلى الطبيب بنظرات يملؤها الحقد ووثب عليه متجاوزًا مكتبه؛ ليقف أمامه وأمسكه من ربطة عنقه وهو يصرخ:

- أنت السَببُ في كل هذا كان يجب أن تُجري له العمليةَ بالأمس.

تدّخلَ سيلٌ من المرضين الذين سمِعوا الصُراخ وأبعدوا الطبيب الذي يهتّزُ بين يديه كخرقةٍ بالية، أخدوا تامر إلى غرفة أخرى لكي يهدأ قليلًا ويستوعب الوضع، ثم طلبوا منه مُغادرة المستشفى وإحضار النقود؛ ليتمكن من إخراج جثمان جده.

غادر المستشفى هائمًا على وجهه، دخل إلى حيه ولونه مخطوف، الناس تسأله عن حال جده لكنه لا يجيبهم وكأنه لا يسمعهم أصلاً.

دخل شقته وأقفلَ عليه باب غرفته، ثم انهار على الأرض يبكي بدموع تنهمرُ من عينيه بغزارة، توقف للحظات ثم رفع رأسه ونظر إلى الكومود الخشبي المُهترئ الذي وُضعت عليه صورةٌ قديمةٌ له وهو طفلٌ تَجمعهُ بوالدته وجده، جرى نحوها واحتضنها بين ذراعيه بقوةٍ ليجهش بالبكاء، لم يُصدِق أنه سيعيشُ مرّةً أُخرَى إِحساسَ فُقدان شخصٍ عزيز، كم هو صعبٌ ذلك الإحساس، تستيقظُ كل يومٍ لتجِدَ فِراش من تُحبه فارغاً، تُحاوِلُ البحثَ عنه في أرجاء المنزل فتتذكرُ أنه لم يعُد موجودًا، تُحاول لمسَ روحه في كل مكان... في أغراضه وصوره، في الأشياء البسيطة التي كان يُحبها والأماكن التي عشِق الجلوس فيها.

نزلت دمعةٌ دافئة من عينه وسقطت فوق وجه أمه بالصورة وكأنها تأخرت لسبب مُعين، فتذكر كلماتها، كانت تخبره دائمًا أن الموتى لا يرحلون، بل يظلّون مع أحبائهم للأبد.

مَسحَ الصورة بطرفِ ثوبه قبل أن يُعانقها مُجددًا وهو يحرك شفتيه، وكأنه يشكي لأمه ما عاناه من أحداث؛ الإحراجُ الذي ذاقه في الجامعة، تنكُر يوسف له وموتُ جده المفاجئ، شعر بسُخطٍ شديد ممزوج بالألم وهو يتذكر المدعو أحمد يرمقه بنظراتٍ ساخرةٍ، بينما تدهَسُه أحذية الطلاب وتدهسُ كرامته معها وهدى واقفة تتفرج، شعر بالضعف والندم على ذهابه للجامعة فثار، ثم بدأ يتلو دعاءه المعهود بحُرقةٍ عسى أن تُخَفف عنه التلاوة قليلًا من أَلِمه:

- نفسي ترتجف من عصف الزمان، وجسدي ينكمش من ضيق المكان، يا رحيم يا رحمٰن، يا خالق الإنسان، أنا عبدك الحيران، أدعوك بدعاء الصالحين والرهبان، وبصلواتك كل الأديان، أن تُطلِقَ لجسدي العنان، وتملأ روحي بالإيمان، وتُحررني من قيد الزمان.

كرّر الدُعاءَ مرّاتٍ متتالية وفي كل مرة يرفعُ صوته أكثر دون أن يشعر، فجأةً بدأت الأرضُ ترتجُ والغرفة تتحرك جيئة وذهابًا، استمر في تلاوة الدعاء دون توقف؛ الصُور المُعلقة على الحائط تسقط تباعًا على الأرض، أبواب النوافذ تُفتح وتُغلق بقوة عجيبة، رعشةٌ غريبةٌ تسري في جسده وحريقٌ شديد على مستوى ظهره جعله يتصبب عرقًا، توقف عن التلاوة بعد أن تضاعفَ الصُداعُ في رأسه حتى ظنّه سينفجر، نزع قميصه وسط الارتجاج ونظر إلى انعكاس ظهره بالمرآة ليكتشفَ أمرًا غريبا جدًا؛ وشمٌ أسود اللون على شكلِ مُثلثٍ يلتهِبُ في ظهره، لم يفهم من أين جاء وكيف ظهر!، فجأة بدأ المثلث يتلاشى ويندَثر إلى حبات سوداء رقيقة تطايرت في السماء بتناسق تام مُكونة حلقة دائرية، ازدادت الحبات كثافة واجتمعت مع بعضها مكوِنة دوامةً سوداء فوق رأسه مباشرة، تُشبه الثقوبَ السوداء التي تعرضها برامج الخيال العلمي، أحسّ برعشةٍ شديدةٍ وهو يرى منظرًا لم يتخيل أبدًا حدوثه؛ بدأت روحه تَخرُجُ من جسده وتتوجه نحو الثُقبِ لتبتلعها الدوامة، كان يرى نفسه وقد انفصل بالكامل عن جسده، الدوامة تُطبِقُ على روحه التي تختفي ببطء

داخلها. أغمض عينيه خوفًا من ذلك المنظر المرعب وخاطب نفسه بذهولٍ وهو ينظر من وسط الدوامة إلى جسده الذي تهاوَى على أرض الغرفة كجُثةٍ هامدة:

- "مالذي يحصل الآن؟ هل هذا ما يُسمى بسكرات الموت؟ هل هذا دوري لكي أموت؟ مصيبةٌ لو كان ذلك حقًا فأنا لم أُصلِي منذ فترة، هل سأموت كافرًا؟" حاول بكل جُهده نطق الشهادتين لكنه ظل عاجزًا عن الكلام.

الثُقب من الداخل كان عبارةً عن نفقٍ دودي، حلّق تامر عبره بسرعة خيالية، صورٌ عشوائية من ماضيه تُعرَضُ أمام عينيه كشريطٍ سينمائي قديم تتلاشى وتعودُ كل مرة على جنباته، بعد ثوان سريعة ظهرت نهاية النفق يملؤها شعاعُ ضوءٍ باهرٍ لفّ المكان فاغمض عينيه من هوْل المَوقف ...

عاد الصمت من جديد واختفت كل الأصوات الرهيبة لكنه لم يقدر على فتح عينيه من الخوف وعدم التصديق، داعب أنفه نسيمٌ عليلٌ مُختلط بعبق الورد، حاول أن يتذكر أين شمَّ تلك الرائحة من قبل، فتح عينيه ببطء، لم يُصدق ما يراه!! إنه في حديقة الجامعة، "كيف وصلتُ إلى هنا؟" قال وهو يُحَدِثُ نفسه وينظرُ إلى ملابسه التي عادت كما كانت واختفت الكدماتُ من وجهه وجسده، ساعةُ مِعصمه تُشير إلى العاشرة صباحًا، حام بنظره مُتفَقِدًا المكان، هُدى جالسةٌ أمامه على الكرسي نفسه وبالوضعية نفسها التي كانت بها بالأمس تمامًا، بل ترتدي الملابس نفسها التي كانت ترتديها وتقرأُ من

الرواية نفسها، ابتعد عنها قليلًا لكي لا تلمحه، خرج من الحديقة إلى الساحة الكبيرة، مجموعات الشباب التي شاهدها من قبل لم تبرح أماكنها. سار في الممرِ وهو ينظرُ إليهم بذهول... لم يتغير شيء، صاحبُ القيثارة ذي الشعر الطويل المنسدل يُغني والأخرون يرقصون، والشاب ذو النظارات السميكة يشرحُ الدرس المُستعصي للطلابِ المحيطين به، هاهو أحمد وبعض من رفاقه الذين اعتدوا عليه قادمون نحوه، حاول أن يُخفي وجهه بكفه لكي لا يلمحوه لكنهم مروا بقربه دون أن ينتبهوا إليه، وكأنهم لا يعرفونه أصلا!

"هل هذا حُلم أم حقيقة، كيف عُدت إلى الجامعة !؟" صفع نفسه دون تفكير ليتأكد من أنه ليس حُلما، فكر قليلًا فيما سيفعله فتذكر الحارس الذي ساعده، خرج من الباب الرئيسي واتجه نحو مقصورة الحراسة، اقترب من نافذتها المفتوحة ونظر عبرها ليجده جالسا يُشاهد مباراة كرة القدم التي حدّثهُ عنها من قبل ويتفاعلُ معها بقلقٍ وتركيز.

تخبطتْ الأفكار في رأسه، هل هذا حلمٌ أم أنه عاد بالزمن إلى الوراء؟! أوقف تامر أحد المارة وسأله بلهفة عن تاريخ اليوم، أخبره أنه الأربعاء ١٤ فبراير، اضطرب تامر ولم يُصدقه فسأل رجلًا آخر، الجميع يؤكدُ التاريخ حتى هاتفه الذي عاد بأعجوبة بعد اختفائه! حاول جَمْع شتات نفسه وتحكيم عقله، فإنْ كان في الماضي فعلًا فجده لايزالُ على قيد الحياة وسيخرجُ ليصلي الظهر بعد ساعات، حينها سيتعرضُ لأزمة قلبية حادة، تمالك نفسه وقرّر العودة إلى

منزله سريعًا، ما أن حاول عبور الشارع للجهة الأخرى حتى مرّت أمامه شاحنة حمراء كبيرة محملة بالبضائع تخترِقُ المارة بسرعة جنونية، وكادت تصدمه لولا أنه وَثَبَ بخفة ثم ترنح على الأرض ليقف من جديد، المارة يسبون ويلعنون السائق المتهور بصوت عالٍ، وقف تامر في منتصف الطريق مشدوهًا لا يعرف ماذا يفعل أو أين يذهب. فجأة عاد ذلك الصداع الشديد مرة أخرى إلى رأسه، نظر إلى ساعته، تشير إلى العاشرة وعشرين دقيقة، أحس بروحه تخرجُ من جسده وظهرت مرة أخرى الدوامة من جديد لتبتلعها بينما تهاوى جسده على الأرض، نظر إلى الناس حوله وهم يتحركون ببطء شديد مثل شريطٍ سينمائي أبطأه المُخرج، لا أحد منهم انتبه لخروج الدوامة كأنَّ شعورهم بالزمن مخالف لشعوره، طار بسرعة خيالية عبر النفق الدودي نفسه، عند نهايته أغمض عينيه مرة أخرى وفتحهما ليجد نفسه في غرفته مرة أخرى، وقد عاد إلى الحاضر كأنه لم يُغادِر قط! لكنه كان حاضرًا مُختلِفًا بعض الشيء فقد اكتشف أن ملابسه غير مُمزّقة، بينما اِختفت آثار الكدَماتِ وكأنه لم يتعارك أبدًا، تحسّسَ جيبه فوجد محفظته وهاتفه في مكانهما المعتاد.

ازدرد ريقه بصعوبة ومسح بيديه المُرتجفتين وجههُ المُبلل بالعرق وهو يسأل نفسه ما الذي حصل؟ أحسَّ بصداعٍ شديدٍ وهو يُحاول تذكُرَ أحداث اليومين الماضيين، اكتشف أنه يملك ذكريات من نوع مُختلف طُبِعَت في ذاكرته، شريطٌ جديد من الأحداث أصبح واقعًا عاشه.

ذكرياتٌ جديدة:

يوم الأربعاء 14 فبراير في الساعة العاشرة دخل الجامعة يتبع هدى، وما أن وقف أمام مدخل الحديقة حتى شعر بصداعٍ شديد فتراجع إلى الخلف، بعدها فقد الوعي ليختفى كل شيء، بعد مدة وجد نفسه مرميًا في الشارع خارج الجامعة، لم يتذكر أنذاك ما وقع له بين الحدثين، شعر بالخوف فغادر المكان بسرعة دون أن يُكلِّم حبيبته، وبذلك لم يتشاجر مع أحمد وأصدقائه، حتى الحارس لم يتدخل أبدًا لفك النزاع، تذكر أنه توجه إلى المكتبة مباشرة وتعرض للتوبيخ من يوسف بسبب تأخره، قام بإنجاز بعض الأعمال العالقة قبل أن تتصل به جارته على هاتفه في الساعة الواحدة ظهرًا؛ لتُخبره أن الجيران أخدوا جده إلى المستشفى، ترَكَ عمله ولحق بهم مباشرة إلى هناك عبر سيارة أجرة، بعد ساعاتٍ من الانتظار المرير أخبره الطبيب أنه يحتاجُ لنقود العملية، فاتصل بيوسف الذي رفض إعطاءه المبلغ المطلوب، احتار فيما سيفعله وبقي جالسًا في المستشفى يُفكر في حل لمصيبته ينتظر الفرج ويدعو ربه قُرب جده الغائب عن الوعي حتى سمع أذان الفجر، عندها سلّم جده رُوحَه لخالقها، أَمسكَ يَدهُ وبكى بحرقة حتى الصباح عِندها عاد أدراجه إلى البيتِ؛ ليُحضِرَ مصاريف المستشفى ليتمكن من إخراج جثمان جده ودفنه.

انتهت الذكريات.

<u>الحاضر:</u>

تخبطتِ الأفكارُ في رأسه فلم يعُد يدري هل ما وقع حقيقةٌ أم خيال وهو يسأل نفسه:"هل يُعقَل أنني عُدتُ إلى الماضي؟ هل يُعقل أنني سافرت عبر الزمن لتلك اللحظةِ المُشؤومة في الجامعة وغيّرتُها؟ وهل يُمكن أن يحدُثَ شيء مِثلُ هذا بالفعل؟ إذا كان هذا حُلْمًا، فكيف أُفسِرُ وجود نوعين من الذكرياتِ في رأسي؟! ولماذا لم تعد ملابسي مُمزقة؟! وأين اختفت الكدمات؟ وكيف عاد إلي هاتفي المحمول ومحفظتي؟"

أسئلة كثيرة تقاطرت تباعًا على رأسه، لم يوقظه من ذهوله سوى صوت طرقٍ على الباب، قام مستعجلاً؛ ليفتحه فوجد أمامه الشيخ حسن وبعضُ أصدقاء والده القدامى جاءوا لتقديم التعازي.

دخل الشيخ أولًا وضمَّ، تامر إلى صدره مواسيًا وهو يقول بحزنٍ واضح:

- كل نفسٍ ذائقة الموت يا ولدي يجب أن تتشجع، جدك كان من أكرم الناس وأحسنهم خُلُقًا وكلنا حزناء لفُقدانه، أنا أعرف أنك في حالة نفسية صعبة الآن، ولكن يجب أن نُخرِجه من المستشفى؛ لإن إكرام الميت دفنه...

قال تامر وقد انهار بالبُكاء بين ذراعيه:

- لم يسمحوا لي بإخراجه قبل دفع فاتورة علاجه بالمستشفى.

رَبَت الشيخ حسن على ظهره وهو يردف:

- أعرف ذلك يا ولدي، ولكن لا تقلق فكل أبناء الحارة سيساعدوننا وسنجمع بعون الله المبلغ المطلوب، وسندفنه بحلول الظهيرة بإذن الله.

همس تامر بصوت أدماه اليأس في أذن الشيخ:

- لقد أصبحتُ وحيدًا يا عمي.

مسح الشيخ حسن على رأسه قائلا:

- لن تكون أبدًا لوحدك، نحن عائلتك يا ولدي وسنظلُ كذلك للأبد.

****

في مقبرة الغفران في الدار البيضاء وقف تامر أمام جثمان جده وهو يَلِجُ القبر في هيبة وإجلال، الأصوات الصادحة بتلاوة القرآن والدعاء يعلو المكان، أطفالٌ ورجالٌ وشيوخ من مُختلف الأعمار جاؤوا يُلبون نداء الواجب، استقر الجثمان بهدوء داخل القبر، ثم نزل تامر المكلومُ خلفه وقبّلَ رأسه بعدها أمسك بحفنةٍ من التراب؛ لُيقبّلها ثم وضعها على رأس جده قائلا بصوتٍ لم يسمعه غيره:

لو كان ذلك الدعاء يسمحُ لي بالعودة إلى الماضي فعلاً، فأنا أقسم أنني سأعود لإنقاذك من الموت ياجدي.. ثم نظر ناحية الشيخ حسن قائلًا له وعيناه تفيضان بالدمع:

- هل يمكننا أن نُغير القدرَ يا شيخ حسن؟

ألقى الشيخ بنظرةٍ أخيرةٍ على جُثمان صديقه قبل أن يُوارى تحت التُّراب وأجابه:

- الله عزّ وجل هو من يكتُب القدر يا ولدي، وهو وحده من يَملِك الحقَّ في تغييره.

بدأ المطر يهطل بغزارة، فنسى الناس خشوعهم وغادروا المقبرة وكأنهم يتسابقون. جلس تامر مُسندًا رأسه على شاهد القبر وقد ابتل جلبابه وغاصت رجلاه في الطين ويبكي بحرقةٍ اختلطت فيها دموعه بماء المطر، حتى الريحُ كانت تعصِفُ بقوة في المقبرة لتطرد القلائل الذين فضلوا البقاء، ليبقى تامر وحيدًا يواجه غضب الطبيعة وحُكم القدر.

الفصل الرابع

نفسٌ وروحٌ وجسدٌ

الجمعة 16 **فبراير الساعة** 01:00 **ص،**

غادر آخر المُعزين بيت تامر، ارتمى على سريره ليُريحَ جسده المُنهك، لم يتمكن من تغيير ملابسه فرجلاه تؤلمانه من كثرة الوقوف، نظر إلى سقف الغرفة وهو يُفكر في عزاء جده، أجمل شيء في حي شعبي هو مُساندة الناس لك ووقوفهم بجانبك؛ يبكون لبكائك ويفرحون لفرحك، يتقاسمون معك حياتك بحُلوها ومُرها، علاقةٌ نقيةٌ خاليةٌ من المصالح، وكأنهم إخوة من دمٍ واحدٍ أنجبتهم أم عظيمة.

الدقائق تمر ببطء، عاد بتفكيره إلى الوراء ليُعيد ضبط الأحداث المُخيفة والمتسارعة التي عاشها، الهدوء يَعمُ المكان وأفكار مختلفة تتخبطُ في رأسه المُشبع بالاحتمالاتِ والألغاز:

- ما هو سِر الدوامة التي انبثقت من العدم؟ وما علاقة الدعاء بكل هذا؟

تذكّر الوشمَ الغريب على ظهره، اتجه نحو المرآة المُعلقة على الحائط ووجّه ظهره مباشرةً نحوها ثم أمسك مرآةً صغيرة ونظر إلى انعكاس ظهره عليها، الوشمُ الغريب في منتصف ظهره العلوي الذي ظهر من العدم لم يختفِ بعد، لم يعد يلتهبُ ويتوهج كما حدث من قبل، دقّقَ النظر فيه؛ أضلاعه الثلاثة مُكونَةٌ

من خُطوطٍ رَفيعةٍ تكون بتناسُقها المُذهِلِ مُثلثًا بديعَ الجمال، لو حاول أعظم الوشامين تقليده لفشِلَ في فعل ذلك، سأل نفسه مستغربًا:

- "كيف ظهر الوشم وما علاقته باستعمال الدعاء؟"

أَوّلُ خيطٍ للبحث عن حقيقة الذكريات المختلفة التي يتذكرها هو ذلك الحارِسَ الخاص في الجامعة، لم يُطِق صبرًا إلى الغد، بحث عن هاتفه الذي أخفاه في العزاء وألقى بنظرة خاطفة إلى الوقت؛ الساعة تشير إلى الواحدة صباحًا.

"ربما لديه وردية بالليل، فحُراس الأمن الخاص لا يملكون أوقات عملٍ ثابتة"، هكذا حدّثَ تامر نفسه ليقنعها بأي سبب ليتمكن من الخروج، فلم يعُد يُطيق الجلوسَ وحيدًا في البيت.

وبالفعل قامَ من مكانه رَغم اعيائه الشديد وارتدى قميصهُ ومِعطفَه الأسود، جرَّ سحَّابه حتى توارت وراءه تُفاحة آدم، ثم انسحب مُتوجهًا إلى الجامعة.

الليل قد أسدل ستاره، صارَ نحو الشارع الرئيسي ويداه تلتمسان الدِفء في جيب معطفه، استقل سيارة أُجرة انطلقت مُكسِرةً سكون الليل بصوت مُحركها وهو يَرمُق من خلفِ نافذتها المدينة التي لفّها الظلامُ، وعَقلهُ لا يزالُ يُحاول بصعوبةٍ استيعاب وجود ذكرياتٍ مُختلفة لليومين الماضيين، وصل لِباب الجامعة وترّجل من سيارةِ الأُجرَة بعد أن وَدّعَ السائق المُستغرِبَ من

ذهابه إلى ذلك المكان، بحث عن مقصورةِ الحارس التي رأها من قبلُ فوجدها بسرعة، مصباحٌ خافتٌ بالداخل يُنيرُها في العتمة، اقترب منه ثم التفتَ يُمنة ويُسرة؛ ليتأكد من خُلو الشارِع من المارّةِ في تململٍ واضح، ثم طَرقَ زجاجَ النافذة بأدب انتبه الحارسُ لصوت الطرق ففتح النافذة بحذر مُحاولًا التعرف على هذا الزائر الغريب الذي ظَهرَ في عَتمةِ الليلِ المُوحشة.

رَمقهُ الحارس بنظراتٍ طويلة وبعد أن اطمأن لهيئته عاد للجلوس على كرسيه دون أن يفتح باب المقصورة، كَسَر قِطعة خبزٍ صغيرةٍ بأسنانه وغمسها في صحن مليء بالعدس ثم التهمها بشراهة وهو يسأله بفم ممتلئ:

- كيف يمكنني أن أساعدك يا سيدي؟

حدَّق تامر في وجهه للحظات ثم تنفس الصعداء عندما تأكد من أنه الرجلُ المنشود فسأله بلهفة:

- هل تتذكرني؟

أَمَالَ رأسه قليلًا يتمعن في ملامحه ثم ابتلع أخر لقمة عالقةٍ في فمه وهزَّ رأسه نافيًا:

- لا!... لا أعرفك أخبرني من أنت؟

نظر تامر إلى التلفاز الصغير في ركن المقصورة ثم التفت إلى الحارس محاولًا إنعاش ذاكرته:

- لقد جِئتُ إلى الجامعة يوم الأربعاء وتشاجرتُ مع بعض الطلاب في الحديقة قبل أن تحضُرَ أنتَ وتقُوم بإنقاذي منهم.

تفحّصه الحارس مرة أخرى باهتمام مُحاولًا التذكر ثم سأله:

- في أي ساعة حدث ذلك بالضبط؟

أجابه تامر:

- بين الساعة العاشرة والحادية عشرة.

نظر إليه مطولًا ثم كسرَ قطعة خبزٍ أُخرى بأسنانه التي غَلبَ عليها اللونُ الأَصفرُ وأجابه بنبرة حاسمة:

- يومَ الأربعاء كُنتُ أشاهد مباراة مُهمةً على التلفاز في الساعة العاشرة ولم أبرح مكاني حتى انتهت، وبعد ذلك تناولتُ وجبة غداءٍ أحضرَتها لي زوجتي وبعد الظهيرة قُمتُ بجولةٍ حول الجامعة، ولم يكُن هناك شيء غير اعتيادي، لماذا تسألني هذا السؤال؟!!

سكت تامر قليلًا ثم قال:

- هل كنت تُغطي غياب زميلك عن العمل يوم الأربعاء؟!

ارتبك الحارس وبدت عليه الدهشة وهو يجيبه:

- صحيح! كيف علمتَ بذلك فأنا لم أُخبِر أحدًا حتى زوجتي؟!

في تلك اللحظة تأكد تامر من صحة شكوكه؛ فقد تَغيرتْ أحداثُ الماضي بالفعل، والذكريات الجديدة التي يحتفظ بها في رأسه هي ما وقع بالفعل

وأخذتْ مكانَ الذِكرياتِ القديمة، والدليل على ذلك أن الحارس لم يتعرف عليه، بل وأكد أنه لم يلتقِيه من قبل.

ودّعَ الرجل الذي لم يفهم كلمةً من حواره، وانطلق عائدًا أدراجه، مَسحةٌ من الضباب تشوب الأجواء ونسماتُ الفجر تُنعِشُ جسده المُتعَب، ما أن وصل إلى حيّه حتى سمِعَ صوت الأذان وكأنه يناديه باسمه فتذكر أخر مرة صلى فيها- دون احتساب صلاة الجنازة- كان ذلك يوم إعلان نتائج الإجازة الجامعية، دخل دون تفكيرٍ إلى المسجد مُباغِتًا شيطانه وتوضأ ثم صلّى خلفَ الشيخِ حسن وقد امتلأ صدره بنشوةِ الانتصار على الكُفِر وكأنه هزم إبليس وجُنود في مَعركةٍ ملحمية.

عند انتهائه دخل شقته واستلقى على الأرض، لكنه ظل مشغولَ البالِ ورفضَ النوم مُلامسَةَ جفونه؛ فما حدث له لا يتقبّلُهُ عقلٌ أو منطِق، فقد سافر عبر الزمن إلى الماضي، والأغربُ من ذلك أنه لم يستعمل آلة للسفر كما يراه في الأفلام، بل سافر بوعيه فقط، يعني أنه عاد إلى جسده في الماضي لمُدة عشرين دقيقة وتحكّم به بوعي قادم من الحاضر!

ظلَّ يتقلّبُ في فراشه ثم يقوم بين الفينة والأخرى إلى المرآة؛ لينظُرَ مُجددًا لوشمه العجيب وهو يُفكر في إعادة التجربة من جديد، لكنه قرر أن يتحقق أكثر من صحة ما حدث له فشهادة الحارس لم تكُن كافية بالنسبة له، ارتدى ملابسه مُجددًا وخرج.

وصل إلى المحطة التي تركب منها هدى في وقتِها المُحدد، المكانُ مليئٌ بالركاب العابسين كعادتهم، يقفون انتظار اللعربات التي ستنقلهم إلى محشرهم.

انتظر قليلًا وبعد مُدَةٍ وجيزة لمحها قادمةً تتوسط صديقتيها، وقف في الممرِ أمام السكة الحديدية للترام، حيث اصطفت الحُشودُ مُنتظرةً وصوله، شعر بقلبه يَخفِقُ سريعًا وهي تقتربُ منه، مرّت أمامه ورمقته بنظرةٍ خاطفةٍ فابتسم لها ابتسامةً خجولة لكنها أشاحت بوجهها عنه ولم تُعِرهُ اهتمامًا وكأنها لم تُصادِفه قط، واستمرت في المشي وهي تُجادِلُ صديقتها السمراء في موضوعٍ نسائي يجهلهُ.

في تلك اللحظة أيقن أن كل ما حدث له في الغُرفةِ حقيقي، وأنه استطاع بطريقةٍ ما العودة بالزمن، وتغييرَ الأحداثِ التي وقعت.

حاول ترتيب كل شيء في ذهنه ليوضح لنفسه ما حدث بعد مغادرة الترام؛ فجلس على أحد الكراسي الحديدية في المحطة وأخرج من جيبِ معطفه مُذكرةً صغيرةً وقلمًا أحضرهما معه؛ ليدون أفكاره المُبعثرة ويعيد ترتيبها:

عندما كنت أتلو الدعاء ذلك اليوم وخرجت الدوامة عاد وعيي إلى الماضي وتقمص جسدي في تلك اللحظة التي كنت أفكر فيها تحديدًا، خرجتُ من الحديقة دون أن أُكلِم هدى وبالتالي لم تصرخ طلبًا للنجدة، لذلك لم أتشاجر مع المدعو أحمد وبقية الطلاب، ولم يتدخل الحارس لإنقاذي وظلّ جالسًا في

مقصورته يتابع المباراة، إذن من الطبيعي ألا يتعرّف علي أحد منهم. فالخط الزمني قد تغير بالكامل وتغير معه الحاضر أيضًا. توقف فجأة عن الكتابة وفرك شعره الحريري بطرف قلمه ثم عاد لإكمال كتابته:

الأمر الغريبُ هو أنني الشخص الوحيد الذي يتذكر حدوث أمرين مختلفين في الوقت نفسه، أما من حولي فيجهلون تمامًا أن تغييرًا قد حصل في الخط الزمني.

أسئلة كثيرة بدأت تدور بذهن تامر، كيف عاد بوعيه إلى الماضي؟ ولماذا لم يحدث معه هذا من قبل؟ فطيلة حياته وهو يتلو الدعاء ولم يحصل له شيء من هذا القبيل! ثم من أين جاء هذا الوشم أصلا؟ وما علاقته بدعائه؟ تذكر أنه بحث قبل سنوات في جميع كتب الأدعية المعروفة عنه لكنه لم يجده ولم يسمع أحدًا يدعو بمثله من قبل، ما عدا والدته المتوفية، والتي أكدت له قبل وفاتها أن الدعاء وصية من والده!

لقد عاد الماضي ليطفو على السّطح من جديدٍ في حياة تامر، فكراهيته لوالده التي حاول أن يَدفِنها طِيلةَ هذه السنواتِ استحضرها اليومَ مُجبراً، لقد كان يرفُضُ معرِفةَ أي شيءٍ عنه، لكن هنالك بالفعل غُموضٌ عجيبٌ يَلُفُ سيرته، ويجِبُ عليه أن ينبِشَ الماضيَ مُجبرًا عساه يكتَشِفُ خيوطًا تقودُه لِمعرفَةِ حقيقةِ الدُعاء، أنهكه الفُضولُ وكثرةُ التّفكيرِ في خيطٍ يدُله على الحقيقة حتى ضاقَ ذَرعاً، دخل إلى أحدِ المقاهي الشعبية مُخترقًا الدُخانَ الكثيفَ ثم طلبَ إِبريقَ

شايٍ من النادل وجلس، أغلبُ روادِ المقهى من المقامرين، حدّقَ في وجوههم الشاحبة التي حوَّلها الزمانُ إلى خِرقٍ بالية، عيونهم الجاحظة مُثبّتةٌ على التلفاز يشاهدون سباقات الخيول المنقولَة مباشرة بتركيز وخشوع عظيمين، يتعبدون ويتضرعون أمام الشاشة فيما يُشبه الصلواتِ للحصانِ المُخلِّصِ الذي سينتشلهم من فقرهم، في الهند البعيدة يعبُدون البقر، وهؤلاء هنا يعبدون الأحصنة، نوعٌ من أنواعِ الوثنية في بلدٍ مُسلمٍ لا يدري عنه أحد شيئًا، رجالٌ أخرون اختاروا دينًا مغايرًا؛ جلسوا حول طاولاتٍ مستديرةٍ يُقامرون، تتعالى صيحاتُ احتجاجهم بين الفينة والأخرى، رفاقٌ على الطاولة لكِنهم على استعدادٍ لتقطيعِ بعضهم من أجلِ فُرصةٍ للفوز.

فَرَغَ إبريقُ الشاي مع صيحاتِ تذمُرِ المُقامرين على الحصان، فقد خانهم إلههم المُزيفُ ولم يفُز في السباق، ليتأجّلَ حُلمُهم الأزلي إلى أجلٍ أبدي، فجأةً تذكر أمرًا غابَ عن ذهنه فصديقُ جَدِه المُقربُ رُبما يُساعِده في نبشِ الماضي لِمعرفة حقيقة والده، قام من مكانه على عجلٍ واتجه نحو المسجد.

دَخلَ بخطواتٍ هادئة إلى الداخل، رائِحةُ الحصيرِ الغريبة تُوقِظ فيه كُل مَرّةٍ ذكرياتِ طفولته عندما كان يُرافِق جده إلى هذا المكان الطاهر، لَمَحَ الشيخَ جالسًا في زاوية من الزوايا يقرأ كعادته القرآن، دنا منه وجلس ينتظِرُ انتهاءه وهو يُنصِتُ إلى صوته الرخيم دون أن ينبِسَ بحرفٍ واحد.

بعد أن أكمل قراءة أخر آيةٍ من ورده اليومي أغلق المُصحف ووضعه بقربه ثم ابتسم ابتسامةً عذبة قائلاً:

- كيف حالك يا ولدي اليوم؟ أعذرني فأنا لم أتصل بك لأتركك ترتاح قليلًا، فقد كُنتَ في حالةٍ صعبةٍ جدا بالأمس، رغم أنني كُنتُ سعيدًا لرؤيتك اليوم في صلاة الفجر.

تنهد تامر تنهيدةً عميقةً، وأحنى رأسه إلى الأرض وهو يُجيبه بصوتٍ خافتٍ:

- الحمد لله على كل حال، يصعبُ علي تصديق وفاة جدي وأنني صرت وحيدًا،

سكت قليلًا يُفكر في الخطوة التي سيُقدم عليها ثم أكمل:

- لقد جِئتُ لأطلب منك أمًرا مُهمًا جدًا فلا أحد يُمكنه مساعدتي غيرك، لأنك صديق جدي منذُ عقود وتَعرِفُ أسرتي أشد المعرفة، أُريدك أن تُخبرني كل شيء عن والدي من هو؟ كيف كان؟ ومن أين جاء؟ هل يملك أقاربًا أو إخوة؟ ولماذا تركنا واختفى فجأة؟

استغرب الشيخُ من سيل الأسئلة التي تقاطرت عليه دون توقفٍ وأجابه:

- لكنني كنت دائمًا أسمعك يا ولدي تقول إنك ترفُضُ معرفة أي شيء عنه! لذلك كنا نتحاشى الكلامَ عنه أنا وجدُك أَمامك.

أجابه تامر وقد بدا عليه الحزن:

- أنا لا أُخفيك سِرًا يا عمي فأنا أكرَهُهُ مُنذُ نُعومَة أظافري، فقد تخلّى عني وعن والدتي التي أفنَت حياتها في انتظاره، لكن في اليومين الماضيين حدثَتْ لي أمورٌ غريبةٌ يصعُب تصديقُها جَعلتني أُقرّرُ المجيءَ لزيارتك، فليس لي أحدٌ أتقاسم معه همِّي وأنت الآن عائلتي الوحيدة.

رَبتَ الشيخ حسن على كتفه ليواسيه قائلاً:

- لقد أخبرتك أنك لست وحدك، كل أبناء الحي سيظلون بجانبك دائمًا، أنا أيضًا فقدتُ شخصًا عزيزًا مثلك بالضبط، سكت قليلًا وهو يُفكر، ثم أطلق زفرة طويلة وأجابه:

- طالما تُريد معرفة كل شيء عن والدك سأخبرك، لكن قبل ذلك تعال معي إلى البيت سأُعِد الشاي الذي تُحبه وأحكِي لي هناك عن كل ما أصابك، آدم في البيت أيضًا، لقد عاد صباحَ اليومِ إلى المدينة خِصيصًا لرؤيتك وتقديمِ واجبِ العزاء، لكنه لم يَجدك في شقتك عندما زارك.

خَرَج الرجلان من المسجد ودخلا العمارة المقابلة له حيث يستأجر الشيخُ حسن شقة بسيطةً بالدور السفلي عبارة عن غرفتين، أثاثهما بسيطٌ جدًا يَعكِسُ زُهد الشيخ في الدُنيا وفَقره المُدقع، طرقا الباب الخشبي ففتح لهما آدم الباب، دلف الرجلان إلى الداخل، عانق الشاب تامر بكل حرارة ليواسيه، ثم جلس الثلاثة على حصيرٍ حول طاولة خشبية مُهْتَرئة يشربون الشاي الذي أعده آدم قبل وصولهم.

كان شابًا نحيفًا أصغر من تامر بسنتين، ملامحُ وجهه تدُلُ على التفكير والرزانة والبشاشة، عيناه السوداوين تلوحُ فيهما نظرةُ لامعةٌ تَنِمُ عن ذكاءٍ حادٍ ممزوجٍ بالصفاء والطيبة، فهو ثمرة شجرة صالحةٍ ورجلٍ صالح، كان شابًا مُثابرًا لم يمنعُه فقره المُدقعُ الناتج عن زُهد والده في الدنيا وقلّة موارِده من التّحصيل والتعلّم فحصل على الإجازة وتهيأ لشهادة الماجستير في إحدى الجامعات في مدينة طنجة بشمال المغرب، وفي الوقت نفسه يُعطي دروسَ تقوية للتلاميذ في أوقات فراغه ليساعد نفسه، حُلمه الوحيد هو أن يُصبِح أستاذًا جامعيًا ويَسعى بقوة لتحقيق ذلك، كان تامر يَشعرُ دائمًا في كينونة نفسه أن آدم أفضل منه؛ لأنه استطاع التغلُّبَ على إحساس الضعف الذي يُولِده الفقرُ عكسه تمامًا، فهو إنسانٌ عصامي مُثابر ومُثقفٌ، يرى الحياة دائمًا بنظرةٍ إيجابية، رغمَ صُعوبتها وقسوتها عليه فإنه مُمسكٌ بلجامِ نفسه وصابر، فلا تراهُ إلا مُبتسمًا تتوقّدُ في عينيه عزيمةُ الشبابِ وتَرتسم في وجهه سِماتُ الإقدامِ عكسه.

قال الشيخ حسن مُوجهًا الكلام لتامر:

- تكلّم يا بُني ما هو الأمر الذي جِئت تستشيرني فيه؟

نظر تامر إلى آدم الذي يراقبه وتَردد في الكلام، قال الشيخ حسن بعد أن فَطِن لمقصده:

- لا تخف يا ولدي فأنا وآدم بمثابة شخصٍ واحد ولا نخفي أسرارًا عن بعضنا، وهو أيضا بمثابة أخيك الأصغر فقد كبِرَ وترعرع معك.

صَمتَ تامر للحظاتٍ انتقلت نظراته فيها بينهما للحظاتٍ ثم تكلّم قائلاً:

- العديدُ من الأحداث وَقعت اليومين الماضيين ولم أجِد لها تفسيرًا، فقد تاه عقلي وضاعَ فِكري، ولَم أعُد أستطيع أن أُفرّقَ بين الحقيقة والخيال، وليس لي أحد أستطيع الكلام معه غيرك يا شيخ، فأنت الرحيقُ الوحيد المُتبقي من الماضي بعد وفاةِ جدي.

- تكلم يا ولدي كُلي آذان مصغية فقد أقلقتني، فرك رأسه بكلتا يديه مُحاولًا طَردَ الحَيرةِ وقال:

- عندما لَحقتُ بك في المستشفى يا شيخ هل لاحظتَ شيئًا مُختلفًا في ملابسي أو وجود آثار كدمات على جسدي؟

سَكتَ مليًا يَتذّكرُ ما حدث ثم أجابه:

- لا يا ولدي ما أذكُره فقط أنك كُنت في المكتبة عندما اتصلوا بك ثم حضرت إلينا مُستقلًا سيارةَ أُجرةٍ كما أخبرتني، ولم ألحظ أي شيء مُختلفٍ فيك.

- ما سأُخبرك به يا شيخ لا يُصدقه العقل فأنا أيضًا أذكُر ما قُلته بالضبط لكنني أتذكر أحداثًا أخرى مختلفة وقعتْ في الوقت نفسه ثم تغيرتْ بعد ذلك، فأنا لم أذهب إلى عملي مُباشرةً صباح ذلك اليوم، بل توجهتُ إلى الجامعة التي كُنتُ أدرس فيها وتعاركتُ مع مجموعةٍ من الطُلابِ، بل سُرِقَ

مني هاتفي ومحفظتي فعُدتُ إلى البيت مَشيًا على الأقدام، بعدها علِمتُ أنكم أخذتم جدي إلى المستشفى فلحِقتُ بكم، حتى أنك ذُهلتَ عندما رأيتَ جسدي الذي أثقله الضربُ وملابسي المُمزقة.

هز آدم رأسه باهتمامٍ وهو يقول:

- وكيف حدث لك كل هذا؟

- بعد أن علِمتُ أن جدي قد فارق الحياة عُدت إلى شقتي وأنا منهار، أغلقتُ الباب وبدأت بقراءة دعاءٍ أحفظه منذُ صغري، وكانت أمي دائمًا تُرَدِدُه لي، بدأت أعيده مراتٍ مُتتاليةٍ فأحسَستُ بأنني أنسلِخُ عن جسدي الحقيقي الذي سَقطَ على الأرض كجثةٍ هامدة وبدأت أطوف في الهواء، لقد كُنتُ أحسَبُ أنه الموت لكن روحي عَبرتُ نفقًا دوديًا أسودَ إلى الماضي، هناك تقمّصتُ جسدي وعِشتُ عشرين دقيقةً ثم بعدها فجأة حدث الشيء نفسه وعدت إلى الحاضر.

- انتظر حتى تزول آثار الدهشة من وجهيهما، ثم أكمل:

- أنا متأكد أنكما تظُنان أنني أُخرّف ولكنني أُقسم أن هذا ما حصل فعلاً!

استمع له آدم بتمعن دون أن يُعقِبَ وعندما فَرغَ من كلامه قال له:

- وكيف يُمكنك التأكُدُ أن ما تقوله حدث لك فعلاً، ولم يكُن حُلمًا أو هلوساتٍ سبّبْتَهَا الصَدمةُ التي تعرَضتَ لها عندما علمت بوفاةَ جدِك؟ فجَعلكَ ذلك تتخيّلُ أشياءً لا أساسَ لها من الصحة؟!

نظر تامر إلى يمينه وشماله وكأنه يتأكدُ من خُلُوِ الشقة من متطفلين، ثم نزع معطفه وقميصه الأبيض وأظهر لهما وشم المثلث بارزًا على ظهره.

اندهش آدم وقام يتحسس بيده الوشم ذي الخطوط الغريبة، وقال:

- متى حصلتَ على هذا الوشم يا تامر؟!

أجابه وهو يُعيد ارتداء قميصه بسرعة:

- عندما تلوت الدُعاءَ مرّاتٍ مُتتالية شعرتُ بلهيبٍ حارقٍ في ظهري وكأنه يشتعِلُ نارًا فنزَعتُ قميصي لأكتشفَ وجوده.

فرك آدم رأسه باهتمام وقال:

- ما تقوله غريب حقًا ويصعُبُ تصديقه!

وسط كل هذا الحوار بدا الشيخُ حسن مصدومًا وشارِدًا، وقد اتسعَت عيناهُ وهو يُحدقُ في تامر قبل أن يُفجِرَ المُفاجأة قائلاً:

- هذا الوشم... كان والدك يملِكُ مثله بالضبط.

قفز تامر نحوه وأحاطه بكفيه، وقال بلهفة عارمة وهو يهزه:

- كيف ذلك؟!! أخبرني كل ما تعرفه يا شيخ من فضلك.

- عندما كان والدك بيننا أخبرني جدك يومًا أنه يملك وشمًا غريبًا على ظهره، وكان دائمًا يحاول إخفاءه عن أعين الفضوليين، وفي أحد الأيام كان مُصابًا بحمى شديدةٍ جدًا، ولا يَكادُ يفتَحُ عينيه فذهبتُ لزيارته، كانت

والدتك تقوم بتغيير قميصه المُبلل بالعرق، عندها لمحتُ الوشم بارزًا في ظهره.

- ألم يخبرك كيف حصل عليه؟ وأين؟

هز الشيخ رأسه نافيًا:

- لم أسأله يا ولدي فتلك مسألة شخصية ولم أرغب أبدًا في إحراجه.

هنا قال تامر بانفعال:

- هل معنى هذا أن والدي كان يملِكُ القُدرة نفسها التي أملكها الآن؟

شبك آدم أصابع كفيه مستندًا بمرفقيه إلى فخديه في تركيز تام وهو يقول:

- ما أسمعه الآن غريب حقًا ويصعُب تصديقه ولكنه ليس مستحيلاً.

اتسعت عينا تامر وقد زاد ذهوله وهو يقول:

- وكيف يمكن ذلك؟

- أنت تقول إن روحك غادرت جسدك بالفعل، صحيح؟

- نعم، ذلك ما حصل بالضبط.

- الروح يا تامر لا تغادر الجسد إلا عِند وفاة الإنسان، لو كان ما تقولُه حقيقةً، فالنفس هي التي غادرت جسدك وليس رُوحك.

بدأ الأمر يشتدُ غرابة وظهرت ملامحُ الدهشة والحيرة على وجه الشيخ حسن وتامر.

أكمل آدم كلامه:

- طبيعة الإنسان تنقسم إلى ثلاثة أقسام مختلفة: النفس والروح والجسدُ المادي؛ النفسُ هي وَعيُ الإنسانِ وإرادته، أما الجسد فهو فقط وعاءٌ تستخدمه النفسُ لتعيش الواقِع المادي، بالجسد يستطيع الإنسان أن يرى الأشكال والألوان المادية بعينيه ويلمس محيطه بيديه ويسمع الأصوات التي تدخل إلى أذنيه، ويتذوق الطعام الذي يأكله، فالجسد مجرد آلة بيولوجية في يَدِ النفسِ البشرية، لذلك فهو في حاجة إلى الراحة بين الفينة والأخرى، فيحس الإنسان بالتعب والإرهاق وينامُ ليستَرجعَ قوته المفقودة، عندها تُغادر النفسُ الجسد وتطوف في عوالِمَ أُخرى، لأنها ليست جِسمًا ماديًا وبالتالي فهي لا تحتاج إلى الراحة، وربما ترى أشياء غريبة في العوالم التي تزورها في تجوالها، لهذا في بعض الأحيان عندما يستيقظُ الإنسان من نومه يتذكر أشياء رآها في عوالِمَ أخرى ويعتَقِدُ أنها كانت حُلمًا.

إلتفت إلى والده وسأله لتأكيد نظريته:

- ألم يُخبرنا الله عز وجل أن النفس تتوفى حينما ينامُ الإنسان يا أبي؟

أجابه الشيخ الوقور:

- صحيح يا ولدي معك حق! فقد قال عز وجل:

"ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ "(الزمر:٤٢).

أكمل آدم كلامه:

- الوفاة يا أبي تعني الانتقال إلى عوالم أخرى غير عالمنا المادي، ثم عندما يستيقظ الإنسان مباشرة تعود النفسُ إلى جسدها بسرعة خارقة لا يستوعبها عقل الإنسان المحدود.

هنا تدخل تامر وقال وقد زاد استغرابه:

- وإذا لم تكن النفس روحًا، فما هي الروح يا آدم؟ وكيف تبقى متعلقة بالجسد؟:

- الروح هي طاقة نورانية إلهية متصلة بالله عز وجل، طبيعتها وتكوينها يبقيان مجهولين فنحن لا ندري ماهيتها، كل ما نعرفه عنها هي أنها طاقة سماوية تغطي جسد الإنسان ولا علاقة لها بالوعي البشري.

هنا أكمل الشيخ حسن قائلاً:

- صحيح كل ما تقوله يا ولدي فقد قال الله عز وجل؛ "وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ "(الإسراء/ ٨٥).

أومأ برأسه مؤكدًا كلام والده وأكمل:

- نَصِل الآن إلى مرحلة الموتِ الحقيقي، عند وفاة الإنسان فإن الجَسدَ يندثِرُ ويتعّرضُ لِكُل ما هو مادي من تلفٍ وتحللٍ، أما النفسُ فتُغادِرُ الجسدَ نهائيًا لتذُوق الموت (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ) (آل عمران:١٨٥)، بعدها تذهب

إلى عالم البرزخ لِتُحاسَب على كُلِما فَعلَتهُ في الدُنيا، فإما تُعذّبُ إن كانت سيئة وإما تجازى إن كانت مؤمنة، أما الروحُ فتعودُ إلى الله، لأنها ليستْ مخلوقًا إنما جزء من الخالق.

قال الشيخُ حسن مُنبهرًا من تحليل ابنه:

- صحيحٌ يا ولدي أنا لم أنتبه لذلك أبدًا! فالقرآن يخبرنا أن الروح أمر رباني وبالتالي فهي غيرُ مكلّفةٍ فلا تُحاسبُ ولا تُعاقب، أما النّفسُ فبشرية وتُحاسَبُ على ما فعلته في الدنيا.

ابتسم آدم بتهذيبٍ وهو يقول:

- الناس عامة لا يُفرقون بين الرُوحِ والنفس يا أبي!

استوعب تامر تحليل آدم المنطقي وقال مُكملاً:

- إذا كانت النفس أو الوعي البشري لا يخضَعُ لمعايير الفيزياء المادية، لذلك يُمكنها التجوّلُ عبر العوالم والأبعاد وربما السفرُ عبر الزمن؟!.

- لذلك قلتُ لك أن ما حدث ليسَ مُستحيلًا فأنا أسمعُ كثيرًا عن ظاهِرَةِ خُروج النّفس من الجسد يا تامر فهي مشهورة جدًا لدى طوائِف الصوفية والدروز؛ بِسبب كثرة مُمارسات التأمُلِ والاسترخاء لديهم، حيث يؤمنون بإمكانية خروج النفس وتِجوالها عبر الأبعاد ورؤية الماضي والمستقبل، بل تقمُصِ أجسادٍ أخرى أحيانًا، ربما كلماتُ دعائك وهذا الوشمُ الغريبُ على ظهرك يملكان قُدرة إعجازية على فتحِ بابٍ بُعدي ينقُلُ وعيك إلى الزمان

والمكان الذي تختاره أنت، ولأن النَفسَ لا يُمكنها أن تظلّ مُدةً طويلةً بعيدةً عن جسدها فهي تَعودُ تلقائيًا لِحاضرها بعد مدة وجيزة كما أَخبرتني.

ما يُثير حيرتي هو أن الصوفية يحتاجون لسنوات ليتمكنوا من الوصول فقط إلى مرحلةٍ تُمكنهم من رؤية صُورٍ من الماضي فقط، أما أنت فقد استطعت السفر فِعليًا والعيشَ هناك، بل تغيير أحداث الماضي!

- تحليلك منطقي يا آدم، ولكن ما لا أفهمه هو ما دور كلماتِ الدُعاء في هذا الانتقال؟

- هذا ما لم أفهمه، ما أعلمه فقط أن الأدعية عامة لا تَملِكُ صيغةً مُحددةً كما يظن البعض، فكل عبدٍ يدعو ربه بما يُريد واللغة التي يُريدها، سواء كانت العربية الفصحى أو العامية أو حتى بلغاتٍ أجنبية، أما أمر الاستجابةِ للدعاء فهو رباني ولا يُمكن للإنسان التدخُل فيه.

سَكتَ قليلًا كأنه يُفكر وقال:

- رُبما وشمُ المثلثٍ يمُدُكَ بقُدرةٍ إعجازية على السفرِ عبر الزمن عند تلاوتك للدعاء، والدليلُ على ذلك أنه لم يَحصُل معك شيء من قبل، رغم أنك كُنتَ تحفظ كلماته وترددها منذ صغرك.

إن الرُموز تَلعبُ دورًا مُهمًا في مثل هذه الأحداث، ولها دلالاتٌ روحيةٌ خارِجةٌ عن الطبيعة، خُصوصًا المُثلث والنجمةُ السداسية، تمامًا كما يَفعَلُ مُستعملو الإِسقاطِ النجمّي الذين يرسُمون رموزًا على الأرض، أو يبنونَ

أشكالًا هرمِيةً تُساعدهم على التركيز لتخرُجَ أنفسهم وتُسافِرَ عبر البواباتِ البُعدية، أنا واثقٌ أن وَشمَ المُثلثِ يملك القُدرَةِ الخارقة نفسها، ويجعل نفسك تُغادِرُ جسدها بسهولة وتتخطى حاجزَ الزمن.

- ولماذا أنا وحدي من يتذكَرُ التغيير الذي حصل في الخَطِ الزمني؟

- أمرٌ بديهي أن تتذكره لِوحدِك فأنتَ الذي قُمتَ بتغيير الزمن، لذلك يظلُ وعيكَ مُحتفِظًا بكُلِ المعلوماتِ التي خزّنها عنِ الخطِ الزمني الأول، أما من حولك فيتأثرون بهذا التغيير دون أن يعلموا بحدوثه.

أصابت الحيرةُ تامر، والتفت إلى الشيخ حسن وفي رأسه تتقافزُ أسئلةٌ أكثرُ من التي جاء بها وقال له وقد اتسعت عيناه:

- هل يُمكنك يا شيخ أن تُخبرني بكل ما تعرفه عن والدي؟ فكل هذه الأسرارِ التي تُحيط ما وقع مُتعلقة به فقط، أخبرني من هو؟ ولماذا لم أسمع أبدًا بوجود أقاربَ له؟

اعتدل الشيخ في جلسته وهو يَستحضِرُ ذكرياتٍ مضت عليها عقودٌ، بينما اقترب منه الشابان يُنصتان إليه باهتمامٍ وهو يَغوصُ في أحداثِ الماضي:

- يجب أن تعلم يا ولدي أننا لا نعرِفُ الكثير عن والدك للأسف، فمجيئه إلى حيِّنا كان غريبًا واختفاؤه أَغرب! ففي ليلةِ بردٍ عاصفةٍ من ليالي الشتاء القارص سنة ١٩٨٦ بدأ كل شيء، كُنتُ قد صليت العشاء بالناس في المسجد مع جدكَ رحمه الله الذي صلّى خلفي مُباشرةً، فورَ انتهائنا جلسنا على

الحصير نتحدّثُ قليلاً، جميع المصلين غادروا إلى منازلهم إلا شخصًا واحداً، انزوى إلى أحد أركانِ المسجدِ واستلقى على الحصير مُتوسِدًا محفظةً جلديةً سوداء اللونِ، وبدأَ يغُطُ في سُباتٍ عَميق، كان يبدو غريبًا عن البلد، يرتدي بِدلةً سوداءَ وقميصًا أبيض، يظهرُ من شكلها أنها غاليةُ الثمن، تُشبِه البِدلَ الرسمية التي يرتديها الأغنياءُ في المناسبات، تركناهُ يرتاحُ قليلًا وأكملنا كلامنا، عندما أردنا الخُروجَ وإغلاقَ المسجِدِ اقتربنا منه لإيقاظه، كان يغُطُ في نومٍ عميقٍ كأنه لم يَذُق طَعمَ الراحةِ مُنذُ أيام، ما أن حاولتُ تحريكه حتى استيقظَ فزِعًا واحتضن محِفظَتَه وكأنه خائفٌ أن تُسرَقَ منه، كان يرتَجِفُ من البرد، حاولنا تهدِئَتَهُ ثم طلبنا مِنهُ مُغادَرةَ المسجدِ لإغلاقه، أجابنا بصوتٍ ركيكٍ فقد كان يَنطِقُ الحروفَ العربيةَ بصعوبةٌ بالغة تمامًا كرجلٍ أجنبي تعلّمَ لُغتنا حديثًا:

- "أنا غريبٌ عن هذا البلد وقد جئتُ من مكانٍ بعيدٍ جدًا، وقد كُنت أبحثُ عن فندقٍ لأقضيَ الليلةَ فيه، لكنني تَعرّضتُ للسرقة وسُلبت مني محِفظةُ نقودي، لذلك أنا لا أَملِك مكانًا أذهب إليه الآن".

كان وسيمَ الوجه يميلُ إلى الشُقرةِ بملامحَ غير عربية، قويَ الجسم مفتولُ العضلاتِ لونُ عينيه عسليٌ جميلٌ يَحمِلُ شيئًا من الغُموض، شَعرُهُ بُني اللّون ناعمُ المَلمَسِ تمامًا كشعرِك يا بُني، أما شفتاهُ فكانتا تفتران عن ابتسامةٍ غامضةٍ يغلبها حُزنٌ عميق.

لقد بدا عليه التّعبُ والإنهاكُ ذلك اليوم، وبدلته المُبتلة جعلت البرد ينخُرُ عظامه فلم نقدر على تركه ينامُ في المسجد على تلك الحال، لهذا اقترح عليه جدك مرافقته إلى بيته، فما أن سَمِع الخبرَ حتى غمرته سعادةٌ عارمة وفرحةٌ عجيبة وكأنهُ طِفلٌ صغيرٌ وعده والده القليل من الحلوى!

في اليوم التالي أخبرني جدك أنه يرفُضُ الرحيل ويريدُ الاستقرار معنا في الحي، وطلب منه مساعدته للبحث عن عمل، لقد أخبره أيضًا أنه يتيم الأبوين وقد هاجر من بلدٍ أجنبي لم يَذكُر اسمه وجاء إلى المغرب ليُعيد بناء حياته.

بعد أيامٍ اقترح على جدِكَ أن يأخُذه للسوق ليعمل معه في حمل البضائع، تردد جدك في بدء الأمر فمظهره لا يوحي أنه مِمن يُمكنُهم تَحمُّلُ مَشقّةِ العمل، لكنه وافق بعد إصراره عليه، وبالأجرِ الزهيد الذي كان يجنيه استأجر له غُرفةً صغيرة فوق سَطحِ العمارة التي تَقطُنها يا ولدي.

لَقد كان شَخصًا عفويًا ومُسالِمًا يَملِكُ براءة الأطفال، لا يَعرِفُ الحِقدَ أو الحَسد، عِند وُصولِه إلى هنا لَم يكُن يفقه شيئًا عن التعامُلاتِ اليومية البديهية كالتصرُفِ في النقود أو إعدادِ الطعام، وكأنه لم يَكُن يَفعل شيئًا طيلة حياته، لكنه كان يَملِكُ ذكاءً استثنائيًا وثقافةً واسعة، علّمناه الصلاةَ وتِلاوةَ القُرآنِ فأحبهما، انصهر معنا بسرعةٍ كبيرةٍ وأصبحَ واحدًا منا، أهلُ الحَي البُسطاءُ تَعلقوا به كثيرًا لأنه كان يُساعِدهم في كل شيء، الجميعُ شَهِدَ بدماثة أخلاقه وعِلمِه الواسع، فقد كان يتكلّمُ خمسَ لُغاتٍ مُختلفةٍ بطلاقة، كُنا نستغربُ؛

فشخصٌ بمثل مُؤهلاته وكفاءته العالية يُمكنه أن يُصبح أُستاذًا بِسهولة أو على الأقل أن ينالَ وظيفةً مرموقة في المجتمع، لكنه فَضّلَ قضاءَ وقتِه في السّوقِ مع جدِّك يَحمِلُ البضائِعَ للناس بأجرٍ زهيد.

بعد سنةٍ تقدّمَ لِخطبة والدتك وتزوجها، كان عُمرها آنذاك سبع عشرة سنة، الحيُ بأكمله شَهِد قِصةَ حُبهما، كان يعشقها أكثر من نفسه، وكذلك هي كانت أسعدَ اِمرأةٍ في الكون؛ لوجودِه بقُربها، وكان كلُ شيء على ما يُرام إلى أن جاء ذلك اليوم، عندما عَلِمَ والدك بِحَملِ أُمِك.

في تِلكَ الفَترَةِ بالضبط بدأ يَلُفُه غموضٌ عجيب، أصبح مضطربًا وشاحبًا لا يخرج إلى الشارع إلا قليلاً، حتى العمل في السوق امتنع عنه، كأنه يَختبِئُ من أَمرٍ خطيرٍ أو مُصيبَةٍ عظيمة، الكُل لاحظَ ذلك وأوهم جدُك، سألناهُ أكثر من مرةٍ فكانَ يُجيبُنا بأنها وعكةٌ صِحيةٌ وسَتُمرُ بِسرعةٍ، لكنهُ بَقِي على تلك الحالِ مُدة طويلة، وبعد مرور شهرٍ على وِلادتِك اكتشفنا اختفاءه ولم نَسمعُ عنه أي شيء بعدها.

انتاب تامر صمتٌ عميقٌ وذهولٌ شديد، فقد شعر بالحيرة وانتابه إحساسٌ غريبٌ بالندم، فهذه أَوّلُ مرةٍ يكتشفُ فيها هذه المعلومات، لم يكُن أحدٌ يُخفي عنه الحقيقة، بل هو من كان يرفضُ الإِصغاءَ إليها، لقد كان يمتَنِعُ مُنذُ صِغَرِهِ معرفةَ أَي شيءٍ عن والدِه الحقيقي.

سألهُ بلهفةٍ عجيبةٍ وملامحُ الحيرة لم تُغادر وجهه:

-ألم تحاولوا البحثَ عنه؟

- بلى حاولنا ذلك، فقد بحثنا في كُل مكانٍ في المدينة، حتى في مخافرِ الشُرطةِ والمستشفيات، ولكنه اختفى وكأن الأرض ابتلعته.

قال تامر وقد انقلبت حيرته حُزنًا ممزوجًا بالحسرة:

- رُبما فرَّ عائدًا إلى بلده لِخوفه من تَحمُلِ المسئولية وَعدَمِ رغبتِه في الإنجاب.

أجابه الشيخ حسن وقد لَمَسَ فيه ذلك الحزُن العميقَ الذي طفى على السطح:

- لا تقُل ذلك يا ولدي، فالله وحدَهُ من يعلمُ ما تُخفيهِ قُلوبُ البَشرِ، وهو الوحيد القادِرُ على مُحاسبتها.

تدّخلَ آدم قائلاً:

- والدك هو الوحيد الذي يَملِكُ مفاتيحَ كُل الألغازِ، فقد كان لديه وشمٌ كوشمك، وهو أيضًا مَن تَركَ كلماتِ الدُعاءِ لوالدتك، حتى قصةُ ظهوره واختفائه غريبةٌ حقًا وتطرح أكثر من سؤال! أخبرني يا تامر هل حاولت إعادة التجربة مرة أخرى؟

- فكرتُ في ذلك لكنني لم أَفعل.

- جيد، لا تُحاول فِعل ذلك أبدًا يا تامر فاستعمال الدُعاء خطرٌ جدًا؛ لأن تغييرًا بسيطًا في الماضي يُؤَدِي إلى كوارِثَ عظيمةٍ لِحاضِركَ وحاضِر من حولك، أَنَتَ الوحيد الذي يتحملُ مسئوليةَ أَي خطأٍ يُمكِنُ أن يقَع كيفما كان نوعه، إنها لعبة مع القدر يا تامر، وأنت لا تملك القُدرة لتتحداه.

على وَقْعِ هذه الكلماتِ شكر تامر الشيخَ وابنه، ثم غادرَ شقتَهما ورأسه ممتلئٌ بأسئلةٍ أكثر من التي جاء بها.

عاد إلى غرفته الكئيبة مرة أخرى، وقضى ليلته بين الأنين والسُهادِ يُفكِرُ في كل ما قاله الشيخ وابنه آدم وعلاقة اختفاء والده بقوةِ الدُعاء الغريبة.

قال لنفسه وهو يُفكر ضاربًا عرضِ الحائِط بتحذيراتِ آدم:

- «يَجِبُ أن أُعيد استعمال الدُعاءِ لأتأكد من قُدرتِه الحقيقية، في المرةِ الماضية عُدتُ إلى اللّحظةِ التي كلّمتُ فيها هدى قبل أن أتعارك مع الطُلابِ، فقد كنتُ أُفكر في ذلك الحدث عندما كنتُ أَتلو كلماتِ الدعاء، إذن ربما يُمكنني العودَة إلى لحظةٍ أُخرى في الماضي بِمُجرد التفكير فيها؟ ولكن ماذا عن ذلك الألم الرهيب كسكرات الموت الذي سيصيبني؟! والخطر الممكن حدوثه إن قمتُ بتغيير الماضي؟»

توقف عن الاسترسال في أفكاره، وبدأت عينياهُ تتلألآن بالدموع، وشَعرَ بهزّةٍ عميقةٍ في صدره وهو يُفكِر في أمرٍ خطيرٍ تبادر لذهنه:

- " سأعودُ إلى يومِ وفاة والدتي، نعم سأعود لأراها مرةً أخرى، فقد اشتَقتُ إليها كثيرًا، سأتحمل ذلك الألم الفظيع مرة أخرى فذلك لا يُهم، على الأقل سأتمكن من احتضانها لدقائقَ معدودة وأنا بجسدِ طفل".

جلس على طرفِ سريره بُسرعة، ثم أَسندَ ظَهرَهُ إلى وِسادتِه البيضاء وأغمضَ عينيه، تركيزه منصبٌ على يومِ وفاةِ أُمه، تلك اللّحظةُ المؤلمة

المحفورة في ذهنه إلى الأبد، زَفر زفيرًا طويلًا ثم بدأَ يتلو الدُعاءَ دون توقفٍ مُنتظرًا سماع صوتِ ارتجاجِ الغُرفةِ وظهور الدوامة.... انتظر كثيرًا لكن لم يحدُث شيء، أعاد التلاوة مراتٍ ومرات لكن الصمتَ والهُدوءَ ظلا أسياد الموقف.

صرخ تامر صرخةً عظيمةً سمعها الجيران يملؤها اليأسُ والإحباطُ وبكى بحرقة، شعر أن الحياة تلفظه وتتحداه وأن القدر يَرفُضُ أن يلتقي أمه.

في ثوانٍ بَدت لَه الغُرفَةُ مُوحشِة وضيقة وانكمش في فراشه يُمرّرُ عينيهِ بين الجُدرانِ الأربع، وظلّ ساعاتٍ طويلةٍ شارد الذهن، يَفرِكُ أصابعه مع بعضِها ويُفكر.

لَم يستوعِب لماذا لم يتحقّقِ الأمرُ مرّةً ثانية؟!، بدأتِ الأسئلة تنهالُ على رأسه تِباعًا؛ هل يشتغِلُ ذلك الدعاء مرة واحدة؟ أم أنه لا يستطيع سوى العودة إلى لحظةٍ مُعينة؟ بدأت عزائمه تخور فقرر التوقف عن الاسترسال في التفكير ومحاولة النوم.

أغمض عينيه للحظات قبل أن يفتحهما مُجددًا ويُقَرِرَ إعادة المُحاولة، لكن هذه المرة بتركيز تفكيره على لحظةِ وجوده في الجامعة كما حدث في المرة الأولى تمامًا.

بدأ بتلاوة الدُعاء مرّةً أُخرى وما أن كرره للمرة الثالثة حتى اهتزّت أرضُ الغُرفةِ وتوهّج الوشمُ، بدأ الأثاث يتحرك من مكانه وكأنَّ قوة خفية

تحركه.... تذكر تحذير آدم له فتوقف فجأة عن التلاوة ليعود الهدوء مرة أخرى للغرفة، ولم تظهر الدوامة، استعاد أنفاسه وقال وقد عاد الأملُ ليلامِس روحه من جديد:

- «هذا الارتجاجُ الذي حدث يُؤكِدُ أنني أستطيع العودة إلى لَحَظةِ وجودي بالحديقة فقط، لكن آدم على حق فلا يُمكنني العودةُ إلى الماضي هكذا دون تدبيرٍ أو تخطيط فربما أُغيِّرُ شيئًا أساسيًا عن غير قصدٍ فيتأثرُ حاضري أنا ومن حولي».

أحس بإعياءٍ شديدٍ ينخُرُ جسده، مَسحَ العرقَ المُتصبِّبَ من جسده واستلقى على سريره ثم أَغمضَ عينيه بهدوء، تذكر يوسف وموقفه السيئ معه، وعرف أنه لن يستطيع العودة إلى عَملِه في المكتبة أبدًا ويتوجب عليه البحثُ عن عملٍ أَخر قبل أن تَنفذَ نُقوده، بدأ يَستسلمُ لإعيائه رويدًا رويدًا، فجأة بَرقتْ فِكرةٌ شيطانيةٌ في رأسِهِ انتشلته من هُوةِ اليأس، لَو تَحقّقَت ستُفتَحُ له أبوابُ الفرَجِ والنعيم الدائم، ضَغطَ على نفسه للنومِ مُنتظرًا بشغفٍ اليوم التالي ليقوم بتجربة خُطتِه الجديدة.

جاء الصباحُ وأشرقتِ الشمس من جديد، كان فصلُ الشتاء في بدايته، نظراتُ الشمسِ سقيمةٌ وحرارتُها ضعيفة، أما الرياحُ فقد انتزعت عزمَ البِحارِ لتُبيد به ما أخرجته الأرضُ من صَدرِها.

ارتدى مِعطفَهُ وخَرجَ من المَنزِل بِسرعةٍ وتوجهَ إلى دُكانٍ بناصيةِ الزُقاق يملكه صديقه القديم"سعيد"، كانا صديقين حميمين لا يفترقان إلا نادرًا في طُفولتِهما لكنه لم يكن يعير اهتمامًا للدراسة ومشكلاتها، ومع توالي الأيام بدأت تظهر عليه مظاهِرُ الانحراف فترك المدرسة، حاول تامر نَهيه بشتى الطرق، لكنه كان من النوع الذي يتلقى النصائح كشتائم فابتعد عنه، كان ذلك قبل أن يُغلِقَ تامر قوقعتُهُ على نفسه في السنواتِ الأخيرَةِ ليتفرّغَ للدراسَة والتّحصيل، بينما تمادى سعيد في انحرافه وعربدته شبه اليومية في الحي، حتى جاء اليوم الذي غيّرَ كُلَ شيءٍ في حياته، فقد تُوفي والده واضطر للعمل في دُكانِه؛ ليُعيلَ والدته وإخوته الصغار فعادَ مُجبرًا إلى رُشده وتَخلَى عن سبيلِ الانحراف.

حيَّاه تامر وبادله أَطرافَ الحديثِ لِدقائقَ، ثم طَلبَ مِنه أن يَمُدَه بالأرقامِ الفائزة بجائزة اليناصيب ليومِ الأربعاء.

استغربَ سعيد لكونِ تامر يكرَهُ القِمار، فَتحَ أحدَ أدراجه الخشبية وأَخرج دِفترًا يُسجلُ فيه النتائج اليومية لليناصيب، أَمسك القلم وأعاد كِتابتها بترتيبها على ورقة بيضاء صغيرة ومدها لتامر وهو يسأله بذهول:

- منذ متى وأنتَ تُقامر؟ ما بالك وهذا البلاءُ اللعين، أنا صديقك منذ زمنٍ وأعرف أخلاقكَ جيدًا لَطالما نصحتني لكنني للأسف لم أكن أكترث لك، أنا أعلم أنك حزينٌ ومحبطٌ لوفاة جدك، لكن هذا لا يُعطيكَ الحقَ في تَدميرِ

حياتِك والانحرافِ، فهذه اللّعنةُ تُفني الرِزقَ وتجعلُ صاحبها مُدمنًا عليها، بل تقوده مباشرةً إلى الهلاك.

أجابه تامر وهو يبتسمُ ابتسامةً غامضة:

- لا تَخف يا سعيد، أنا لن أَدمن القمار أَبداً، هذه أَوّلُ وأَخِرُ مرةٍ أَلعبُ فيها وسأفوزُ بالجائزة الكُبرى ثمَ اعتَزَلَ اللّعِب.

ضَحِكَ سعيد لكلامِ تامر وردَّ عليه ساخراً:

- إن كان ما تقولُه صَحيحًا فستفوزُ بجائزةٍ ضخمةٍ لم يسبق لها مثيل، ثلاثة مليارات درهم مغربي! إن حَدَثَ ذلك فلا تَنسى أَبَدًا أنني كنتُ صديقكَ في يومٍ من الأيام.

عاد تامر إلى المنزل وأغلقَ عليه الباب، أنزل ستائر النوافذ، ووضع الصور المعلقة على الأرض لكي لا تَسقُطَ مرّة أُخرى بسبب الارتجاج، كانت فكرة جنونية وذكية في الوقت نفسه، وكان تامر مُتأكِدًا بنسبة كبيرة من نجاحها، رسم ملامحَ الثِقةِ على وجهه وقال وهو يحاورُ نفسه:

"سأعودُ إلى اللحظَةِ التي كلُمتُ فيها هدى فأنا أملك عشرين دقيقةً للقيام بالتغيير الذي أريده، سأبحثُ عن كشك بسرعة وأملأ استمارة اليناصيب بالأرقام الفائزة نفسها التي أعطاني إياها سعيد، وأضعُ الوصلَ في جيبي ومعها مُلاحظةٌ مكتوبةٌ أَترُكها لنفسي في الماضي، في اليومِ التالي سيُعلِنونَ عني

فائِزًا بالجائِزة الكُبرى، سأُصبِحُ مِليونيرًا وفي الوقتِ نفسِه سأُنقِذُ جدي الذي سيتمكنُ من القيامِ بالعملية في وَقتِها المُحدّد».

تأمّل للحظاتٍ الصورة التي تجمعُه مع جده، قبّلها ثم وضعها على الأرض، جَلَسَ على كُرسّي جِدِه الخشبي القديم وضبط أنفاسه، ثم بَدأَ بتلاوةِ الدُعاءِ وتركيزُهُ مُنصبٌ على اللّحظةِ التي دَخلَ فيها إلى حديقةِ الجامعة.

كل شيء بدأ بالارتجاج، الغُرفة تتحركُ جيئةً وذهابًا، أَغمضَ عينيه واستمر بالتلاوةِ بصوتٍ مُرتفِع، ما أن أكمل قراءته للمرة الثالثة حتى شعرَ بلهيبٍ حارقٍ في ظهره، اندثر الوشم وتحوّل إلى حباتٍ كثيفةٍ سوداء حامت في الغرفة ثم اجتمعت مع بعضها مُكوِنة الدوامة فوق رأسِهِ مُباشرةً، انسلخ عن جَسدِه المادي وَدخل وَسطَ الدوامَةِ التي فُتِحت في الماضي ليتقمصَ جسده هناك.

الأربعاء 14 فبراير، الساعة 10:00 ص

انتهى كل شيء واختفت الأصوات الغامضة، دَاعبتْ أَنفَهُ رائحةُ الحديقةِ المألوفةُ ففتحَ عينيه بصعوبةٍ؛ لِيجدَ نفسه في الجامعة، نظر بسرعةٍ لساعته ليتأكد من توقيتها-العاشرة ودقيقة- يملكُ عشرين دقيقة لتطبيق خطته، هدى جالسة كأميرةٍ في حديقة قصرها تَقرأُ روايتها المعهودة، خرج من الحديقة على عجلٍ وسار مُسرعًا نحو باب الجامعة مُتجاوزًا بخفةٍ المجموعاتِ الشبابية الواقفة في الساحة، توقّفَ بُرهة أمام مقصورةِ الحارس الذي كان غارقًا في تفاصيل مباراته، أدخل رأسه من النافذة الصغيرة وسأله وهو يَلهث:

- "من فضلك يا سيدي هل يوجد كشك قريب من هنا؟"

أشار له للجهة الأخرى من الشارع دون أن تبرح عيناه التلفاز، فأسرع تامر إلى الكشك وطلب منه ورقة يناصيب فارغة، ملأها كما شرح له سعيد بالأرقام التي حَفظها عن ظهر قلب، ثم أعطاها لصاحب الكشك وأخد الوصل، وما إن دسَّه في جيبه حتى سَمع صوتَ الشاحنة الحمراء الكبيرة المُحملة بالبضائع تمر من أمامه سريعًا.

وقف في مكانه لثوانٍ ينظر إليها وسمِع المارة وهم يسُبون السائق ويلعنونه، التفت مجددًا لصاحب الكشك وطلب منه ورقةً بيضاء وقلمًا، خطَّ بعض السُطور ودسها في جيب محفظته وما إن انتهى حتى أحس بصداع شديدٍ في رأسه، ظهرت الدوامة العظيمة وكأنها تنتزعه من جسده، نظر حوله؛ كل شيء يمر ببطء شديد والناس حوله غير مكترثين كأنَّ غشاءً قد أعمى عيونهم كما حدث تمامًا في المرة الأولى.

الحاضر:

استيقظَ فجأةً وشهق شهقة عظيمة، مسح حبات العرقِ المتلألئة على جبينه، ثم جلس يلتقط أنفاسه ويحوم بعينيه مُستكشفًا المكان، لقد عاد إلى الحاضر مجددًا، اعتدل في جلسته وبدأ يتذكر ما حصل له فاكتشف شريطَ ذكرياتٍ جديدٍ طُبع في ذاكرته وتغيرت أحداثُ الأيام الماضية مُجدداً.

ذكرياتٌ جديدة:

الأربعاء 14 فبراير، الساعة 10:20ص

كيف حصل ذلك؟! ومتى؟! لم يستوعب ما حدث له، كان يَهمُ بالكلام مع هدى لكنه وجد نفسه خارج أسوار الجامعة مرميًا على الأرض!

جلس على الأرض حائرًا يفكر:"هل فقدتُ الوعي؟ هل طردني أحدهم؟ لماذا لا أذكرُ شيئًا مما حدث؟" انتابه خوف شديد وريبة، فقرر تأجيل فكرة مُصارحة هدى والذهاب إلى عمله،

توجه إلى محطة الترام، دسَّ أنامله في جيبه وأخرج بطاقة الدخول فسقطت ورقة على الأرض، حملها وقرأ:

عُد إلى البيت فورًا فجدُك سيصاب بنوبة قلبية عند صلاة الظهر داخل المسجد، خذه إلى مستشفى الورود بسرعة، سيُخبرك الطبيبُ أنه يَجبُ أن يُجري عمليةً جراحيةً على قلبه وسيطلبُ منك مبلغًا كبيراً، خُذ دفتر الشيكات من المنزل وأُكتب أي مبلغٍ يريدونه ولا تخف فورقةُ اليناصيب في جيبك الخلفي هي أرقامٌ ستفوز بها بمبلغٍ كبير جدًا سيُعلن عنه في اليوم التالي وأنت ستكون الفائز الوحيد.

لم يفهم شيئًا مما تقوله الورقة رغم أنها مكتوبة بخط يده، لكنه أسرع لتطبيق ما جاء فيها خوفًا من وقوعه فعلاً، بحث مُطولًا عن سيارة أجرة حتى وجدها، كانت الساعة تُشير إلى الحادية عشرة عندما صَعد إلى شقته وبحث

عن جده لكنه لم يجده، دسَّ دفترَ الشيكات في جيبه وخَرجَ يبحثُ عنه في الشارع، سأل بعض الجيران فنفوا رؤيتهم له، توجه إلى شقة الشيخ حسن راكضًا وهو يلهث، وطرق الباب بقوةٍ ففتح له الشيخ وهو مندهش، سأله تامر عن جده لكنه كان يجهلُ مكانه أيضًا، لم يجد سبيلا آخر فوقف أمام المسجد متوترًا ينتظِرُ ظهوره، أخرجَ الورقة وأعاد قراءتها مُجددًا وهو يتفحصُ مُتعجبًا كيف كُتبت بخط يديه، عند أذان الظُهر لَمَحَ جده قادمًا من بعيدٍ بخطوات بطيئة، ركضَ نحوه بلهفةٍ وسأله عن مكان اختفائه! فأجابه باستغرابٍ أنه ذهب لزيارة أحد معارفه، جرّه من يده وتوجه به نحو المستشفى كما جاء في الرسالة المجهولة وسط حيرة الجد وذهول الجيران القادمين لتأدية الفريضة، ما إن وصلا إلى باب المستشفى حتى شعر جده بوخزٍ شديدٍ في صدره وسقط أرضًا فاقدًا وعيه، أدخلُوه العناية المركزة مباشرة، بعد ساعة خرج الطبيب ليُخبره أن جده يحتاجُ لعملية، اندهش لحدوث ما كُتبَ في الورقة بالضبط، طلب منه القيام بالعملية على الفور بعد أن أعطاهم شيكًا يساوي ضعف المبلغ، تعجب الطبيب تم دلف لقاعة العمليات، وبقي هناك لساعاتٍ متواصلة، لكن للأسف العملية لم تنجَح، وعند اقتراب فجر اليوم التالي تُوفي جده.

انتهت الذكريات.

الحاضر:

جلس على أرضية الغرفة واضعًا رأسه بين رجليه وبكى بحرقة عجيبة وهو يتذكر لحظات وفاة جده الجديدة عندما كان ينظُر إليه عاجزًا عبر زجاج الغرفة الشفاف.

لم يكترث لورقة اليناصيبٍ الفائزة بقيمة مليار سنتيم، والتي لم تغادر جيبه، أحس بطعم الهزيمة في حلقه، وانهار فاقدًا الأمل في كل شيء، فقد كان يملك بصيص أمل لإنقاذ جده، لكنه مات رغم إجرائه العملية، تأكد أنه لن يستطيع تغيير أمرٍ قدَّره الله في الأَزل، فقد حانت ساعة تلبيته لنداء الموت، ولن تنفع محاولاته لتغيير الماضي في شيء.

الفصل الخامس

الدعاء الأخير

بعد ثلاثة أشهر....

الحبُ خروج عن الواقع، إحساسٌ جارفٌ يتملّكُ جسدك الضعيف، يَنزِعُ مِنك الرُوحَ غصبًا وينقُلُها إلى عالمٍ آخر، حيثُ يَغيبُ العقلُ والمنطِق ويُصبِحُ كل شيءٍ مُمكنًا. كل خُطوةٍ تخطوها، كُل قرارٍ تأخذه.... يكون بمنطِق القلبِ لا العقل؛ لذلك فالعواقبُ لا تكونُ محسوبةً أبدًا، هذا هو الحب وتِلك هي ضريبته.

الساعة تُشير إلى التاسعة صباحًا، رَنينُ هاتفه الجديد اخترق أُذنيه، مدَّ يده بِصعوبةٍ باحثًا عنه في طرف السرير ليوقف صَوته المزعج، انكفأ على ظهره وبعينين نصف مُغمضتين نظر إلى السّقفِ مُتأملًا نُقوشه الجِصية الجميلة.

عَبقُ رائِحةِ القهوة التي تُعدها الخادِمة له قبل استيقاظه تُدَغدِغُ أنفه، قام مُتثاقلًا من فراشه الوثير، وغاصت قدماهُ في السّجاد الجديد الذي لم تُغادرهُ بعد رائحة المَصنع.

فتح ذراعيه على مصراعيها لِيطرُد الكسل، ثم وَقف مُتثاقلًا وهو يَفرِكُ شعره بأصابعه وتوّجه إلى الحمام، فَتَحَ الصُنبورَ وحدقَ في وجهه في المرآة، عيناهُ لم تعودا غائرتين كما كانتا من قبل واستعادتْ بشرَتُه حيويتها، فلم يعُد يَشكو من قِلة النومِ أو الإِبكارَ في الاستيقاظ.

مرّت ثلاثةُ أشهرٍ على فوزه باليناصيب، بين ليلةٍ وضُحاها أصبحَ غنيًا، ابتسم وهو يتذّكرُ وجهَ سعيد عندما مَنحَهُ النقود لإعادَةِ إصلاح كُشكِه، اضطرب غير مُصدقٍ وقام يَقفِزُ ويتنّطَطُ بطريقةٍ بهلوانية في الأزِقَةِ والناسُ تنفَجِرُ بالضحك، كل الجيران قدّم لَهم يد المُساعدة خُصوصًا من ساندوه عند وفاة جده، شخصٌ واحدٌ فقط كان يرفُضُ باستمرار مساعداتِه وهو الشيخُ حسن الذي أخبره أن أموالَ اليناصيبِ خبيثةٌ، ولن يمسَّ شيئًا منها، لم يَكترِث تامر لكلامه لأنه يَعتَبِرُ الفَقرَ والحِرمانَ والجوعَ أشدَّ إيلامًا وأكثرَ خُبثًا، لكنه احترم رَغبته في عدم أخد شيء من ماله فتركُه وشأنه.

وَهبَ شقته الصغيرة لابن جارته "الحاجة أمينة" الذي كان يوشك على الزواج، ترك له كل شيءٍ حتى الأثاث، بَكَت الحاجة من الفرح وظلَّت تَدعو له وتُقبِّلُ يديه ورأسه حتى احمرَّ من الخجل. اشترى فيلا في أرقى حي بالمدينة، وطلب من إحدى الشركاتِ المُتخصِّصَةِ تأثيثها ثم انتقل إليها قبل أيام.

فَتحَ الدولابَ الذي تزاحمت داخله الملابس ذات الماركاتُ العالمية، أخذ مجموعةً من البِدَلِ الجديدة من ووضعها فوق السرير ليختارَ منها ما يناسبه، لا يذكُر من أين اشترى أغلبها، فَتحَ عُلبةً كرتونية من علب الأحذية المُصطفّةِ أَسفَلَ الدُولاب، فاكتَشفَ أنها ثقيلةٌ عكسَ ما اعتاد عليه.

ارتدى حذاءً أسود جلديًا وانتفضَ من مكانه ماشيًا يُجربُه، لم تَعتَد قدماهُ بعد على هذه الرّاحةِ المُفرِطة، فقد أَلِفَ الأحذيةِ المَحلّيَةَ المُقلَّدة التي كانت تَجعلُهُ يشعرُ بوخزِ الحصى في طريقه اليومي إلى عمله كما لو أنه يمشي حافيًا!

بعد أسبوعٍ كامل على وفاة جده جاء يوسف إلى شقته ليعزيهُ ويطلب منه العودة إلى العمل، فطرده تامر مُغلِقًا الباب في وجهه، لم يفهمِ المسكينُ ما يحدُثُ وامتعض من ذلك التصرُّفِ المشين، تامر كان واثقًا في قرارة نفسه أنه لم يُخطئ في حقه، بل يستحق أكثر من ذلك لموقفه السيئ معه عندما احتاجه، بالتأكيد فيوسف لم يكن يَعلمُ شيئًا عن فِعلته فقد غّير تامر أحداث الماضي ولم يَذهب أَصلًا لاستعطافه ولم يطلُب منه أية مساعدة.

اليومُ يومٌ مهم، سيمضي عَقد شراءِ مطبعةٍ خاصة، لقد كان يبحثُ منذ فترةٍ عن مشروعٍ يستثمرُ فيه المال الذي فاز به، عندما استلم النقود حاول شراء مقهى أو مطعمٍ لكنه تراجع عن الفكرة في أخر لحظةٍ لعدم توفره على تجربة في المجال، وبينما كان يبحثُ عن مشروعٍ مناسبٍ لاستثمارِ ثروته التقى رجلاً تعرّفَ عليه في المكتبة، كان واحدًا من الزبائن القلائل المُدمنينَ على القراءة، أخبر تامر أنه يملكُ مطبعةً يريدُ بيعها بعد أن قرّرَ الهجرة إلى كندا للاستقرارِ هو وزوجته وأولاده، شاب حاصلٌ على شهادة دكتوراه في الفيزياء لم تنفعهُ في شيء فقرّرَ التخلُّص من المطبعة التي ورثها عن والده لِجهلِهِ كيفية تسييرها والرحيل دون عودة، ربما هذا ما يَسمونَهُ بِهجرَةِ الأدمغة! شخصٌ ذكيٌ

ومُثقّفٌ مثله سيُغادِرُ البلد دون أن ينتبه إليه أحدٌ؛ فيتوجه لوطن أجنبي يستقبله بصدرٍ رحبٍ ثم يُقدِمُ له كل الوسائلِ المُمكنة وغير المُمكنة ليبدع في مجاله؛ فيتألق ويسطَعُ نجمه، عندها فقط سيتذكره المسئولون في وطنه الأم؛ فيحتفلون به ويُشيدون بإنجازاته في المنابر الإعلامية، مُهللين ومُفتخِرينَ بأصوله.

نزل عبر الدَرجِ الرُخامي إلى الطابق السفلي للفيلا وجلس على الأريكة الجلدية رافعًا رأسه إلى السقف يتأملُ الثُريات البلورية التي وضعها العمالُ بالأمس، أخذ جريدة اليوم الموضوعة فوق الطاولة وتصفحها وهو يرتشف بنشوةٍ القهوة الصباحية التي أعدتها له الخادمة.

بعد نصف ساعةٍ كان جالسًا خَلفَ مقود سيارته الجديدة من نوع أودي **AUDI**، التي لم يكُن يراها سوى في الإعلانات المُنتشرة في الشوارع وكان يخافُ قيادتها حتى في أحلامه، أدار المفتاحَ وهو يستَمِعُ لهدير مُحرّكها القوي، تحسّس بيده الشاشةَ المُسطحة التي لم يستوعِب بعد رموزَ أزرارِها باحثًا عن زِر تشغيل مُكيف الهواء، فرغم لطافة الجو فإنه أراد أن يَملأَ صدره بهواءٍ باردٍ يُنعشه ويُذَكرهُ بأنه يعيشُ واقعًا سعيدًا؛ وليس حُلمًا نسجه الخيال.

نظر إلى المرآة العاكسة ليتأكد من ثبات الجيل على شعره، وضع نظاراته الشمسية الغالية الثمن ثم ضغط على الدواسة لينطلق مسرعًا، بعد مسافة بسيطة أوقفه الضوء الأحمر، التفت إلى يمينه حيث توقف الترام في اللحظة

نفسها، الحشود تتسابقُ للصعود في المحطة، ابتسم وهو ينظُرُ إليهم وقد غمرته نشوةُ الانتصار على التوتر وضغوطاتِ الحياة.

وصل إلى المطبعة مُتأخرًا كأنه تعمّد ذلك، فطالما خاف من الوصول متأخرًا، طالما تحقّق من ساعة معصمه ليتحقق من مواعيده، منذ اليوم قرر أن تَنقلِبَ الكَفّةُ وينتَظِرهُ الآخرون.

التقى الرجل الذي لم يُبدِ أي تذمرٍ من تأَخُره، وجلس يُناقش معه مَبلغَ الصفقة، وطريقة الدفع.

مرّ اليوم سريعًا وهو تائه بين المعاملات الورقية وطلبات الإدارات التي لا تنتهي، وشعر بالغضب وهو يُفكر في حال الاقتصاد في بلده، ما إن تُفكِرَ في الاستثمار فيه حتى تتفنّنَ كل إدارةٍ في طلبِ الوثائق اللّازمة وغير اللازمة، مما يجعلُ المستثمرَ يندمُ على الفِكرة من أساسها.

أنهى أخر المُعاملاتِ ثم استقل سيارته وتوجه نحو الجامعة، وقف أمام بابها الكبير يُراقب الطُلاَبَ عبر الزجاج بنظراتٍ يملؤها الاستغراب، لم يستوعب بعد أن خمس سنواتٍ مُدة كافيةٌ ليتغير جيلٌ بأكمله وكأن دهرًا قد مر! منذُ أسبوعٍ وهو يُداوم على الحضور كل مساءٍ للبحث عن هدى ويغمره الأمل في لقائها رغم جهله لبرنامج مُحاضراتها، شعوره بالعياء الشديد لم يمنعه من تكرار المحاولة؛ عسى أن يرأفَ الحظُ بحاله ويجعلها تنبَعِثُ من العدم، وسامته والسيارة الفاخرة التي يركبُها جعلت له حُظوةً خاصةً لدى بعض

الفتياتِ اللواتي لاحظن تردده اليومي على المكان، فانتهزن الفرصة وحاولن إغواءه، يقِفن أمام سيارته ويبتسمن له في محاولة لإثارة انتباهه، وفي بعض الأحيان تتجرأُ إحداهن وتطلب منه رقم هاتفه، لكنه كان يتجاهلهن فقلبُه وعيناه لا يبحثان سوى عن هدى، بعد دقائق من الانتظار لمحها أخيرًا تُغادر الجامعة وتجتازُ الشارع مُمسِكةً بيد صديقتها سمر، تهمِسُ في أذنها وتضحكان ضحكاتٍ مكتومة.

تنفس الصعداء، أدار محرك السيارة ودنا قربهما عمدًا، ترجّلَ منها ببطء فيما يُشبه الاستعراض، ثم عَدّل بذلته واتجهَ نحوهما بخطواتٍ ثابتةٍ وقد رسم على وجهه ابتسامةً مشرقة تملؤها الثقة.

نظرت إليه بطرفِ عينها ثم أزاحت وجهها بِسرعةٍ عنه بينما ظلّت سَمر تُحدق إليه بفضول، لقد كان يَستعدُ لهذه اللحظة منذ أسابيع عديدة، فقد حاول الاستفادةَ من الأخطاء التي ارتكبها في لقائهما الأول الذي لا تدري هي عنه شيئًا، تلك التجربةُ جعلته يستوعِبُ جُزءا من شخصيتها حاول استغلاله بطريقةٍ أفضل في لقائهما المُقبل.

ابتسم في وجه سمر ثم التفت إلى هدى وهو يقول بلباقةٍ مُفرطة:

- مرحبًا آنستي كيف حالك؟

ألقت عليه نظرةً خاطفةً أخرى، ثم أشاحت بوجهها مُتجاهلةً سلامه.

كرّر مرة أخرى:

- مرحبا آنسة هدى..!

تفاجأت عند سماع اسمها، والتفتت إليه قائلة باستغراب:

- هل تعرفني؟!

ابتسم ابتسامة خفيفة وأجابها:

- نعم، أعرفك أكثر من نفسي لكنك فقط تجهلين ذلك!

نزعت هدى وجه الاندهاش ليحل مكانه الغضب بكل تفاصيله وهي تقول باقتضاب:

- أنا لا أعرفك أيها الشاب! فمن أين لك باسمي؟

أجابها بأدب بالغ وقد شعر بتسرعه:

- أتمنى أن تمنحيني فرصةً بسيطةً لأكلمك، إن كان ذلك ممكنًا؟

أجابته بفظاظة:

- أعذرني يا سيدي، فأنا لا أعطي فرصًا للغرباء.

ابتسم وهو يتذّكرَ الكلمات نفسها بالضبط التي نَطقت بها من قبل، وأجابها:

- أنا أعلم ذلك جيدًا، فقد أخبرتني بذلك من قبل.

قالت بصرامة وقد زادت حدة صوتها:

- هل أنت مجنون؟! أنا لا أعرفك أصلاً، فكيف تقول إنني أخبرتك بذلك؟!

قال بسرعة محاولًا تهدئة ثورانها المفاجئ:

- إنها قصة طويلة إن أردت منحي قليلًا من وقتك سأخبرك بكل ما تريدين معرفته.

هنا تدخلت سمر قائلة بجفاء:

- معذرة أيها الشاب، نحن لا نملكُ الوقت لمثل هذه التفاهات الصبيانية، إن كنت تريد إخبارنا بشيءٍ مهم فافعل أو اذهب إلى حال سبيلك.

- على العموم يجب أن تعلمي أنني لستُ شابًا تافهًا أعجبته فتاةٌ في طريقه فتوقف لمغازلتها، أنا إنسان جاد وأرغبُ في التعرف عليك والتقدمِ لخطبتك على سنة الله ورسوله إن رغِبت بذلك بالتأكيد.

ضحكت سمر عند سماعها لكلامه وقالت بسخرية:

- زواج حقيقي أم علاقة عابرة ؟ فأنتم أيها الشباب تُحبون اللهو أكثر من الجد.

أجاب تامر وعيناه لم تفارقا هدى، التي انقلب انفعاله إحرجًا وارتباكًا:

- أُقسم لكما أنني لا أمزح، ولو قبِلَت هدى سأطلب يدها حالًا من والدها.

- تفحصت سمر سيارته بعينين مندهشتين وسألته بابتسامة حالمة:

- ما اسمك أيها الشاب؟

أجابها بصوتٌ واثق:

- تامر حمدي، وعمري ثلاثون سنة.

- هل تلك السيارة ملكك؟!
- نعم هي لي، وأنا أعمل في مجال الطبع والنشر.
- جميل جداً! ربما تأخذنا بجولة في سيارتك الفارهة يومًا ما!

لم تتمالك هدى أعصابها من هذا الحوار، ورمقت تامر بنظرات تأفُفٍ، ثم قالت له وهي تَلكِزُ صديقتها الثرثارة؛ لتُرغمها على السكوت:

- المعذرة أيها الشاب، لا يمكن أن أطيل الحديث معك أكثر فأنت تُضيعُ وقتك مع فتاةٍ مخطوبة.

نظرت إليها سمر باستغراب، وقالت متسببة بإحراج لم تقصده:

- وهل خُطبتي دون إخباري؟

ضحك تامر حتى ظهرت نواجذه، وقال وهو يرسل كلماته مباشرة إلى عيني هدى بثقة عارمة:

- لقد سألتُ عنك بعض الطلاب فأخبروني أنك لستِ مُرتبطة رسميًا، ولا أظنُ ذلك المدعو أحمد قد يتشجع ويتقدمُ لِخطبتك قريبًا؛ فهو لا يزال طفلًا غرًا ويحتاجُ لسنوات لكي ينضُجَ ويُصبِح رجلاً.

هنا لم تتمالك سمر نفسها فانفجرت ضاحكةً بهستيريا عجيبة.

غَضبتْ هدى من كلامه وضحكات صديقتها فتخلّصت من قبضتها التي تُحيط مرفقها، وانسحبت حزينةً من المكان وقد تلألأت عيناها بالدموع.

عَزفَ النّدمُ بأوتار قلبه فلم يقصد أن يَجرحها، حاول إيقافها، لكنها اختفت بسرعة وسط جحافل الطلاب تَتبعُها صديقتها التي لم تتمالك نفسها بعد من الضحك، فعاد أدراجه وهو يعضُّ شَفته حسرةً على تضييعه تلك الفرصة الثمينة.

****

داخل سيارة الأجرة التي استقلتها الصديقتان، داعبت سمر بأصابعها خصلاتِ شعر صديقتها الأسود وقالت:

– ما بالك يا هدى ساكتة لاتنطقين منذ ركوبنا؟

أجابتها معاتبة دون أن تلتفت إليها:

– كل ما حدث قبل قليل في الجامعة وتسألينني ما الأمر؟

هزت كتفيها باستغراب ثم قالت:

– إنه أمر عادي أن يُعاكِسك شابٌ، فأنت فتاة شابةٌ وجميلة.

– كفى مُزاحًا يا سمر، ألم تلاحظي أنه يَعرِف اسمي واسم أحمد؟!

فكرتْ سمر قليلًا ثم قالت:

– ربما يَعرِفُك عن بُعد أو يَعرِفُ حبيبكَ الغبي الذي لا يُغلِقُ فمه أبدًا، ألا تُلاحظين أن الجامعة بأسرِها تدري عن علاقتكما؟

شَردَت قليلا وهي تُفكر ثم قالت:

- ما يؤلمني حقًا هو أنه وَضعَ إصبعهُ على الجُرح، ألم تُلاحظي استهزاءه بي عندما أخبرته أني مخطوبة؟

فكرَت سمر قليلًا ثم أجابتها:

- صراحة هو لم يستهزئ بك أَنتِ، بل بحبيبك الأخرق، ولا تُنكري أنه على حق، فأحمد لايزال صبيًا غِرًا.

أمالت سمر رأسها نحو هدى، ووضعت يدها بين كفيها وأردفت وكأنها تُحاول استعطافها:

- ذلك الشاب يبدو شخصًا جيدًا، ثم ألم تُلاحظي أنه وسيم وجذاب؟ والسيارة التي أتى بها إنها تُفقد أي فتاةٍ عقلها! أنا أرى أن تمنحيه فرصةً وتبتعدي عن المدعو أحمد.

نظرت إليها هدى بتذَمرٍ وأجابتها:

- أنتِ تعلمين جيدًا أنني لا أُعيرُ اهتمامًا للأشكالِ أو الماديات، ثم أنني أُحب أحمد رغم تصرفاته الصبيانية ومشكلاته التي لا تنتهي، سكتت قليلًا ثم أردفت:

- ما تُطلبينه مني هو المستحيل بعينه، فأنا لن أتخلى عن حُب حياتي من أجل شخصٍ آخر مهما كانت الظروف.

قالت سمر وقد قطَّبت حاجبيها:

- أحمد لا ينقصه المالُ ليتقدم لِخطبتك، وقد وعدك منذ سنة أن يزُور منزلكم ليطلُبَ يَدكِ لكنه كُل مرّةٍ يُخلِفُ وعده معك، ويَختَلِقُ أعذارًا جديدة، إنه شخص تافه وعديم المسئولية، وأنا لم أستوعب بعد كيف تحبين شخصًا مثله.

- أعلم أن زلاتِه عديدة، لكنه دائمًا ما يَعودُ إلى صوابه ويعتذِر، وقد وعدني وعدًا قاطعًا أنه سيُحضِر والديه ويأتي إلى منزلنا الشهر المقبل.

حرّكت سمر رأسها غير مصدقةٍ لكلام صديقتها وقالت:

- ذلك الغبي لا يمكنه تَحمل الزواج ومسئولياته التي لا تنتهي.

أجابتها هدى بغضب:

- ألن تتوقفي عن سبِّهِ كلما ذكرتُ اسمه؟ ستريك الأيامُ أنني على حق.

زَفرت صديقتها وهي تقولُ بضجرٍ وقد أسندت رأسها إلى الكرسي:

- كلما ذَكَرتُهُ في موضوعٍ تُؤكدين لي أنه سيتغير، ولكنني لم ألاحظ شيئًا جديدًا إلى حد الساعة!

وَصلَ التاكسي إلى وجهته، ودَّعت كل منهما الأخرى، واتجهت هدى إلى منزلها وعَقلُها لم يتوقف عن التفكير فيما حدث، لم تذُق شيئًا من طعام العشاء ودلفت إلى غرفتها المُنعزِلة وسط ذهول والديها اللذين اعتادت أن تُجالسهما كل ليلة، أقفلت عليها البابَ وأمسكت بهاتفها المحمول لتتفقد علبة الرسائل مرة أخرى، لا أثر لأي رسالةٍ من أحمد، منذ أسبوعٍ لم يَظهر في الجامعة ولم

يُحمِّل نفسه حتى عناءَ مُكالمتها، حَاولت الاتصال به لكنه لم يُجبها كعادته، تنهدت في صمتٍ ثم توجهت بنظراتها نحو المرآة فلم تَجِد سوى ملامحَ مرهقةً من البُكاء والألم، وتذكرت أنها كانت تسهر طيلة ليالي الأسبوع متوسدة أحزانها تنتظر أن يَعطِفَ عليها باتصالٍ أو على الأقل أن يبعث لها رسالة نصية.

ضمت إلى صدرها دُميةً صوفيةً أحضرها لها في عيد ميلادها الأخير، واضطجعت في فراشها محاولةً النوم لكِن الأرقَ أمسى رفيقها تلك الليلة أيضًا.

****

في اليوم التالي وأمام أحد المقاهي المعروفة بالمدينة ركن تامر سيارته ليُراقب أمرًا مُهمًا، شعر للحظاتٍ بأنَّ صوتَ المُغنية على المذياعِ يتحول إلى نعيقٍ يُؤذي الأذُنَ بأغنيةٍ طربيةٍ مُستفزّةٍ تَحمِلُ أهدافًا سياسيةً أكثر منها فنية فأسكته، فَتحَ زُجاجَ النافِذة قليلًا ودقّقَ النظر في المقهى الذي رَكنَ سيارته بقربها مُنتظرًا خُروجَ أحمد الذي دخل قبل نصف ساعة.

أسند رأسهُ على ظَهرِ المقعِد وبدأ يَنقرُ بأصابع يده على المِقودِ بعصبيةٍ جارفةٍ وهو يتفقدُ ساعة معصمه بين الفينة والأخرى، مرتِ الدقائقُ بطيئة وكأنها ساعات فبدأ يَفقدُ أَعصابه.

بعد دقائق غادر أحمد المقهى ترافقه شابةٌ حسناء، ودّعَتهُ بحنانٍ مبالغ فيه ثم استقلت سيارة أجرة، رَكبَ بدوره سيارته الفارهة من نوع نيسان رباعية

الدفعِ وغادر، أدار تامر مفتاح سيارته بسرعة وكأنه يُقارِنُ قوة المحركات ثم قَاد خلفهُ سريعًا مُخترِقًا الشوارع.

على بعد كيلومترين توقف أمام إحدى الفيلات الفاخرة، بعد مُدةٍ وجيزة خرجت فتاةٌ شقراء جميلة الوجه وممشوقةُ القامة وركِبت معه السيارة، هَمس لها أحمد في أذنها بكلماتٍ غير مفهومة فانفجرت بالضحك ثم انطلق يكسِرُ سكون الحي بصوتِ مُحرِّكه القوي.

دوّن تامر اسم الشارع ورقم المنزل، منذ التقى أحمد صُدفةً في أحدِ المقاهي الفاخِرة بصُحبةِ إحدى الفتيات وهو يَتعقبُهُ مُحاولًا رَصد أي تفصيلةٍ تُمَكِنهُ من الإِطاحة به، في كل مرة يجده مع فتاةٍ مُختلفة، في الأول حَسِبهُنَّ صديقاتٍ له فقط، فكيفَ لشابٍ تُحِبُهُ فتاةٌ رائعة مثلُ هدى أن يتجرأ ويَخونها؟! لكن سرعان ما تأكد له عكسُ ذلك، فقد اكتشف أنه زيرُ نساءٍ من الطراز الرفيع زيادةً على إدمانه للمُخدرات...

فَركَ رأسه وهو يُفكر في كميةِ المعلومات التي يُمكِنُ أن يجمعها الشخصُ باستعمال النقود، فإكراميةٌ سخيةٌ لنادلٍ أو حارسٍ للسيارات كانت كفيلةً بمده بكلِ المعلوماتِ التي يريد الوصول إليها.

أصبح متأكدًا أن ذلك الشاب يتلاعبُ بمشاعر هدى ولا يُحبها، وقد كان يريد إخبارها بحقيقته عندما التقاها بالأمس، لكنه كان متأكدًا أنها لن تُصَّدِقَه، كيف تَفعلُ وقد التقته تواً؟!

ضرب المقود بيده بعصبية قائلاً:

- "يجب أن تبتعد هدى حالًا عن ذلك الحقير فهو لا يَستحِقها، حتى ولو لم يكُن حُبها مُقدرًا لي، سأفعلُ ما بوسعي لكي لا يخدعها ذلك المعتوه على الأقل".

فكّرَ ملِيًا فيمن يُمكن أن يُساعده لإقناعها بما تَوصّل إليه من استنتاجات، فهداه تفكيره إلى سمر صديقتها المقربة بعد أن لَمَسَ فيها لِينًا وتعاطفًا بالأمس، ومع قليل من الحظ ربما تَكرهُ أحمد أيضًا ويُمكنها أن تقدم له يد المساعدة أن كَشفَ لها عن حقيقته.

في اليوم التالي ذهب إلى الجامعة صباحًا للقاء سمر، بحث عنها في كل المرافق حتى اهتدى إليها جالسةً داخل المقصف تُدردِشُ مع زميلاتٍ لها، دنا منها بهدوء واستأذنها بلباقة أن يجلس قُربها، تطلّعت إليه باندهاش ثم سمحت له بالجلوس وهي تسأله:

- ألست ذلك الشاب صاحبَ السيارة الجميلة الذي أستوقفنا أنا وصديقتي قبل يومين وأردت التقدُمَ لِخطبتها؟

أجابها والخجل بادٍ عليه:

- نعم، هو أنا بالذات.

ضحكت قليلًا ثم قالت:

- ما الذي جاء بك مرة أخرى؟

عدّلَ جلسته على المقعد الخشبي بجوارها ثم قال:

- لقد جئتُ خصيصًا لرؤيتك، أريد أن أتحدث إليك في موضوع مهم يَخُّصُ هدى،

قاطعته قائلة:

- ألم تُخبرك أنها تُحب زميلها وسترتبط به قريبًا؟!

أجابها تامر:

- لهذا جئت لرؤيتك اليوم، أنا أريد منكِ مُساعدتي في كَشفِ حقيقتِهِ لها فأنتِ صديقتُها المُقربة وتريدين مَصلحتها مِثلي تمامًا، ذلك الشابُ الذي تُحِبهُ مُدمنٌ وسافل، ولكي أَصدُقَكِ القولَ فأنا أُراقبه منذ فترة وفي كل مرةٍ يُواعِد فتاةً مُختلفة، سَكتَ قليلاً؛ ليتفحّصَ نظراتِها ثم قال مُضيفًا:

- أنا أعرف أنه ليس من حقي التدخلُ أو مراقبةُ الآخرين، أقسم لك أنني لم أكن أريد سوى الاطمئنانَ عليها قبل أن أرحل عن حياتها في هدوء، لكنني اكتشفتُ أن مَن تُحبُهُ شخص غير صالحٍ وستتجرع معه الألم والعذاب؛ لذلك أنا مضطر للتدخل.

أنصتت إليه باهتمام ثم أراحت ذقنها إلى قبضتها واستندت إليها وحملقت فيه للحظاتٍ قبل أن تقول:

- أنا لا أخفيك سِرًا أيها الشاب، فأنا لا أُطيقُ ذلك المُتعجرف وأعرفُ الكثيرَ من مغامراته الماجنة قبل أن يتعرّفَ على هدى، لكن ليس باليد حيلةٌ! فهي فتاةٌ عنيدةٌ وقد أعمى الحبُ بصيرتها ولم تَعد تُصغي لكلام أحد.

احتل صمتها فترة طويلة ثم استطردت:

- حسنا...! ربما معك حق، يجب أن نَفتحَ عينيها على الحقيقة، هدى صديقتي ولن أقبل أن يستهزئ بها شخص تافه، لذلك سأساعدك!

ابتسمت وهي تكمل:

- أنت سعيد الحظ أيها الشاب، فقد ارتاحت نفسي لك وأعتقِدُ أنك تُحبُ هدى حقاً، ملامحِكَ وطريقةُ كلامِكَ عنها وغيرتُكَ الجارِفةُ تُوحي بذلك.

ما إن أكملت سمر كلامها حتى وقفت هدى أمامهما مباشرةً وفي عينيها نظرةٌ صارمة مُوجهةٌ لكليهما، فتجمدت ملامح سمر للحظات بينما أطرق تامر رأسه خجلاً.

وجهت إلى سمر نظرات عتابٍ قبل أن تسألها:

- أين اختفيت منذ الصباح ؟ لقد سَئِمتُ من البحث عنك في كل مكان.

التفتت إلى تامر ثم أكملت بغضب:

- وأنت، ما الذي تريدُهُ الآن من صديقتي؟ ألم أَطلُب منك تَركنا وشأننا؟

تَلعثمت الكلماتُ في فم تامر فتدخلت سمر لتُنقِذَ الموقِفَ، وقالت مُخاطبةً هدى بصرامة:

- لقد جاء للجامعة لِمُقابلتي، وقد أطلعني بأمر مهم يَخُصُّ أحمد ويجِبُ أن تعرفيه.

في تلك اللحظة زاد انفعال هدى واحتقن وجهها وهتفت بنبرة تهديد:

- اسمع يا هذا، أليس لديك عقلٌ تهتدي به؟ سأكون صريحةً معك جدًا، أنا لا أريد معرفة أي شيء منك أو من غيرك، ما عليك أن تفعله هو أن تتركني وشأني.

- أجاب تامر بحنانٍ لم يعهده في نفسه:

- لا تسأليني ياهدى عن عقلي فقد توقفَ عن القيام بدوره يوم عَرفكِ وأسندَ مهمة تسييري إلى قلبي الذي يَحكُمني بالعاطفة لا بالمنطق، ويأخذني لأي مكانٍ يُريده، ولا يُريد سواك.

ابتسمت سمر إعجابًا بكلامه، ثم قطَّبت حاجبيها، والتفتت إلى صديقتها وقالت:

- أحمد زير نساء ومُدمن مخدرات، وهذا الشاب يُؤكِدُ شكوكي فقد راقبه منذ مُدة واكتشف حقيقته.

ضربت هدى كفًا بكف وقالت:

- هذا ما كان ينقُصني، تتبعني وتُراقِبُ خطيبي! أنت شخص مريض والغيرة تنهش جسدك؛ لذلك تختلقُ هذا الكلام الكاذب.

زفرت زفيرًا طويلاً، ثم أكملت بعنف:

- أحمد أشرفُ مِنك ومن أمثالك فهو على الأقل لا يتدخلُ في شئون الأخرين، نحنُ نُحب بعضنا البعض، وسيأتي لخطبتي عما قريب كما وعدني وسترى بأم عينك.

حاولت سمر تهدئة الموقف قليلاً، فقالت:

- أنا صديقتك يا هدى ولا أتمنى لك سوى الخير وأنت تعلمين ذلك جيدًا، يجب أن تستيقظي من غفلتك قبل فوات الأوان.

بدأ الغيظ يُقَطِّعُ قلبها فأشاحت بوجهها عنها، الشكوك تكبر في عقلها لكنها كتمت شعورها أمامهم، وانسحبت من المكان مغلوبة على أمرها.

نظرت سمر بحسرة إلى صديقتها وهي تغادرُ وقالت مخاطبةً تامر بأسف:

- مسكينة هدى لقد أصبحت أكثر عصبية وأقل مرحًا منذ أحبت ذلك المعتوه، هي عنيدة جدًا ولا تقبلُ أن يَنتقِدَ أحدٌ خياراتها.

تنّهدَ تامر تنهيدةً عميقةً وقال وقد رسم ملامحَ الخيبةِ على وجهه:

- الزمن كفيلٌ بكشفِ حقيقته لها، ما أخافُ منه فقط هو أن يفوتَ الأوانُ ويُحطِّمَ ذلك النذلُ فؤادها قبل أن تستيقظَ من غفلتها.

أطرقت برأسها وهي تقول بأسف كبير:

- أتمنى ذلك أيضًا.

وضعَ تامر يده في جيبه وأخرج بطاقة الزيارة الخاصة به ومدها إلى سمر وهو يقول:

– اتصلي بي من فضلك إن استجد أمر ما!

ابتسمت سمر، وسألته بحنانٍ وقد بَرقَت عيناها وهي تنظُرُ بفضولٍ لبطاقته:

– هل تُحبها حقا أيها الشاب.

أجابها وقد احمرت وجنتاه خجلاً:

– أنا لا أُحِبها فقط، بل أتنفسُ عِشقَها.

وبتلك الكلماتِ ودّع تامر سمر التي ذهبت لتبحث عن صديقتها، وتولى عائدًا من حيث جاء.

اتجهت هدى إلى مكانها المُفضل في الحديقة وجلست على المقعد الحديدي شاردة الذهن تَبكي وتُفكر فيما سمعته، فقد عَبث كلامُهما بعقلها بالفِعل واستعادت تدريجيًا شريط ذكرياتها مع أحمد؛ كان حنونًا ووديعًا عندما تعرّفت عليه أول مرة لكنه في الأشهرِ الأخيرةِ تعدّدت هفواتُه وزلاّته، حتى فَنُ الاعتذار الذي كان يُتقِنه لم يعدُ يستعمله... سألت مخاطبة نفسها:

"هل يُمكِنُ أن يكون كل ما يقولونه صحيحًا؟ هل أنا حقًا ساذجة وأُضحى بحياتي من أجل شابٍ لا يُكلِّفُ نفسه عناءَ الاتصال بي؟

أخرجت بتردُدٍ هاتفها من جيب حقيبتها، فكرت قليلاً، ثم ضغطت بعصبيةٍ على أزراره لتتصل به، وضعته على أذنها بارتجاف منتظرة الرد.

بعد محاولتين فاشلتين أجابها أحمد أخيرًا بصوتٍ ثقيلٍ مُشبَعٍ بالتثاؤب.

– مرحبًا هدى ما الأمر؟

أجابته بنفاذ صبر:

- أنت لم تتصل بي منذ أيام وتسألني ما الأمر؟

أجابها بكسلٍ محاولًا إنهاء المكالمة بسرعة:

- أنا مُتعب جدًا ولا أستطيع الكلام، هل يُمكننا تأجيل هذا الحوار إلى وقت لاحق؟

شعرت بغيظٍ شديدٍ، وقالت بصرامة وهي تنهي المكالمة:

- أريد أن أراك غدًا، تعال إلى الجامعة الساعة الخامسة،

سَكتَتْ قليلًا ثم أردفت:

- إن لم تأتِ فاعتبر أن كل شيء بيننا قد انتهى،

- وأقفلت الخط....

امتلأت عيناها بالدموع وأخدت هاتفها لتكتُبَ على حائطها في الفيس بوك كما اعتادت كُلما شعرت بالإحباط يتسلّلُ إليها:

الحب خُلِقَ ليجعلَك سعيدًا، لتحتضِنَ الحياة وتنسى كُلَ أحزانك ومخاوفك وتعيشَ مُطمئنًا سالمًا بين أحضانه، لكن عندنا يتمرّدُ عليك الحُب،عندما يؤلمك كل شيء حتى دقاتُ قلبك، عندما تعيش في الشّكِ والألم والارتياب ويتجاهلُكَ من تحبه تاركًا إياك وحيدًا تتجرّعُ ألم انتظاره، عندما تَفقدُ رُوحُكَ قُدسيتها وتُصبح كَرامتُكَ لُعبةً في يد من لا يَستحِق، عندها فقط تخلّص دون تفكير من ذلك العشق الأعوج وعانق النسيان بكل جوارحك، فهو أَقوى

بَلسمٍ تُشفي به جراحك، وتَحفظُ به كرامتك، حينها فقط ستعودُ حُرًا طليقًا كيوم ولادتك قبلَ أن تُصفِّدَكَ غصبًا قُيودُ العِشق بسلاسل من سرابٍ خادع.

****

في الساعة الخامسة من اليوم التالي ركن أحمد سيارته أمام بابِ الجامعة مُنتظرًا خروج هدى، نظر بحذرٍ إلى يمينه وشماله ثم أَخرجَ من جيب سرواله كيسًا صغيرًا شفّافَ اللّونِ مَخفِيًا بعناية، فتحَهُ بأطرافِ أصابعه ثم أخذ حفنةً صغيرةً من بودرته البيضاء ووضعها بخط مستقيم على يده ليستنشقها بلهفة، أحسَّ بقشعريرةٍ تسري في جسده وغمرته نشوة عارمة، ابتسم فرحًا لارتفاعه لأعلى العليين دون استعمال مِصعدٍ أو درج، أسند رأسه على المقعد وأخرج من جيبه عُلبة سجائر أجنبية الصَّنع، أخذ سيجارتين ودخّنهُما بشراهةٍ فغمر دخانٌ كثيفٌ السيارة.

أنهت هدى مُحاضرَتها وخرجت على عجلٍ مُتجاهلةً اتصالات سمر المُتتالية، توجّهت نحو سيارة أحمد المركونة في مكانها المألوف، ثم انسابت بسرعةٍ إلى داخلها دون أن تَنبِس بكلمةٍ واحدة وقد قطَّبت حاجبيها.

أمال برأسه ناحيتها لتقبيلها كما اعتاد لكنها أشاحت بوجهها عنه بغضبٍ وقد ضايقها الدُخانُ الذي إجتاحَ السيارة، أغلقت أنفها بيدها ثمَ تلَمستْ أَزرارَ السيّارةِ بيدها الأخرى باحِثةً بيأسٍ عن زر فتحِ النافذة؛ لتَجلِبَ بعضَ الهواءِ إلى صدرها المُختَنِق.

تدخّلَ هو يضغط بخِفَةٍ على الزر المُناسبَ ليفتحَ الزُجاج أوتوماتيكيًا ثم أدار مِفتاحَ السيارةِ وانطلق مُتجهًا نحو المقهى الذي اعتادا الجُلوسَ فيه.

كان المكانُ بعيدًا والوقت قد تأخر فقرّرَ أحمد أن يَسلُك طريقًا ساحليًا مُختصرًا رغم خُطورته وخُلوهِ من السيارات والمارة.

قاد السيارة وهو مُنتَشٍ وروحه تتطاير دُخانًا يُحلِّقُ في السماءِ بغير حدود، رَسم على وجهه ابتسامةً غريبةً وقال مُحاولًا جذب أطراف الحديث معها:

- كيف حالِك يا حبيبتي؟ لقد اشتقت إليك كثيرًا!

أجابته بنبرةٍ استجوابٍ دون أن تَنظُرَ إليه:

- أنت لا تَرُدُ على مكالماتي منذ أيام، لو كُنتُ حبيبتك فعلًا لَكُنتَ سألتَ عني.

ابتلع ريقه بصعوبة وهو يُجيبُها بارتباك:

- كُنتُ مشغولًا في عملٍ مُهم مع والدي.

قالت له وكأنها لم تَقتَنِع بجوابه:

- هذه لَيْسَت أَولَ مَرّةٍ تَفعَلُ ذلك، تَختَفي لأيامٍ ثُم تَعودُ لِتَعتذِرَ بِحُجَجٍ واهية.

تَحوّلَ ارتباكُهُ إلى عصبيةٍ مُفاجِئةٍ وقال:

- ليس من شأنِكَ معرفةُ مكان وجودي فنحنُ لم نَتَزوّج بعد لِتلعَبي معي دور المُحقِّق.

نَظرت إليه بدهشةٍ تطلب فِيها بصمتٍ تَفسيرًا لكلامه القاسي، لكنه لم يُعَقِّب فقالت:

- هل لازِلتَ تُحِبُني حقًا يا أحمد؟

أجابها بخُبثٍ ملحوظٍ مُتخبطًا بين الكلمات:

- نعم بالطبعِ أُحبك، لكن تَدخُلُكِ المُستمر في شئوني وثَرثَرتُكِ الزائدة عن حَدِها تَجعَلُني أتفادى اللّقاءَ بِكِ.

بدا عليها الذّهول من طريقة تفسيره وقالت:

- أنا أَتدخَلُ في شئونك فَقطْ لأصلِحها، لأجعَلَ مِنكَ رَجُلًا حَقيقيًا وتَتخلّصَ من عاداتك السافِلةِ تلك.

انتبهت إلى عينيه الحمراوتين بشكل مريب فتوقفت عن معاتبته وقالت مُستَفسِرَةً:

- عيناك لا تُوحي بأنك في وعيك الكامل، هل تَناولتَ شيئًا من المَمنُوعات؟

نفى ذلك وأضاف مُحاوِلًا إخفاء انتشائه:

- لم أتنَاول شيئًا، أنا فقط لَستُ على ما يرام هذه الأيام.

وَجّهَتْ أنظارها نحو بِنطاله الأسودِ فلمحت البعض من بقايا بُودرةٍ بيضاءَ منثورة عليه فدسّت يَدهَا بَغتةً في جيبه لتُخرِجَ منه كيسَ مُخدراتٍ صغيرًا،

تسمّرتْ كالصّنَمِ في مكانها من هَوْلِ الصدمة، ثم قالت بصوتٍ مُرتَفِعٍ وقد اختلَطَ حديثها بدُموعها:

- منذ متى وأنتَ تتعاطى هذه الأشياءَ يا أحمد؟

أجابها وقد تَمَلّكَهُ الارتباك:

- هي لَيستْ مِلكي إنها لأحدِ أصدقائي نَسيها في السيارة وسأُعيدُها له.

نظرت إليه طويلًا غير مُصدِقةٍ لكلامه، ثم جَمعت أنفاسها وقالت بنفادِ صبرٍ:

- ذلك الشابُ على حق، سمر على حق، كُلهم كانوا يَرَوْنَ حقيقتكَ إلا أنا فقد أعماني الحُب والوعودُ الكَاذِبة وكُنتُ أُمَني النّفسَ أنك ستتغيرُ يومًا ما لكنك للأسف شخصٌ تافه، وميئوس منه.

حاولت فتحَ بابِ السيارة بكل قوتها وهي تَأمُرهُ بالتَوقُفِ لَكنه أبى وأمسك ذراعها بقوة حتى كاد يَكسِرُها وهو يقول:

- عن أي شابٍ تتحدثين؟ ومَن يَمتَلِكُ الجُرأة ليُشكِكَ في رُجولتي، أنا رجلٌ رُغمًا عنك أنتِ وصديقتُكِ سليطةَ اللسانِ والمزهوةِ بنفسها.

ثَارت هدى وجَمعت قواها في صفعةٍ قويةٍ واحدةٍ اختزلت بها كُل أيامِ الانتظارِ والأملِ الزائف وجهتها إلى وجهه مُباشرةً وهي تصرخ:

- أنا لا أريد رؤيتك بعد اليوم، أنزلني هنا وأنسى أنك عرفتني في يومٍ من الأيام.

رفض التوقف فأمسكتِ المقود بيدها مُحاوِلَةً إيقاف السيارةِ بِنفسِها لكنه انفلَتَ فجأةً فانحرفت عن الطريقِ المُعبدَة، وانطلق بغتةً صوتُ مكابِحِ السيارة وهي تتوقف.

كان الطريقُ خاليًا والليلُ بدأ يُدلي بستارِه الأسود. ترجّلَ أحمد من سيارته وقد أعماه الغضب، فتح بابَها الأمامي وجرّها من شعرها إلى الخارج وهو يصرُخُ ويُزمجِر:

- لن ترحلي قبل أن آخذ حقي منك، الوقتُ الذي ضيعته معك صابرًا على ثرثرتك الزائدة وشكواك التي لا تنتهي.

صُدِمتْ هدى لتلك الكلماتِ وارتعدت فرائِصُها، فحاولتِ الانسلاخ من بين يديه والهرب إلى الخلاء فلم تقدر، فَتوسلت له أن يترُكَها ترحَلُ لكنه كان كالأصم لا يُنصِتُ لِكلامِها أبدًا، أسقطها أرضًا بِعنفٍ وحاول تقبيلها فدفعته بيديها الضعيفتين وبَصَقَت في وجهه، زادت حِدَّةُ غضبه فثار عليها ثورةً هوجاء وصفَعهَا صفعاتٍ مُتتالية على وجهها الملائكي دون شفقةٍ أو رحمة.

سرى صرير حادٌ في أذنيها وتجمدَت في مكانها لثواني من قُوة الصّفعاتِ وكأن الزمن توقف بها للحظاتٍ وبدأت تنظُرُ إليه غيرَ مُصدقةٍ لما يفعله حبيبها، فقد تغير لونُ عينه وأصبح أحمرًا كذئبٍ مُستعر، تَخَدَّرَ كُل جسدها وخارت قواها ولم تَعُد تَعي ما حولها، فقدت إحساسها كُليًا وبدأت تغيب

عن الوعي تدريجيًا، كل شيء يَختفي أمامها ويَحِلُ مكانه ظلامٌ دامسٌ وكأن القَدر لا يُريد لِعينيها أن تشهدا بشاعة ما يتعرّضُ له جسدها.

****

صباح اليوم التالي داخل مطبعته جلس تامر مُسنِدًا ظهره على الكرسي وهو يَتأملُ مجموعةً من السير الذاتية لشبان تقدموا لِطلَبِ العمل في المطبعة.

تحرّكَ هاتفه النقالُ فوق الطاولة مُهتزًا حتى لامس كوب القهوة الموضوع بقربه فأمسكه بحذر وهو يتفحصُ الرقمَ الغريب الذي يتصل به، ضغط عل زر الإجابة فسمِعَ صوتًا أنثويًا خافتًا يقول بتردد:

- مرحبًا، هل هذا رقم السيد تامر حمدي؟

أجابها باستغراب:

- نعم إنه أنا، من المُتصل؟

- أنا سمر صديقة هدى في الجامعة.

اضطرب تامر وهو يُنصِتُ بتمعُنٍ لصوتها، وانتابه قلقٌ رهيبٌ بعد أن حلت لحظاتُ صمتٍ مُهيبٍ خلف السماعة، ثم تكلّمت بنبرةٍ حزينةٍ قائلة:

- لقد كُنتَ على حق يا تامر فذلك المدعو أحمد نذل كبير.

ارتعبت فرائصه وقال بانفعال:

- ما الذي حدث يا سمر أخبريني حالاً.

قالت بصوت يشبه بالبكاء:

- كارثة يا تامر، لقد اغتصب أحمد هدى وهي الآن في المستشفى.

ارتجفت يده حتى سقط الهاتف منها وانتابها ما يشبه الشّلل المؤقت، ثم ما لبث أن استعاد انتباهه فحمل الهاتف مرة أخرى ليُلصقه بإذنه وهو يصرخُ بقلق:

- في أي مُستشفى هي الآن؟

أخد قصاصة ورقٍ ودوّنَ الاسم مُتجاهلًا توسلات سمر التي حاولت إقناعه بعدم الحضور، أغلق الهاتف في وجهها بعد أن امتزج شعوره بالانكسار مع غضبٍ عارمٍ اجتاحه، فضربَ مكتبه بقبضته بكل قوة حتى احمرت يداه، ثم غادر وهو يُزمجِرُ ويتخبّطُ بالأثاثِ مُتجاوزًا الرواق بينما تتبعه أعين العُمالِ المستغربين.

رَكب سيارته واتجه نحو المستشفى وكل خليةٍ في رأسه تستحضرُ معاناته مع جده عندما كان مريضًا، وذلك الألمَ المريرَ الذي عاشه، شعر بذنبٍ فظيع ينهشُ قلبه فكلُ من يُحبُهم يتعرضون للأذى، تلاحقت الأنفاسُ في صدره عند وصوله للمستشفى فبحث عن سمر في الأروقة المُمتدة وهو يُفكر بالانتقام من أحمد مهما كلفه الثمن.

أمام إحدى الغرف لمحَ شريطيين ببزتهما الرسمية، بينما جلست سيدةٌ خمسينية أرضًا تبكي وسمر بجانبها تَربِتُ على كتفها وتواسيها.

توجه نحوهم تامر بخطوات سريعة فانتبهت إليه سمر ونهرته بعينيها فتراجع إلى الخلف متداريًا خلف الحائط، قامت إليه مستعجلةً وجرته من يده إلى إحدى الغُرَفِ الخالية، وقالت له بصوتٍ منخفضٍ وقد كفّفَت دموعها:

- ألم أطلب منك ألا تأتي إلى هنا؟ هدى لا ينقُصُها مشكلة أخرى الآن.

فعاجلها بحزم:

- أنا لا أستطيع أن أصبر يجب أن أراها حالاً، أن سألكِ أحدٌ عن هويتي فأخبريه أنني زميلكم في الجامعة، قولي لهم أي شيء، فقط يجب أن أراها؛ فأنا لا أتحمَلُ الانتظار أكثر من ذلك.

قالت له وهي تُشير إلى الخارج:

- والدها في الغرفة ومعه ضابط شرطة يأخد تصريحاتها، أتريد لها فضيحةً أكبر من هذه الفضيحة التي تعرضت لها؟ بماذا سأخبرهم إن رآك أحدهم تَدخل إليها؟

احتقن وجهه بالدماء وقال بصوتٍ عالٍ وهو يعضُ على شفته السفلى حتى كاد يدميها:

- وأين ذلك الأخرقُ أقسم أنني سأقتله اليوم.

وضعت كفها على فمه لتسكته وقالت بصوت خافت:

- إنه في مركز الشرطة، لقد سلّمَ نفسه مباشرة بعد أن فعل فعلته، لقد أخبرهم في التحقيق أنه تناول كمية كبيرة من المخدرات ولا يتذكرُ ما فعله، هدى أيضًا أَكدت أنه لم يكن على طبيعته.

سكتت قليلًا ثم أضافت بعد أن أحنت رأسها بأسف:

- لقد حدث ما كنتُ أخشى دومًا وقوعه ونهش ذلك الذئب جسدها.

توسل إليها تامر أن تساعده لرؤيتها، فطلبت منه النزول للجناح الرئيسي وانتظار فرصته عندما يُغادِر الجميع.

جلس على المقعد ورجلاه تهتزان من فرط القلق وهو ينتظر، نَسقُ نفسه يتسارَعُ والدم يتدفق في عروقه بغزارة وأصبح كالثور الهائج لا يرى إلا اللون الأحمر، واستولت عليه حالة مريرة من الغضب والحقد.

بعد دقائق غادر والد هدى برفقة الضابط متوجهين إلى مخفر الشرطة لاستكمال التحقيق، ثم بعدها بقليل أرسلت له سمر رسالة نصية تخبره أنها ستذهب برفقة والدة هدى إلى المنزل لإحضار بعض الأغراض وستغيبان لمدة قصيرة.

انتظر تامر بفارغ الصبر خروجهما ثم صعد بسرعة إلى غرفة هدى وأغلق الباب خلفه بهدوء.

كان المكان مظلمًا، مشى نحوها بخطوات بطيئة، كانتْ مستيقظة تنظر إلى النافذة المفتوحة عن يمينها وشاردة في الفراغ، سمع نشيجًا خافتًا قادمًا من

جوفها تألم له قلبه وروحه، فنطق كأنه يَهمسُ بصوتٍ منخفضٍ لكي لا يُفزِعها: "كيف حالك ياهدى؟"

التفتت إليه وأنارتِ الغرفة فصُدِمَ لما تراه عيناه، أثر كدمة قوية طُبِعت على عينها اليسرى بينما لفَّ الأطباءُ رأسها بضماضاتٍ ليُخفوا جُرحًا غائرًا سببته لها ضربةٌ قوية، عينُها اليمنى السليمة لم تبدو أحسن حالًا من شقيقتها؛ فقد انطفأت بالبكاء المُتواصل، أما فمُها فكانت في زواياه التواءة الألم المألوفة تلك التي تراها عند المحكومِ عليهم والمرضى بداءٍ لا شِفاءَ منه.

نظرت إليه مُطولًا فعرفته ثم قالت بصوتٍ بطيء متثاقل وعينين دامعتين:

- هل هذا أنت مجددًا؟ هل جئت لتشمت بي وتخبرني أن كل ما كنت تقوله كان صحيحا؟

أجابها بصوت شاجنٍ وقد أطرق رأسه حُزنًا:

- لا يُمكِنُ لأحدٍ أن يَشمَتَ بنفسه وأنتِ جُزءٌ من نفسي ياهدى حتى قبل أن تعرفيني، أُقسِمُ أن الألم الذي يَنهَشُ قلبي الآن يُضاهي ما تشعرين به أو أكثر، توقفي عن البُكاء أرجوك فأنا لا أُريدُ لعينيك الجميلتين أن تذرفا دُموعَهما الغالية وأنا حَيٌّ أتنفس.

زلزلتها كلماته الرقيقة فانفجرت بالبكاء مُجددًا وهي تقول:

- لقد خَسرتُ كل شيء، شرفي، حياتي ومُستقبلي، أشعر وكأن سيفًا قاطعًا يمزق كياني من الداخل، حتى والداي لا أستطيعُ النظرَ في وَجهيهما فألمِسَ

خيبةَ الأملِ؛ فقد خُنتُ ثِقتهُما وتعلّقتُ في السِّرِ بشابٍ مدمنٍ سلبني أغلى ما أملك.

وضع يده فوق يدها المُمددةِ وقد لمعتْ عيناه في عزيمةٍ وإصرار وهو يَقول:

- لا عليكِ حاولي أن ترتاحي الآن وأُقسِمُ لكِ أن كل شيء سيعودُ أحسن مما كان عليه، أنا أيضًا فقدتُ كل من أحببتهم في حياتي؛ والدتي وجدي ولم أَعُد أَملِكُ في الدنيا سوى حُبكِ وأُقسِمُ أنني لن أتخلى عنكِ أبدًا.

أفلتَت يدها من تحتِ يده بُسرعةٍ، ودفنت وجهها بين كفيها وهي تَصرُخُ بهستيرية:

- لقد ضاعت حياتي، كرامتي وعفتي واحترامُ الناس لي، فقدتُ كلَ شيءٍ، حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا أحمد.

دخلت إحدى الممرضات الغرفة على عجلٍ بعد أن سمعت صُراخها فطلبت من تامر المغادرة وأعطتها حُقنةً مُهدِئةً لترتاح.

غادر المُستشفى وجسده يَرتجِفُ غضبًا ورَكِبَ السيارة، أمسك هاتفه واتصل بسمر قائلا:

- لا يُمكنني أن أعيش وأنا أشاهد هدى تتعذب هكذا طول حياتها، لا يمكنني أن أتركها تتجرّعُ مرارةَ الاغتصابِ كل يومٍ وتتألّمُ كُلما نَظَرَتْ إلى وَجهِها في المرآة، سأُنقِذُها ولو كلفني ذلك حياتي.

حاولت سمر تهدئته لكنه طلب منها إرسال نُسخةٍ من المحضر الذي حررته الشرطة، لم تفهم قصده ورفضت في البداية لكنها انصاعت لتوسلاته ووعدته أنها ستبدل قصارى جهدها.

انتظر تامر في مكتبه والألم والحسرة ينهشان روحه، يتخيل أحمد جاثمًا أمامه ويضحك بصوت عالٍ، تمنى لو كان بإمكانه أن يخترِقَ خياله ليجُرّهُ إلى الواقع ويوسِعهُ ضربًا حتى يُشفيَ غليله.

بعد انتظارٍ مريرٍ دام لساعات استطاعت سمر بدهائها أن تلتقط صورًا للمحضر الذي يُوثِقُ أقوالَ هدى وأحمد وأرسلته إلى هاتفه، كانت صفحاته تروي الأحداث بالتفصيل، ما كان يَهُمُّ تامر هو ساعةُ حدوثِ الاغتصابِ ومكانه، قرأ تامر صفحات المحضر بِتمَعُنٍ والشرر يتطاير من عينيه ثم أَمسكَ ورقة وقَلمًا وخَطَّ الجُملَ التالية:

في الساعة الخامسة من يوم الثلاثاء التقت هدى بأحمد، ثم توجها بسيارته لمقهى الأمل، بعد دقائق انحرفت السيارة عن الطريق الرئيسي رقم ١٥ وتوقفتْ في مكانٍ صخريٍ خالٍ قُربَ المنارة المهجورة حيث تعرضت للاغتصاب، في الساعة الخامسة والنصف تقريبًا رَكِبَ أحمد سيارته وغادر المكان. ثم بعد ساعة وتحديدًا السادسة والنصف وَجدَ بعضُ الشُبانِ هدى فاقدةً الوعي فاتصلوا بالشرطة وسيارة الإسعاف.

قال تامر مُحدِثًا نفسه بعد تفكيرٍ طويل وهو يُحاولُ أن يُرتِبَ حساباته:

- "ليس باليد حيلة، يجب أن أُعيد الزمن إلى الوراء باستعمال الدعاء، رغم أنني قطعتُ وعدًا على نفسي بألا أستعمله مُطلقا لخطورته الشديدة، لكن الأمر هنا يتعلقُ بهدى، ولا يمكن أن أتفرّجَ عليها وهي تُعاني، أَملِكُ عشرين دقيقةً في الماضي لأتصرف، أفضلُ وقتٍ أعود إليه هو لحظاتٌ قبل تعرضها للاغتصاب لتكتشف بنفسها حقيقتَهُ الخسيسة، أما إن عُدتُ قبل ذلك وقُمتُ بتحذيرها مما سَيحدثُ لها فَلنْ تُصَدِقَني أبدًا.

بالأمسِ عند تعرضها للاغتصاب كُنتُ في اجتماعِ عملٍ في مكتبي مع الآنسةِ أحلام، أذكر جيدًا أنه في الساعة الخامسة بالضبط اتصل بي زبونٌ فأخبرته أنني مشغول وسأعيد الاتصال به، أنا أتذكر تلك اللحظة جيدًا ويجب أن أركز عليها عند تلاوتي للدعاء فقد أسقطت كوب ماء وتكسر إلى قطع صغيرة وأنا أجيبُ على الهاتف.

عاد إلى المطبعة وأوقف سيارته أمام بابها، شغّلَ العداد على هاتفه المحمول وانطلق كالسهم نحو ذلك المكان الذي أشارت إليه هدى في المحضر.

عند وصوله لمكان الحادث أوقفَ العداد وقال:

- "الأمر يتطلب ١٢ دقيقة وخمسين تانية لأصل، سفري إلى الماضي يدُومُ عشرين دقيقةً فقط ولن يكون أمامي سوى ثمانية دقائق فقط لإنقادها، ما أتمناه فقط هو أن الطريقَ كانت خاليةً الساعة الخامسة بالأمس لكي لا أتأخر".

عاد إلى منزله مباشرة، أعدت له الخادمة عشاءً لم يكن بحاجته، طَلَبَ منها الذهاب لزيارة أهلها وعدم المبيت في المنزل، استغربت الخادمة من عرضه وشكرته، ثم دلفت إلى غرفتها لتُوضِّبَ أغراضها بسرعةٍ مخافة أن يُغيرَ رأيه.

دخل إلى غرفته الفاخرة وأغلق عليه الباب، جلس على الأريكة الجلدية، ورفع ناظره إلى السماء متوسلًا الله أن يساعده، لم يستعمل الدعاء منذ الأحداث الأخيرة مخافة أن يؤثر ذلك على حاضره المثالي.

زفر زفيرًا طويلًا ثم تلا الدُعاء مراتٍ متتالية بأعلى صوته وتفكيره منصبٌ على لحظةِ إجابته على مُكالمة الزبون يوم الاجتماع.

بدأ كل شيء يهتز في الغرفة وشعر باللهيب الحارق في ظهره ثم اندثر الوشم وظهر الثقب الأسود، فأغمض عينيه منتظرًا انتهاء كل شيء.

فتح عينيه بصعوبة، كل شيء يتحرك ببطء، كوب الماء يوشك على السقوط، السيدة أحلام تجلس بجانب زميليها وتتحدث عن الاستراتيجية الطويلة المدى لشرِكتها الدعائية؛ شابة جميلة مُثقفة لكنها تخلط عملها بالعواطف وتحاول إغواءه منذ فترة، تتكلم الفرنسيةَ بطلاقةٍ وتترجرجُ في مشيتها محاولة استمالته لكنه لم يُعرها هتمامًا أبدًا، أمسك الكوب قبل أن يرتطم بالأرض وأعاده لمكانه، نظر إلى الجالسين حوله في الاجتماع وكأنه انتفض من شرود دام طويلاً، الهاتف يهتز في يده ورقم الزبون ظاهر على شاشته، ألقى

بنظرة إلى ساعته فوجدها تشير إلى الخامسة فشعر بفرحٍ عارم؛ قفز من كرسيه وخرج يجري دون أن ينبِسَ بكلمة واحدة وسط ذهول الحاضرين.

رَكِبَ سيارته ووضع هاتفه أمامه ليُراقِبَ الدقائق التي تمُرُّ بسرعةٍ، ثم انطلق يُسابِقُ الريحَ في الطرقات والشوارِعِ مُتجاهلًا المارة وإشارات المرور، أسرع في قيادته وهو يقوم بمناوراتٍ خطيرةٍ في الطريق مُتجاوزًا السيارات بخفةٍ ثم انحرف على اليمين ليتجاوزَ هضبةً مكشوفة بنجاحٍ وبعدها اخترق طريقًا مختصرًا أوصله مباشرة إلى الطريق الساحلي، بعد لحظاتٍ لمح المنارة المهجورة وقُربها توقفت سيارة أحمد على مسافة أمتار قليلة.

ما إن اقترب تامر من المكان حتى شاهد أحمد يُسقِط هدى أرضًا ويُوجِه الصفعاتِ لها، فداس على المكابح ثم رفع مكبح الطوارئ اليدوي فأصدرت السيارة صوتًا خلفيًا قويًا وتوقفت بثبات في مسرح الأحداث.

التقط أنفاسه وحَمَدَ الله في نفسه لوصوله في الوقت المناسب، ثم ترجلَ من سيارته ليستوي واقفًا أمام غريمه.

لم ينتبه أحمد لوصوله فقد كان منهمكًا في تمزيق فستان هدى، انقض عليه تامر بهجوم خاطف من خلفه وجره بكل قوته بعيدًا عنها، ترنّحَ أحمد إلى الوراء ساقطًا ثم استعاد توازنه، وقف الشابان وجهًا لوجهٍ وبارزا بعضهما بنظراتِ تحدٍ يكادُ ينفجِرُ من العيون وأنفاسهما تتسارعُ بشدة، ثم قال أحمد بغضب: "من أنت أيها الأخرق وماذا تريد؟"

لم يجبه تامر، اقترب منه بحذر ثم سدد له لكمة مباغتةً على وجهه جعلت الدم يَسيلُ من بين أسنانه، مَسح أحمد النزيف بطرفِ قميصه ثم انقض عليه بلكمةٍ رُباعيةٍ وأمسكه من ياقةِ قميصه وجذبه بقوةٍ نحو الأسفل ليغرز ركبته الضامرة في وجهه، فسقط تامر على الأرض مُتأوها من الألم قبل أن يلمح حجرًا قريبًا فأمسكه وانتفضَ بسرعةٍ ليضربه بكل قوته على رأسه، سقط أحمد يتأوهُ على الأرضِ وفار الدم غزيرًا من رأسه، لكن ذلك لم يمنع تامر من توجيه ضرباتٍ متتاليةٍ له بحذائه هنا وهناك وهو يبصِقُ عليه ويصرُخُ مُنتشيًا بانتصاره ويقول:

- هذا من أجل الأذى الذي أَلحقتَهُ بهدى، من أجل الذُّلِ الذي كانت ستتجرّعُهُ بسببك، وكلِ لحظةٍ ضيعتَها مع تافهٍ مثلك.

بعد أن شفى غليله تركه غارقًا في دمائه واتجه سريعًا إلى هدى الغائبة عن الوعي ليحملها بين ذراعيه ويضَعها في سيارته، وما إن أدار المُحرّك حتى انتابه صداعٌ شديد في رأسه، انتهت عشرون دقيقة، وبدأ كل شيء يهتز وعادت الدوامة مجددًا لتقتلع وعيه من جسده وتعيده للحاضر.

الحاضر:

فَتحَ تامر عينيه بِبُطءٍ وحامَ بنظره في المكان، تطلّبَ منه الأمر لحظاتٍ كي يُدرِك أنه عاد من سفره وأنه مستلقٍ على سريره وآثارُ كدماتٍ حديثةٍ تُغطِي جسده.

شريطٌ جديدٌ من الذكرياتِ قد تجلّى واضحًا في عقله، شعر بفرحٍ عارم وهو يتذكرُ ما تغيّر في الخط الزمني وما حدث بعد عودته.

ذكرياتٌ جديدة:

الثلاثاء الساعة 05:23

وجد نفسه داخل سيارته وبجانبه هدى مغمى عليها، لَم يفهم ماذا حدث وكيف انتقل إلى ذلك المكان بعد أن كان في اجتماع مهم في مكتبه! نَظرَ عبرَ زجاجِ النافذة ليرى أحمد يَفترِشُ الأرض وهو يتأوه، فاستوعب بسرعةٍ أنه قد عاد إلى الماضي ليُصلِحَ أمرًا خطيرًا سيحدث في المستقبل، حاول إيقاظها لكنها لم تَستَجِب فتوجه بها نحو إحدى المستشفياتِ القريبةِ واتصل بسمر ليُخبِرها بما حدث فلَحِقَت به على عجلٍ.

لم تكن هدى قد تعرضت سوى لبضع كدمات في وجهها وجسدها، وما أن استعادت وعيها حتى اتصلت سمر بوالديها وباتفاق مسبق مع تامر أخبرتهما أنها تعرضت لمُحاولة سرقةٍ، وأن تامر صادف وكان قرب مكان الحادث فاستطاع إنقاذها بعد أن تعارك مع السارقين.

صدّقَ الوالدان القصة وشكراه على إنقاذه ابنتهما، حاول البقاء معها فترة أطول في المستشفى لكن سمر نهرته فعاد إلى منزله لينال قسطًا من الراحة.

انتهت الذكريات.

الحاضر:

مسح العرق المُتصبب من جبينه واستند على السرير ليقف وقفة رجل واثق بعد أن منع عمليةَ اغتصابٍ مُحقّقةً لفتاةِ أحلامه، توجه بخطى ثابتةٍ نحو الحمام، أسقط ملابسه على الأرض ونظر إلى الكدمات في جسده وقد غمره الفخر بالإنجاز العظيم الذي حققه، فتح الرشاش وترك قطرات الماء الدافئة تنساب فوقه كالمطر، أحس بنرجسية مفرطة تتملكه ممزوجة بنشوة عارمة، ولمعت عيناه ببريق غامض، رفع رأسه إلى أعلى وابتسم ابتسامة انتصار خبيثة فقد أحسَّ أنه شخصٌ لا يُغلب، يمكنه أن يهزم أي مشكلة ويمتلك قوة لا يستوعبها حتى الخيال، فكّر أنه بقليل من التخطيط يمكن أن يُصبِحَ زعيمًا أو ملكًا، شخصًا لم ولن تُنجب الأرض مثله، يُصحّحُ أخطاء الماضي، راقب البالوعة وهي تبتلِعُ الماء المُنصب وكأنه يَغتسلُ من كل ما عاناه من حرمان وخوف في الماضي ليَنسلِخَ من ذاته إنسانًا آخر من جديد.

خرج من الحمام ووقف أمام المرآة يُجفّفُ نفسه، ألقى بنظرة على وشمه الغريب لكنه اكتشف اختفاءه! أظلمت الدنيا فجأة في عينيه وسقطت الفوطة

التي تحيط خصره على الأرض، جثا على ركبتيه وهو يرتجف ويسأل نفسه وقد تملكه الرعب "أين اختفى ذلك الوشم الغامض!؟"

****

غادرت هدى المستشفى اليوم التالي، كان تامر يراقبها من سيارته وهي تمشي بصعوبة مستندة على كف والدها حتى دلفت إلى سيارته واختفت.

عند وصولها إلى المنزل اتصل بها ليسألها عن حالها، شكرته على انقاذها واعتذرت منه لفظاظتها معه في الجامعة. ليُخفي حقيقة ما حدث ويعطيها جوابًا شافيًا عن أسئلتها العديدة، ابتكر تامر سيناريو مُقنعًا لأحداث ذلك اليوم، فقد أخبرها أنه لمحها تركب السيارة مع أحمد فتبِعهما، وعندما بلغ الطريق الساحلي وانحرفت السيارة عن مسارها وسمعها تصرخ، أوقف سيارته وسارع لإنقاذها بسرعة، فاقتنعت هدى بكلامه وشكرته على موقفه البطولي معها.

يومًا بعد يومٍ أصبحتِ المُكالمات الهاتفية تطول بينهما بسببٍ أو بغير سبب، الثواني أصبحت دقائق، والدقائق تحولت إلى ساعات، كلامه معها ساعدها على تجاوز محنتها، كان يُحدّثُها في كل شيء، عن نفسه وأحلامه وحبِه الخالد لها وهي تُنصِتُ إليه دون أن تتكلم، فالندم امتزج بالخجل وكتم على أنفاسها، يَستدعي السُخرية والفكاهة أحيانًا، تُصغي إليه وتبتسم في بعض الأحيان ابتسامة خفيفة، حكى لها عن مراقبته لها في الترام بعد أن أغوته بنظراتها

الشاردة وعينيها الحالمتين، تحدّثَ عن أيام فقره وعمله في المكتبة، ثم موت جده قبل أن يَفوزَ صُدفةً باليانصيب، أخبرها بكل ما هو مكنونٌ في قلبه، بكل شيء ما عدا سرِ دُعائه الغريب، فقد كان مُتأكدًا أنه يَصعُبُ عليها تصديقُهُ وخُصوصًا أنهما في المرحلة الأولى من التّعارف، وحتى الوشمُ الذي سيُثبت كلامه اختفى فجأةً كما ظهر!

بعد أسبوعٍ اتصلت به سمر لتُخبِرَهُ أن أحمد جاء إليها واعترف لها أنه كان مُخدرًا ولم يكن يعي ما يفعله، أقّر أنه نادمٌ جدًا على فعلته ويُريد رؤية هدى، طردته سمر وهددته بإخبارِ الشُرطةِ عن فعلته الشنيعة، فوافق على الابتعاد بعد أن أيقن أنها لن تُسامحه مطلقًا طيلةَ حياتها.

مرت الأيامُ وبدأت هدى تستعيد عافيتها تدريجيًا، تشجّع تامر وطلب منها الخروج برفقته، رفضت في بادئ الأمر لأنها لم تتمكن من تجاوزِ هوْلِ الصدمة، لكن بعد إلحاحٍ مستمر من سمر التي لا تفرَغُ حقيبتها من التحايل والدهاء وافقت أخيرًا على اللقاء.

لم تسعِ الدنيا فرحته العارمة واستعد لموعده مع الفتاة التي وَقَّعتْ على شغافِ قلبه. بعد أيامٍ التقيا في أحد المقاهي التي تُطّل على البحر، ظلّ تامر صامتًا يتأملُ وجه هدى ويبحث عن كلمات الغزل التي تدرب عليها طوال الليل وتلاشت في الفجر! أما هدى فلم ترفع رأسها من شدة الخجل لكنها

حاولت أن تَكسِر الصمت المُطبق بعد أن لاحظت ارتباكه وقالت لتُنقِذه من ذلك الموقِف المحرج:

- جميلك لن أنساه أبدًا ما حييت، الحمد لله أنك جئت في الوقت المناسب وخلصتني من ذلك النذل.

ابتسم قائلًا بحنان:

- بل أنا من يجب أن أشكُركِ فحتى في أجمل أحلامي لم أتوقع أن تقبلي دعوتي للخروج، لقد فعلتُ فقط ما كان سيفعَلهُ أي أحدٍ في مكاني ،

بدأت الكلماتُ تتساقط من فمه يمنة ويسرة وبدأت العُقدة بالانفراج حتى بدأ يَسترسلُ في الكلام دون خوف أو خجل فانهمكا في حديث طويل لم يسعه الوقت الذي قضياه حول الطاولة فاستكملاه سيرًا على الأقدام أمام شاطئ البحر.

قال لها وهو ينظر إلى نقطة بعيدة في البحر الممتد أمامه:

- هل تعرفين ما أروع إحساس في الدنيا ياهدى؟

ابتسمت بدلال وأجابته:

-أن تحب أحدًا بكل جوارحك؟

سكت قليلًا ثم أمسك بيده حجرًا صغيرًا ورماه بكل قوته في اتجاه البحر الممتد أمامه وقال:

- إن كنتَ تُحِبُ أحدًا فذلك إحساس جميل، لكن أن يشعر بك من تُحبُهُ فذلك يفوقُ إحساسَ الحُبِ روعةً، إن لكل قصةِ حبٍ نهايةً سعيدة، وقصتي لن تَكتَمِل قبل أن تُصبحي لي وحدي ياهدى.

جثا على ركبتيه وأخرج من جيبه خاتمًا ذهبيًا ونظر مباشرة إلى عينيها قائلًا بثبات:

- هل تقبلين الزواج بي؟

لم تتوقع هدى طلبًا كهذا في أول لقاءٍ بينهما؛ فأطرقت رأسها خجلًا وارتبكت وتلعثم لسانها وهي تقول:

- الزواجُ دون حب يا تامر كالعبادة دون إيمان، تُصبح مجرد حركاتٍ روتينية اعتيادية لا تحمِلُ بداخلها عُمقًا ولا تملك في جوهرها هدفًا، نحن لم نَعرِف بعضنا سوى قبل أسابيع يجب أن نلتقي أكثر ونتعرّف على طِباع بعضنا فربما لستُ الفتاةَ التي تَتَخيلها.

- لا يهم أن تُحبيني اليوم فأمامنا المُستقبل بأكمله لتشعري بكل ما أُكنه لكِ من عشقٍ، أما عن مشاعري فلا تقلقي لأنك الفتاةُ التي طالما حلُمتُ بالحصول عليها.

- جميلك لن أنساهُ أبدًا فأنت من أنقذني من ذلك الوحش، رجلٌ مثلك هو هدية من السماء بالنسبة لي.

- كل شيء فعلته ياهدى قدّرهُ الله في الأزل، نحن فقط نتصرف بحسب مشيئته.

- ماذا تعني بذلك؟

- أعنى أن أقدارنا التقت في السماء ياهدى قبل أن تلتقي قلوبنا على الأرض.

أومأت برأسها موافقة وقالت وقد احمرت وجنتاها خجلاً:

- ربما فَهمتُ ما تريد قوله.

ابتسم قائلاً:

- أنا لم أسمع جوابك حتى الأن! هل تقبلين بي زوجًا لك؟

تعمدت ألا تتلاقى أعينهما وهي تجيبه:

- أنا أقبلُ بالتأكيد فقد وَجدتُ فيك في هذه المُدّةِ القصيرة ما لم أَجِده في أي شابٍ أبدًا.

فتح يديه على مصراعيهما وكأنه يَستقبلُ العالم وصرخَ بِكُل قوته أمام أمواج البحر التي تَضرِبُ بقوة:

- " أناأسعد رجل في العالم..... أَنا أُحبك ياهدى .... أُحبك حتى الجنون... أُحبك وسأظل وفيًا لك إلى آخر يوم في عمري."

الفصل السادس

رسالةُ القَدَرِ

الزمن: بعد شهرين

مرّت الأيام جميلة تزينها قصة حب هدى وتامر، وجدت فيه فارس الأحلام الذي تَبحثُ عنه كل نساء الدنيا، ووجد فيها روحه التائهة، دفن الماضي خلفه بعد أن عجز عن تفسير لُغزِ اختفاء الوشم، بعد تَرَدُدٍ طويلٍ قرّر إخفاء كل ما وقع له من أحداث عنها حبيبته، تقدّم لخطبتها ومرَّ كل شيء على ما يرام، أما عَملُه فقد ازدهر في فترةٍ قصيرةٍ بسبب ذكائه وتفانيه وحُبِ الناسِ له.

ثم جاء اليوم الموعود، يوم استثنائي في حياته، زفافه بهدى، اشترى أغلى وأجمل بدلة وجدها في مركز التسوق وتعطر بأفخر العطور استعدادًا لليلة التي سيعِزفُ فيها الراقصون سيمفونية حبه وسعادته، ويُوقِعُ ميثاق العشق والهوى الأبدي مع محبوبته.

وضع اللّمساتِ الأخيرة على ملابسه، ثم غادر غرفته ونزل عبر الدَرج إلى الطابق السفلي، أوقفته الخادمة مُتجهة نحوه بسرعةٍ وهي وتقول:

- هناك رجلان يسألان عنك يا سيد تامر.

تعجب تامر فقد انتقل حديثًا إلى المنزل وقليلٌ من معارفه فقط من يعرفون عنوانه، سألها باستغرابٍ خصوصًا أن الجميع مُتجهين إلى القاعة التي سيقام بها العرس: "من هؤلاء؟"

- لا أعلم! رجلٌ عجوزٌ وشابٌ طلبا رؤيتك.
- اسمحي لهما بالدخول.

توجهَ نحو صالة استقبال الضيوف وبعد لحظاتٍ دخل رجلٌ أبيض الشعر بملامح أجنبية وعينين زرقاوين، يرتدي بذلة رمادية اللون ويحمل في يده محفظة جلدية بنية ومعه شاب عربي الملامح أسود الشعر، يرتدي قميصًا أبيض وبنطلونًا أزرق يمشي مُلتَصقًا بالرجل.

تكلم الأجنبي مع تامر بلغة لم يفهمها فتدخل الشابُ قائلاً:

- مرحبا سيد تامر، اسمي أشرف ومهنتي مُترجم، وهذا السيد ألفونسو محام قادم من إيطاليا خصيصًا لِيلتقيك.

التفت تامر إلى الرجل الغريب الذي يُرسل إليه نظراتٍ لامعة وكأنه اكتشف كنزًا كان يبحثُ عنه منذ زمن.

قال الشاب وهو يُكمِل كلامه:

- لقد اتصل بي السيد ألفونسو وطلب مني أن أساعده في البحث عنك وقد ترددنا مراتٍ عديدة على شقتك القديمة ولم نجدك، حتى دلنا شخصٌ على شيخ المسجد الذي أعطانا هذا العنوان.

رفع الرجلُ الأجنبي حاجبيه الكثيفينِ وتكلّم وهو يُطالِعُهُ من فوق عويناته بكلامٍ مُبهم لم يفهمه سوى الشابُ الذي أومأ برأسه مُوافقًا ثم قال لتامر:

- السيد ألفونسو جاء من إيطاليا خصيصًا لتطبيقِ وصيةِ شخصٍ يُدعى...

سكت قليلًا وهو يُقلِّبُ بيديه صفحاتِ ملفٍ أصفر أخرجه الأجنبي من محفظته الجلدية وأعطاه له وقال بِحُروفٍ مُتقطِعةٍ وهو يَقرأُ الاسمَ المكتوبَ عليه:

السيد" أنطونيو ديماطولي"...

تعجّب تامر ورفع حاجبيه بذهولٍ وهو يجيبه:

- أنا لا أعرف هذا الاسم ولم أسمَع به من قبل! ما هي الوصية التي سيتركها رجلٌ أجنبيٌ مجهولٌ لشابٍ مثلي؟

قاطعت كلامهم الخادمة التي أحضرت الشاي ووضعته أمامهما، فانتظر الشابُ حتى انسحبت ثم قال:

- لقد ترك لك السيد أنطونيو شيئًا مُهمًا قبل وفاته.

أدخل المحامي يده مُجددًا داخل محفظته المُنتفِخة وأخرج منها طردًا كبيرًا أبيض اللون.

لم يخفَ على الضيفين قَلقُ تامر وهو يَستلِمُ الطرد الغريب الذي كُتِبت عليه بأحرفٍ لاتينية اسم "تامر حمدي".

عقل تامر يتلو جملة واحدة "معقول ما يحصل الآن" ؟! أمسك الصندوق بيديه وعيناه تلقيان وابلًا من الأسئلة عن محتواه، فرمته عينا الأجنبي بالنفي فليس من اختصاص المحامي أن يكشف أسرار موكليه، كان الطرد ثقيلًا وبشكل علبة مستطيلة، مزّقه بخفة ليجد بداخله صندوقًا خشبيًا أسود اللون عتيقًا بحجم كتاب، أنيق وناعم الملمس وذا مفصلات مزخرفة، كان غطاء الصندوق يَحمِلُ نقش نجمةٍ سداسية، فتحه بفضول ليجد بداخله قطعةَ قماشٍ حريريةٍ تُغطي كتابًا ثقيلًا ذا ملمسٍ جلدي ناعم يُرسِلُ القشعريرة في سائر الجسد فور لمسه، منقوشٌ على غلافه نجمة سداسية كالصندوق تمامًا وقد كُتِب في مركزها بلونٍ ذهبي : «مارك فرناند» « MARK FERNAND ».

فَتحَ الكِتابَ بحذر وضاقت عيناه وتَسارعت أنفاسُهُ وهو يُدقِّقُ بتركيزٍ في تِلكَ السُطورِ التي كُتِبَت بخطٍ عربي واضح على الصّفحةِ الأولى:

«إلى أعز إنسانٍ إلى قلبي: ابني تامر... »

شعر تامر بالصدمة فأغلقَ الكتاب بسرعةٍ ونظر إلى الزائرين اللذين يُحملقان فيه بفضول.

انتبه أشرف للموقف وقال على عجل:

– لقد أتممنا مُهِمتنا ويجِبُ أن نُغادر، نرجو منك توقيع هذه الوثيقةِ التي تُؤكدُ أنك استلمت الوديعة.

وقّع تامر الورقة ويداه ترتجفان ثم نادى الخادمة لِتُرافقهما إلى الباب بعد أن شكرهُما على عناء البحث عنه.

ما إن غادر الضيفان حتى عاد إلى غرفته وهو قلق، أوصد الباب من الداخل وفتح ياقة قميصه ليحصل على بعض الهواء، ثم جلس على الأريكة وفتح الكتاب مُكمِلًا القراءة بلهفة:

ابني الحبيب:

لا يُمكنك أن تتصور كم هو صعبٌ علي كتابة هذه الرسالة، لقد كنتُ أرتَجِفُ والقلم يسقط من يدي مِرارًا، أُفكرُ كل لحظةٍ في الكفِ عن الكتابة وتمزيق هذا الكتاب؛ لكنني كنتُ أتردَدُ في أخر لحظة.

أنا أعلم جيدًا أنني لم أكن بجانبك لتربيتك، لأسألك عن دراستك، عن أحلامك، عن أمالك ومخاوفك، أنت لا تتذكرُني بالطبع، بل تتمنى لو وُلِدتَ يتيما، على الأقل كُنتَ ستعيشُ حياة طبيعية وأنا ميت، وكنتَ ستزور قبري وتأمل أنني كنت سأكون أبًا صالحًا لك، لكن المؤسف أن هذا لم يحدث، بل رحلت عمدًا وتخليتُ عنكَ وعن والدتك، فأقل شيءٍ تفعلُه الآن هو أنك تكرهني بكل جوارحك. اطمأن يا ولدي- اسمح لي أن أناديك بهذا الاسم رغم أنني لا أستحق ذلك - فأنا لم أرسل لك هذه الرسالة بعد كل هذه السنوات لأعتذر منك أو لأطلب منك أن تشملني بالقليل من حبك، فأنا لا أستحق شيئًا مما ذكرت ولن أستحقه أبدًا، واعلم أنني مثلك أيضًا، احتقرت

والدي عندما كنت في مثل سنك وكرهته أكثر مما تكرهني بأضعاف مضاعفة رغم أنني لم أتحدث إليه مطلقًا.

سأعترف لك بأمر أخر، أنا لم أكن أريدك أن تُولد أبدًا، يوم اكتشفت أن والدتك حبلى كرهتك قبل أن أراك وتمنيت أن تتخلص منك وأنت جنين فرفَضت، لكن يوم ولادتك كل شيء تغير، وجهك المتلألئ كالقمر الوهاج وابتسامتك البريئة جعلتني ابتهج فرحًا وسرورًا وتعلقت بك حينها، كيف لا أفعل وقد أنجبتك أشرف امرأة على وجه الأرض وحبي الخالد، البلسم الذي جعلني أتحدى كل شيء حتى نفسي، أمك رحمها الله، معشوقتي التي سأظل وفيًا لحبها ما بقي من حياتي.

يجب أن تنصت لي جيدًا فحياتك تتوقف على فهمك لهذه الرسالة، تدبيرك الجيد وحرصك سيُنجيك أما اللامبالاة فستقودك حتمًا إلى هلاكك، افتح قلبك وعقلك وركِز على كل سطرٍ من سطورها، اعلم أنه عندما سَتصِلُك هذه الرسالة فسأكون بالتأكيد ميتًا، أتمنى أن تدعو لي، إسأل الله أن يغفر ذنوبي وزلاتي، ليست فقط الذنوب البشرية البسيطة التي يهابُها عامةُ البشرِ كالسرقة والكذب والغش والنميمة، فالله رحيم وسيتجاوزها عن المؤمنين بإذنه، وأنا قد أمسيتُ مؤمنًا، لكن أخطائي الأخرى وفظائعي التي لا تُغتفر، والتي يعجزُ اللّسانُ عن وصفها والقلبُ عن تجاوزها والمتعلقةُ باللّعبِ بأقدارِ البشر، تلك كانت جريمتي وجريمة أجدادي.

أتمنى أن تكون قويًا وذكيًا كما أتوقع وتتحلى بالصبر والحيلة فالمصيبة التي ستنزل عليك الآن يمكن أن تَهُدَ جِبالًا من هولها، تمنيتُ ألا يأتي يومٌ أكتب فيه هذه الرسالة، تمنيتُ أن أختفي من حياتك إلى الأبد دون أن تعرف شيئًا عني، حتى ولو كرهتني وأبغضتني فلا يُهمني، فالمصيبة التي أقحمتك بها يوم سمحتُ بولادتك كانت أعظمَ خطأ اقترفته في حقك ولا يجِبُ عليك أن تغفره لي مهما عِشْتَ يا ولدي.

لقد تشابكتِ الخيوطُ في عقلِك لكن لا تخف، سأُوضِحُ لك كل شيء وسَتجِدُ أجوبةً شافيةً لكلِ الغُموضِ والأسئلةِ التي يَطرحُها رأسك.

القصة يا ولدي، بدأت منذ زمنٍ بعيد جدًا وتحديدًا في مدينة القُدس سنة ٦٩٧ قبل الميلاد، في تلك الحقبة كانت المدينةُ عاصمةً للمملكة اليهودية، وكان يَعيشُ فيها رجلٌ صالح وحِبرٌ من أحبارِ اليهود العظام، اسمه لابان، رجلُ دينٍ مُؤمِنٌ وعَالمٌ بتعاليم الدين ومحافظٌ عليها، الله يَهبُ المُعجزات والكرامات لمن يشاء من عباده يا ولدي؛ ولابان مُنح سرًا من أسرار علومٍ سماويةٍ خفية وقُدرَةٍ لم يمتلكها أحدٌ غيره، قُدرة السفر إلى الماضي وتغييرُ الزمن، وذلك بتلاوة دعاءٍ سرّي يجعل وعيه ينتقل إلى لحظة معينة يَختارُها ثم يُغيرُها كيفما شاء. كانت هذه القُوة سلاحًا فتاكًا في يده، ولحِكمَةٍ ربانية فقد كان استعمالها محدودًا في ثلاث مراتٍ فقط، فتغيير الماضي أمر خطيرٌ جدًا

وعواقبه وخيمة ولا يُمكن أن يُترك مفتوحًا في أيدي البشر، لاابان سخّر هذه القُدرةَ من أجل مُساعدة الضعفاءِ واستردادِ حُقوقهم.

تلك الهبة الربانية لم تقتصِر على لاابان فحسب، بل كانت مُقدّرةً في الملكوت لكل نسله من بعده، فبعد وفاته اكتشف ابنه الوحيد شمعون أن وشمَ المُثلث الذي كان يملكه والده انتقل إليه، وقد كان رَجلَ حربٍ مُتمرسًا وقائد جيوشٍ بارعًا عكس أبيه الزاهد، فاستعمل قدرته من أجل الفوزِ في المعارك الحاسمة لبني إسرائيل ضدَ الأعداء، حيثُ كان يَستفيدُ من الأخطاءِ التي وقعت في الحُروب التي خَسروها ثم يَعودُ بوعيه إلى الماضي ليُخبِرَ الجيوش بما يَجب فِعله أو تفاديه في خططهم، فكانت خسارتهم تَنقلِبُ فوزًا دائمًا، بسبب تلك القدرة الخارقة ذاع صيته في أرجاءِ المملكةِ اليهوديةِ والممالكِ الأُخرى التي أَصبحت تهابُه وتخشى مواجهته فكانوا يستسلمون قبل مواجهته، فامتدت المملكة اليهودية واتسعت بفضله، وأصبح أسطورة حية تمشي بين الناس ولقّبوهُ باسم "صاحب الإنفوكار" وهي كلمةٌ لاتينية قديمةٌ "INVOCARE" وتعني الدُعاء.

رغم قوته وسلطته المطلقة كانت هناك مُشكلةٌ كبيرةٌ تؤرق مضجع شمعون وتجعلهُ حزينًا ومهموماً، لقد كان مُتشوِّقًا لإنجاب الأطفال فقد كان يأملُ أن تَنتقِلَ القُدرة إليهم بعد وفاته وتُصبح المملكة اليهودية جبّارةً لا تُقهر، لكنه للأسف لم يَستطِع إنجابَ سوى مولودٍ واحد. حاولَ بشتى الطُرُقِ؛ زار

الأطباء والحكماء وحتى العرافات، لكن زوجاته كُنَّ يفقدِن أجنتهن لسببٍ أو لآخر.

بعد وفاته انتقل الوشمُ إلى ابنه الوحيدِ ناحوم، الذي حدا حدو والده واستعمل هذه القدرة في تغيير الماضي والانتصار في حروب بني إسرائيل، وقد أدرك ما لم يستطع والده معرفته، فهذه القُدرَةُ تُرافِقُها لعنةٌ دائمة فلا يُمكن أن يعيش من أبناء حامل الإنفوكارِ سوى ولدٌ واحد، وهو الذي يَرِثُ قوّةَ الدُعاءِ ويولد ذكرًا، أما الأبناء الأخرون فجميعهم يموتون أجِنةً في بطون أمهاتهم لسَببٍ أو لآخر.

كان صيتُ نسل الإنفوكار ودعاؤهم السري قد عمّا أرجاءَ العالمِ، وتكبّدَتِ الممالِكُ المجاورة خسائر كبيرة بفعل حُسن تدبير ناحوم واستعماله الجيد للدعوات الثلاث، فبدأت بَوادِرُ التطاولِ على مملكةِ بابل العظيمة تظهُر وفقدتِ العديدَ من أراضيها، فقرّرَ الملك نبوخذ نصر مُهاجمة القُدس والقضاء على ناحوم، وإبادة المملكة اليهوديةِ، خُصوصًا لِعلمِهِ أنه استنفذَ دعواته الثلاث، فَهجمَ بكُلِّ جيوشِه على المدينة واحتلَّها وأمر باعتقالِ صاحبِ الإنفوكار وقَتلِهِ؛ ليُبيدَ بذلك السُلالة التي كانت تُهدِّدُ حُكمَه.

الزمن شيء خطرٌ جدًا يا ولدي، فأمر بسيط في الماضي قد يُغيرُ كل شيء، حياتَكَ وحياة من حولك، خياراتُكَ هي ما يَصنعُ مستقبلهم، تَملِكُ مفاتيح كل شيء، تَمسحُ الماضي لتَصنعَ المستقبل، لا أحد غيرك يَشعُرُ بتغييرك للماضي

وتبديل الأحداث، فقط أنت وحدك من يعرف ذلك وتَظلُ مُحتَفِظًا بذكرياتٍ مختلفةٍ عن الأخرين.

بعد مَقتلِ ناحوم سبى نبوخد نصر القُدسَ وأجلى بني إسرائيل عنها، ثم أَحرقَ كُل الكتبِ التي تتحدثُ عن بطولات سُلالَةِ الإنفوكار ودُعائهم الخارق لتختفي سيرتهم للأبد.

حاول أحبارُ اليَهودِ وكِبارُ الكهنةِ تخليد ذكرى السُّلالةِ، فنقشوا سِّرًا كلماتِ الدعاءِ وقواعد استعماله على لوحٍ حجري ثم وضعوه في تابوت خشبيٍ مطلي بالذهب ودفنوه داخل أحد المعابد في البيت المُقدّس.

لقد علِموا أنه لا يستطيعُ أحدٌ منهم استعمال الدعاء، فَفردٌ من السُلالةِ فقط مَن يمكنهم تفعيلُ قوتِهِ، وناحوم قُتِلَ قبل أن يُنجِب ولدًا، لكن الأمل كان يغمرهم أن يَظهرَ في يومٍ من الأيام شخصٌ مُختار يستطيع استعمال الدُعاء ويُعيد المجدَ لبني إسرائيل من جديد.

لم يَكُن أحدٌ يعلمُ حينها أن ناحوم قبل مقتله كان يُقيمُ علاقةً بالسر مع جاريةٍ له، وقد اكتشفت يوم مقتله أنها حامل منه، فأخفت الأمر عن الجميع مخافة أن تتعرض للقتل.

أُخِذت تلك الخادمة سبيةً مع الجواري إلى بابل وبيعت في سُوقِ النخاسة لأحد تجار المدينة الأغنياء، وكان رجلًا نبيلًا وذا سمعة طيبة، بعد شهرٍ من مُكوثها بقصره بدأت أعراض الحمل تَظهرُ عليها فوصله الخبرُ وعند

استجوبها أقنعته أن أحد الجنود اغتصبها في طريقهم إلى بابل، فرأف بحالها وسمحَ لها بالاحتفاظ بالجنين.

بعد عِدةِ أشهرٍ أنجبت مولودًا ذكرًا، ترَعرعَ وكبر في القصر كخادم، ولحمايته أخفَتْ أُمهُ هُويّة والده عنه، وحجبت وشمَهُ عن أَعيُنِ الفضوليين في القصر، مخافة أن يعلم جُنودُ المَلكِ فَيتعرّضَ للقتل كأبيه.

بعد سنواتٍ مَرِضت الجاريةُ مرضًا شديدًا وأحسّت بدنو أجلِها، فاعترفت لابنها بكُل شيء عن والده، لكنه لم يُصدِّق اعترافاتها وظنَّ أنها وَشمَتْ ذلك الشّكلَ الغريبَ على ظَهرِهِ عمدًا لتُقنِعه أنه من سلالة مختارة وليس ابن زنا، لكنه ومع توالي السنوات تأكد من صِدقِها عندما عَجزَ عن إِنجاب أكثر من مولود واحد.

ورغم عِلمهِ بهذه الحقيقة المُخيفة، أخفى سِرَّهُ عن الجميع مخافة أن ينتشر الخبر ويتعرض للقتل، وحتى السَّفرُ إلى الماضي أصبح مستحيلًا بعد ضياعِ كلماتِ الدعاء التي لم يسمعها من قبل أبدًا.

مرّت قرونٌ على هذه الواقعة وأصبحتِ السُلالة طي النسيان وانقسم الناسُ بين مُصدقين ومُكذبين لحقيقة القِصة، واتهم الناسُ اليهودَ باختلاقِ هذه الأسطورة وشيئًا فشيئًا ومع مُرورِ الزمن مُحيت تدريجيًا من كُتبِ التاريخ.

هذه كانت بدايةَ الأسطورة فقط، والمؤسف أنها كانت الجانبَ المُشرِقَ منها، فقد تغيّر كل شيء بعد ذلك، جاء جيلٌ لا يهمه سوى الطمعُ وتحقيقُ المصالح، حتى ولو كان الثمنُ حياة البشر وأقدارهم.

بدأ كل هذا بسبب رجلٍ واحد غيَّر كل شيء...

سنة ١١٢٠ م دخل تِسعةُ فرسانٍ غرباءَ إلى مدينة القدس يرتدون لِباسَ الحربِ ويمتطون خيولًا قوية تشُقُّ الأرضَ بحوافرها، ابحث عنهم في كُتبِ التاريخِ يا ولدي وستجدهم قد ذُكروا باسم "فرسان الهيكل".

بحسب ادعائهم كان الغرضُ من دخولهم للأرضِ المُقدسةِ هو حماية طوائف المسيحيين الحجاجِ القادمين لزيارة البيت المقدس، لكنهم في الخفاء كانوا يبيِّتون نية أخرى، فقد بدأوا خِلسة بأعمالِ حفرٍ قُربَ معبدٍ قديم للبحث عن شيء مُهمٍ جدًا لا يَعلمُ أحدٌ عنه شيئًا.

بعد أيامٍ طويلةٍ من البحث والتنقيب وجدوا التابوت الذي يحوي الحجر الذي نُقشت عليه كلمات دعاء سلالة الإنفوكار وقواعد استعماله.

كانت فرحة أولئك التسعة لا توصف، فأخيرًا وصلوا للهدف الذي خططوا له لسنوات، استلوا سيوفهم من جحورها ورفعوها عاليًا بتناسقٍ تامٍ فاختفت الشمسُ خلفها لتلقي بظلالها على وجوههم التي غمرها فرح لا يوصف.

كان أكثرهم فرحًا بهذا الإنجاز رجلًا فرنسيا يُدعى "أندريه رافاييل".

كبرَ أندريه وترعرع وسط أُسرةٍ يهوديةٍ من جنوب فرنسا، وكانت طفولته عادية رغم أن أحلامه وتطلعاته كانتا أكبر من سنه، كان يملكُ بنية جسمانية قوية وذكاء خارقًا زيادة على إيمانه القوي وتشبثه الشديد بتعاليم المسيحية، في يوم من الأيام انقلبت حياة هذا الشاب رأسًا على عَقِب، عندما اعترف له والده السِّكير ساخرًا وهو ثملٌ أن أندريه لن يستطيعَ إنجاب أكثرِ من ولدٍ واحد طيلة حياته، وأن وَشمَ المثلث الذي يملكه والده سينتقلُ إليه مباشرةً بعد موته كما حدث له بالضبط مع والده، وذلك بسبب لعنةٍ قديمةٍ لانتمائهم لسُلالةٍ أسطورية تُدعى إنفوكار، لقد كان والده يجهلُ كل شيء عن الدعاء وقدرته العجيبة، وكان يَعتبرُ عدم القُدرة على إنجاب أكثر من ابن واحدٍ مرضًا وراثيًا لا علاقة له بتلك الخرافات الأسطورية، رغم أنه عجز عن تفسير انتقال ذلك الوشم من شخصٍ لآخر، لكن أندريه كان مُختلفًا عنه فقد قاده شغفُه وحبه في الاكتشاف إلى النبش في الماضي والبحث في كُتبِ اليهودِ القديمة عن أي خيطٍ يُمكِّنُه من معرفة حقيقة سلالتهم، ولماذا تتجلى لعنتهم في إنجاب ولدٍ واحدٍ.

تَركَ فرنسا وسافر إلى مختلف بلدان أوروبا باحثًا عن الحقيقة، وبعد رحلة بحث طويلة زار فيها العديد من المعابد والتقى خلالها أحبار اليهود وعلماءهم وقرأ آثارهم ومؤلفاتهم القديمة، اكتشف أخيرًا كتابًا قديمًا يعودُ لحقبة دخول بختنصر إلى الأرض المُقدسة وغزوهِ لمملكةِ اليهود، وعلِمَ أن السَببَ الحقيقي

لما فعله هو القضاء على رجل يملك هو وسلالته قوة العودة في الزمن، ولديه وشم على شكل مثلث يشبه تمامًا الذي يحمله أندريه، عَلِمَ أيضا من الكتاب أنه وبعد موت ذلك الرجلِ نقش أحبارُ اليهودِ كلماتِ الدعاء على حجرٍ، ودفنوه سرًا في تابوت تحت أحد المعابد الرئيسية بالقدس.

لقد كان اكتشافًا مذهلًا لأندريه عندما عَلِمَ أن سلالته تملك قدرة السفر عبر الزمن إن قرأ كلماتِ الدعاء، لكن المشكلةُ التي واجهته هي كيف يسافرُ وحده إلى القدس ويجدُ ذريعةً للحفر هناك والبحث عن الحجر دون إثارة الشكوك من حوله؟! فأمرٌ خطيرٌ كهذا يجب أن يبقى قيدَ الكتمانِ.

في تلك الحقبة كانت الحروب الصليبية قد انتهت بدخول القواتِ المسيحيةِ إلى القدس بعد انتزاعها من يد المسلمين.

بعد تفكيرٍ عميقٍ علم أنه لن يستطيع اتمام المهمة لوحده؛ لذا قرر التجوال في أرجاء أوروبا والبحث عن أشخاصٍ طموحين مثله، يؤمنون بمُخططِهِ ويساعدونه للوصول إلى هدفه المنشود.

بعد ثلاثةٍ سنواتٍ اتجه أندريه وثمانية فرسان إلى مدينة القدس ليُقدموا طلبًا للملك بلدوين الثاني؛ لإنشاء تنظيم رُهباني يمكِّنهم من حماية الحجاج الزائرين للبيت المقدس، وهكذا تمكنوا من القيام بعملية التنقيب بكُل حريةٍ وإيجاد الحجرِ المنقوش.

كانت فرحة أندريه لا توصف، فالقوة العظيمة والخطيرة التي أصبحت بين يديه لا حدود لها. كان الدعاء مكتوبًا بالعبرية فترجمه إلى الفرنسية، فكلِماتُ الدعاء من المُمكن نُطقها بأي لغةٍ كانت، وحتى تغييرُ بعض كلماتها ما يجبُ الحفاظ عليه فقط هو المعنى العام للدعاء وصيغته.

اجتمع الفرسان التسعة وتشاوروا في كيفية استعمال هذه القدرة من أجل تحقيق ثروة مالية ضخمة، ولعلمهم أن القوة محدودة في ثلاثة استعمالات؛ فقط قرروا استغلالها بأفضل طريقة ممكنة.

عادوا إلى فرنسا مباشرة ووضعوا خطة جهنمية لن تخطر على إبليس بنفسه، بدأوا بتدوين كل الأحداث التي ستحدث في السنوات التالية كتواريخ وفيات الملوك ونتائج الحروب وأسباب الفوز أو الخسارة فيها، وبعد مرور بضع سنوات تلا أندريه الدعاء ليعود بوعيه إلى الماضي وتتجسد نفسه في جسده القديم، ثم أخبر رفاقه بكل تلك الأحداث التي ستقع في السنوات القادمة فدَونُوها وبدأوا ببيع تلك المعلومات بمبالغ خياليةٍ لملوك الدول وتجار أوروبا الكبار حسب الطلب، وبالتأكيد ظلوا يُخفونَ سِّرَ مصدر هذه المعلومات لحماية أندريه، ولفعل ذلك ادعوا أنهم مُنجمونَ ويَملكونَ قُدرة الاستبصار بالمُستقبل وقد تكفلت الأيام بجعل كل تنبؤاتهم صحيحة.

كونت عُصبة الفرسان بفضل المرات الثلاثة التي عاد فيها أندريه بوعيه إلى الماضي أموالًا طائلة، ومع توالي السنوات زاد نفوذهم، وتوسعت تجارتهم

وازدهرت بالثروة التي جنوها، فأسسوا تنظيمًا قويًا ومتماسكًا كبر عدد أعضائه بطريقة سريعة.

توفي أندريه وانتقلت قدرته لابنه الوحيد، ولإخفاء سر الدعاء قدر الإمكان لاستعماله دون إثارة الشبهات، قرر الفرسان تعيين نخبة مختارة بدقة شديدة، وهي وحدها من تعلم بسر الإنفوكار ويقومون بحمايته بأرواحهم قبل أجسادهم، أما بقية المنتمين إلى المنظمة فقد ظلّتِ الحقيقة مخفية عنهم.

هكذا بدأت بوادر أكبر فتنة على وجه الأرض وأكبر مصائب البشرية، أصبحت للمنظمة قوة اقتصادية وعسكرية تتحكم في أوروبا، بل ابتكروا طرقًا جديدة في الاقتصاد المالي مكنتهم من توسيع سيطرتهم وتقوية نفوذهم، ومع مرور الوقت كبرت المنظمة واتسعت حدودها وأصبحت مؤسسة قوية إلى درجة لا يمكنك أبدًا تصورها، وأصبحت تسيطر على اقتصاد العالم، وظهرت لها طقوس ومبادئ خاصة، ولأن جهود زعمائها كانت تنصب على إبقاء سر الإنفوكار الأعظم قيد الكتمان؛ ابتدعوا طقوسًا غريبة سماها الناس بالشيطانية، وأصبحت محط الكثير من الأخبار والشائعات وحامت الأساطير حولها وعن عقائدها وأفكارها الثورية، وأتهمتها الكنيسة بالهرطقة والكفر وحاربتهم، بل قتلت العديد من زعمائها، لكن رغم أن تلك الادعاءات والشائعات وتهديدها المباشر للمنظمة كانت تُشكل غطاءً مقنعًا تخفي وراءه قدرتها الحقيقية وهي تغيير الزمن.

بعد أن عرفت تاريخ السلالة ربما تسأل نفسك اليوم عن علاقتك بكل هذا الكلام، سأحكي لك قصتي لأجيبك:

- هل تسمعُ يا بُني بأشخاصٍ ولدوا وفي فمهم ملعقة من ذهب؟ أنا لم أكن من هؤلاء، فالملعقة التي وُضعت في فمي عند ولادتي كانت مصنوعةً من الألماس ومقبضها مُرصّع بالجواهر، الأغنياء يتهافتون على شراء الملابس الحريرية ليتباهوا بها في المناسبات، أما أنا فقد كانت أفرشتي وأغطيتي وحتى ستائر نوافذ غرفتي من الحرير، لم أعرف قط ما هو المال لأنني لم أحتج إليه أبدًا، كل شيء أردته كان يُلبى قبل أن أطلبه، ملوك العالم بؤساء إن قارنتهم بي.

وُلدتُ سنة ١٩٦٥ في قصرٍ عظيمٍ في إنجلترا نواحي العاصمة لندن، درستُ وتعلمتُ على يد أكبر الأساتذة وأوسعهم علمًا ومعرفة، وكنتُ أملك من الخدم تحت إمرتي ما لا أستطيع حتى تذَكُره، ما إن أَطلُبَ شيئًا حتى يُلبى في الحال، الكل كان يتمنى فقط نظرة رضا مني.

لكن القصر رغم جماله ورفاهيته كان سِجنًا بالنسبة لي، لم يكن الخروج منه ممنوعًا، بل مُحرمًا فمنذُ ولادتي لم تطأ قدماي خارج الأسوارِ الباردةِ أبدًا.

إلى جانب الحرية شيء آخر لم أستطع الحصول عليه، اسمه "السعادة"... كنتُ أقرأ عنها في الكُتبِ التي داومت على التهامها وأشاهدها في وجوه الخدمِ من حولي، لكنني لم أشعُر بها قط، لن أنسى أبدًا ذلك اليوم وأنا طفل صغير،

كِدتُ أموتُ غيظًا عندما رأيتُ الخادمَ الذي يُلمع البلاط قد حرّك شفتيه عرضًا وبرقت عيناه. سألتهم عن تلك الحركة فأخبروني أن اسمها "ابتسامة" طلبتُ منهم أن يشتروا لي واحدة مهما بلغ ثمنها.... لكن لم يجبني أحد.

لم أكن أعلمُ من أنا، ومن هُما والدايّ، كلَلتُ من طرح الأسئلة على من هُم حولي لكنهم لا يجيبون، وكلما ألححت عليهم يقولون الشيء نفسه: "ستعرفُ كل شيء حين يأتي الوقت المناسب". كل ما كنتُ أعرفهُ عن نفسي هو فقط اسمي:" مارك رافاييل".

أذكر جيدًا ذلك اليوم، عندما بلغتُ العاشرة من عمري، جاء أربعةُ رجال أشداء بوجوه متجهمة وملامح قاسية يرتدون ملابس كهنوتية غريبة، لم أرهم من قبل، اقتادوني بين الدهاليز إلى جزء جديد في القصر لم أعلم أبدًا بوجوده، ثم أدخلوني إلى إحدى الغرف الكبيرة هناك وأغلقوا الباب، لن أنسى أبدًا شكل تلك الغرفة المظلمة التي تُضيئها شموع حمراء؛ تتوسطها طاولةٌ مستديرةٌ، جلس حولها تسعة رجال غرباء لم أعرفهم، وقف أمامهم مباشرة رجل أربعيني بشاربٍ أسودٍ وخلفه ثلاثة رجالٍ جاثين على رُكبهم ويضعونَ عصبات سوداء على عيونهم، وقد فُتِحت قمصانهم حتى ظهر الجانبُ الأيسر من صدورهم، تقدم رجلٌ مسن يمسك بيده خنجرًا وسلّمه إلى الرجل ذي الشارب الأسود قائلًا :

«لقد أكملتَ مُهمتَكَ على أكمل وجه أيها السليل، وقد حان الوقت لتنال خلاصك الأبدي وتنتقل قدرتك إلى وريثك».

أمسك الرجل الخنجر بكلتا يديه وشكره، التفت إلى الرجال الثلاثة المُستسلمين لقدرهم فشكرهم على تفانيهم في عملِهم وإخلاصهم، ثم بشرهم أن أرواحهم ستنالُ خلاصها الأبدي، ما أن انتهى من كلامه حتى طعنهم واحدًا تلو الآخر بذلك الخنجر في الجهة المفتوحة من صدورهم؛ فسقطوا على الأرض صرعى وتدفقت دماؤهم على أرض الغرفة.

عندما فرغ من ذلك الفعل الشنيع التفت إلى الرجل المُسن مجددًا وركع على ركبتيه.

قال له المُسن بصوت جهوري خشن:

- «الآن دورك أيها السليل الفاضل، ستذهب روحك الآن لتلتحمَ مع قوة النور السماوية لتنتقل قدرتك إلى ابنك».

هنا ابتسم الرجل ذو الشارب وهو يرمقني بنظرات متأملة تحمل بين طياتها معاني مبهمة لم أفهمها، فجأة ذبح نفسه بالخنجر ليسقط على الأرض وهو ينتفض ويرتعش حتى فاضت روحه هو أيضًا. كل ذلك القتل حدث أمام الرجال الغامضين الجالسين أمامهم وكأنهم في محكمة، ولم يُحرك أحدهم ساكنًا.

عندما انتهى ذلك العرض الدامي تقدم الرجل المُسن مني وطلب أن أنزع ردائي، تعجبتُ لطلبه لكنني فعلت ما يريده، تحسس ظهري بيده ثم التفت إلى رفاقه فوجدتهم يرمقونني بنظرات غريبة، جعلت الرعب يسري في عروقي، بعدها قال لي كلامًا لن أنساه أبدًا:

- «أنت مارك رافاييل السليل الثاني والعشرون لأندريه رافاييل، مؤسس التنظيم وحامل قوة الإنفوكار، ستخدم المنظمة كما فعل أجدادك من قبلك، أنت أهم شخص حي على وجه الأرض ويجب عليك تسخير حياتك وقدرتك لتغيير مصير العالم والسمو به نحو الأفضل. ستستعمل قوة الدعاء ثلاث مرات، الأولى عندما تبلغُ العشرين من عمرك والثانية في سن الثلاثين أما الأخيرة ستكون عند بلوغك الأربعين».

لقد علمتُ حينها أن حملة الإنفوكار الذين يستخدمون الدعوات الثلاثة حتى بلوغهم الأربعين، بعد ذلك يُزوجون بامرأة تخضع لمعايير محددة ومختارة بعناية شديدة، لتُنجب لهم الوريث، وبعد ولادته يُربى في القصر حتى يبلغ العاشرة من عمره، عندها يُقدِمُ صاحب الإنفوكار حياته قربانًا في مراسم سرية خاصة كالتي حضرتها لتنتقلَ القُدرة إلى ابنه.

عرفتُ حينها أن ذلك الرجل ذي الشارب الأسود الكثيف الذي ذبح نفسه أمامي كان والدي، وقد وضع حدًا لحياته لتنتقل القدرة لي، والرجال

الثلاثة الذين قتلهم معه هم حُراسه الذين أخلصوا له فكافأهم بانتقالهم إلى العالم الآخر برفقته.

بعدها اكتشفتُ أن الأمَ التي قضيتُ طفولتي أقرأ كُتبًا ومجلداتٍ عن حنانها وتضحيتها لم تكن سوى أَجيرة جلبوها لتنفيذ مُهمة مُحددةٍ تقتصر على إنجابي والرحيل بعد أن أخدت أجرها مُضاعفًا.

الموت ليس أمرًا سيئًا يا ولدي، السيئ هو أن تَعيشَ حياتك ميتًا، أن تفقد حُريتك ورغباتك، ألا تفعل ما تُريده، ألا تُحب مَن اخترته، ألا تسقُط وتقف وحدك، ألا تتعلم من أخطائك، هذه الأشياء هي ما يصنعُ حياتك ويجعلك إنسانًا يتنفس، وبدونها فأنت فقط تُمارس الموت بطريقة مختلفة.

لم أكن مُقتنعًا بما يريدونني أن أقوم به، ودخلتُ في مرحلةٍ من الاكتئاب وكره شديدٍ للذات، وانزويت في المكتبة العظيمة التي كشفوا لي عن وجودها والتي تحوي أسرارًا لن تتوقع أحداثها حتى في أكثر خيالاتك جموحًا، عكفت هناك لشهور أقرأ تفاصيل التغيرات التي أُحدِثَت عبر الزمن، فكم من حروب انقلبت موازينها وكم من بشر أبرياء قُتلوا بسبب تغيير التاريخ، وكل هذا تحت ذريعة حماية الإنسانية والارتقاء بالجنس البشري نحو الأفضل.

لقد أيقنتُ أن أجدادي كانوا على خطأ، فقد أخلصوا للتنظيم الذي صنعه جدنا الأكبر ووهبوا حياتهم وموتهم من أجله، وسيكون مصيرهم الجحيم،

فالأشياء الفظيعة التي فعلوها غيرت وجه العالم، وسيكون عقابها عسيرًا عند الخالق لاستعمالهم هذه الهبة لتدمير البشرية.

فكرتُ في الهروب من هذا الجحيم، فما فائدة العيش إن لم نملك إرادةً حرة؟! لكن كان من الصعب جدًا علي تجاوزُ كل أولئك الحُراسِ والمُراقبة الشديدة، وحتى ولو تمكنتُ من الخروج، لم أكن أملك مكانًا أذهب إليه؛ فأنا لم أرَ العالم الخارجي قط، ولا أعرف كيف أعيش فيه.

لقد ساعدني شخصٌ مميز جيدًا ولولاه لما تمكنتُ أبدًا من تجاوز عتبة القصر، عندما اكتشف رغبتي في الهروب أخبرني أنه سيساعدني على مغادرة إنجلترا والاختفاء، لكن يجب أن أنسى أنه عرفني أو أنه ساعدني في يوم من الأيام. وفي ليلة مغادرتي كشف لي عن سرٍ خطيرٍ جدًا توصل إليه في بحوثه، ويمكن أن يزعزع نظام المنظمة بأسره.

أعذرني يا ولدي فلا يُمكنني أن أخبرك عن هوية هذا الشخص أو سره الخطير فقد وعدته أن أدفن معي كل شيء لأحميه، فما فعله يُعد خيانةً عظمى للمنظمة وسيكون له عواقب وخيمة.

استطاع هذا الشخص أن يُمهد لي الطريق بطريقة عجيبة، فخرجت من سرداب سري قديم، لم يعلم أحد بوجوده، قادني مباشرة إلى مكانٍ بعيد عن القصر، ركضت مبتعدًا كحصانٍ بري أُطلِق صراحه، شعرت بإحساسٍ غريب وأنا أستنشقُ طعم الحرية، كنتُ أعبُ الهواء عبًا وكأنني لم أتنفس من

قبل، ظللتُ أركضُ بين الأشجارِ حتى وصلتُ للشارع الرئيسي، هناك وجدتُ سيارة بانتظاري، أوصلني سائقها إلى المطار وأمدني بجواز سفر وأوراق إثبات للجنسية باسم مزور سألني إلى أين أريد السفر؟، لا أعلم لماذا لكنني أخبرته أنني أريد العيش في بلد عربي، فاشترى لي تذكرة لمدينة الدار البيضاء ورافقني إلى منطقة مغادرة الطائرات واختفى.

ركبت الطائرةَ وأنا خائف أرتجف، وأنا مصمم أن أختفي وسط زحمة هذه المدينة الكبيرة وشوارعها المُلتوية التي لا تنتهي.

عند وصولي استقليتُ سيارة أجرة، وطلبت منه توصيلي إلى أكبر الأحياء شعبية وأكثرها كثافة، فأخذني مباشرةً إلى الحي الذي يقطنه جدك، وهناك قررتُ أن أبدأ صفحة جديدة من حياتي، اكتريتُ غرفة صغيرة وانصهرت وسط الناس البسطاء وقررت أن أنسى الماضي وأعطي نفسي فرصة للاختيار مصيري ومستقبلي، مع أنني كنت أعلم جيدًا أنه علي توخي الحذر الشديد، فالمنظمة ستبحثُ عني في جميع أقطار العالم وستُسخِرُ كل إمكانياتها الجبارة لإيجادي.

قررت أن أَترُك الماضي خلفي، بعد فترةٍ قصيرةٍ تعرفتُ على أمك وأحببتها، لم أكن أتخيل أبدا أنني سأحبُ أحدًا في يوم من الأيام كذلك هي أحبتني أيضًا، تزوجنا وأصبحَت كل عالمي وقرّرتُ أن أعيش معها، وأُخفي عنها حقيقتي لأحميها لكي لا تَعيشَ حياتها سجينة الخوفِ والترقُب.

أنت تعرفُ الآن لماذا لم أكن أتمنى أن تولد، فلم يكن بإمكاني أن أجعلك تتجرع نفس المعاناة التي عِشتُها، وذلك الخوف المُرعب الذي يلازمني دائمًا.

لكن عندما حملتك بين ذراعي وأنت طفل رضيع شعرتُ بإحساس غريب يتملكني، عندها فقط فَهمتُ معنى السعادة، فهي تلك الحالة العميقة من السكينة والطمأنينة، حيث تَقبلُ كل شيء براحة وهدوء، وتتصالح مع كل شيء حولك، مع نفسك بأن تتقبل أخطاءها، ومع الناس بأن تُحبهم وتُحسِن الظنّ بهم، ومع الخالق بأن تُعِد العُدة للقائه.

ولكن للأسفِ لم تَدُم سعادتي سوى أشهرٍ قليلةٍ فقد وصلتني معلوماتٌ تُفيدُ أن أعضاء من المنظمة يبحثون عني في المدينة التي أقطنها. تملكني الرُعب وخِفتُ أن يكتشفوا زواجي وإنجابي فيقتلون أمك ويختطفونك، لذلك قررتُ التخلي عنكما والسفر بعيدًا دون إخبارٍ أحدٍ عن وجهتي، فعلى الأقل بإمكانكما العيشُ بأمانٍ وأنا بعيدٌ عنكم.

قبل مغادرتي ترجمتُ كلماتِ الدعاءِ إلى اللغة العربية، وطلبتُ من أمك أن تجعلكَ تحفظُها دون إخبارها سبب ذلك.

ربما تسأَلُ نفسك لماذا أرسلتُ لك هذه الرسالة لأخبرك بكل هذه الحقائق، ما أردته فقط هو حمايتك لأنني وبعد موتي سينتقِلُ الوشم لك، وستجهلُ ماهيته وربما ستُحاولُ البحث عن أجوبةٍ شافية، حينها سيُفضَحُ

سِرُكَ دون أن تدري وستكتشفُ المُنظمَةُ بسهولةٍ وجودك فيعود نسلُ إنفوكار تحتَ سُلطَتِهم.

أنت تعلم الآن أنني ميت، أتمنى أن تدعو لي بالمغفرة والرحمة رغم أنني لا أستحقهما، واسمح لي أن أطلب منك طلبًا آخر: افعل ما عجزتُ عن القيام به، لا تَقع في الحُبِ ولا تتزوج ولا تُنجب، فنسلُنا يجبُ أن يتوقف بأي طريقةٍ مُمكنة، فالعالم قد عانى بما يكفي بسبب طمعِ أجدادنا، فأترك له على الأقل فرصةً لتحديد مصيره بنفسه.

لا تستعمل القدرة لأغراض شخصية، فقط إن اضطررت لمواجهة المنظمة فهي سبيلك الوحيد للهروب منهم، سأترك لك يا ولدي كل القواعد التي يجب معرفتها عن الدعاء، لكن قبل ذلك هناك أمرٌ مهمٌ تتوقفُ عليه نَجاتُك اجعله بين عينيك، فعندما تُغلق في وجهك كل السُبلِ والمنافذ، وعندما تَفقِدُ كل شيء حتى نفسك، أترك كل شيء خلفك واقرأ ألفَ مرّةٍ سُطورَ حياتك لِتجِدَ خلاصك:

- كلمات الدعاء المحفوظة يمكنك تلاوتها بأي لغة تريدها مع الاحتفاظ بصيغة الدعاء ومعاني الكلمات.
- يمكنك استعمال القدرة ثلاث مرات في حياتك فقط.
- أربع مرات متتالية هو عدد المرات التي يجب تكرار تلاوة الدعاء فيها لتخرُج النفس من جسدك وتنتقل عبر الزمن.

- وشم رمز المثلث على ظهرك سيختفي بعد أن تستوفي ثلاثة انتقالاتٍ إلى الماضي.

- يعودُ لسليل الإنفوكار القرار في العودة لأي زمن يريده شريطة أن يركز تفكيره عليه عند التلاوة.

- بعد انتهاء التلاوة أربع مرات ستنسلخُ نفسك من جسدك وتعود إلى الزمان والمكان الذي تود السفر إليه.

- يجب أن تعلم أن السفرَ محدودٌ فقط في فترةٍ زمنية كنتَ تملِكُ فيها الوشم فقط ولا يُمكنك العودة إلى زمن قبل ذلك أبدًا فالنفس لا تتقمصُ جسدًا لا يملِكُ الوشم.

- بعد عشرين دقيقة من مكوثها في الماضي تعود النفس تلقائيًا إلى حاضرها.

- يموت سليل الإنفوكار اختياريًا في سبيل انتقال القُدرةِ إلى ابنه التالي.

في الحياة قد تخسرُ حلمًا وتفقد أملًا وتتنازل عن أمنية لكن كن حريصًا على ألا تخسر نفسك أبدًا، أنا أتوسل إليك لا تخسر نفسك ولا تستسلم لشهواتها الفانية، وإذا جاء يوم واضطررت فيه لمواجهة المنظمة كن شجاعًا وقويًا، ولا ترضخ لطلباتهم حتى ولو كلفك ذلك حياتك.

والدك مارك رافييل.

****

انتهى تامر من القراءة وشعر برجفة ورعب عظيمين يسريان في جسده، بدأ يتصبب عرقًا وهو يُفكر في هذه العاصفة التي بعثرت أوراقه بلا حول ولا قوة.

فهذه الرسالة وصلت متأخرةً جدًا بعد استعماله للدعوات الثلاث واختفاء الوشم.

فكرة المنظمة ونفوذها الكبير شغلت تفكيره، فما قرأه يُطابق ما أخبره به الشيخ حسن عن والده ويربط كل الخيوط والألغاز التي حيرته معاً، لقد كان يسمعُ ويقرأُ كثيرًا عن منظماتٍ سرية وجمعيات تقوم بمؤامرات للسيطرة على العالم، لكنه لم يكن يُصدق تلك الأفكار ويعتبرها محض هُراء، لكن ما وقع له كله حقيقي! هو فعلا استطاع تغيير الزمن! الآن اكتشف لماذا اختفى الوشم كما ظهر فجأة، فقد استعمل الدعاء ثلاث مراتٍ متتالية،

الأولى بالخطأ والتانية عندما فاز باليناصيب والثالثة عندما أنقذ هدى، وعرف أيضًا لماذا لم يتمكن من العودة إلى لحظة وفاة والدته، فلم يكن يملك الوشم حينها حسب قواعد استعمال الدعاء، وعقله لم يستوعب ما يحصل، ولماذا يحدث معه بالتحديد كل هذا! ففي ليلة عمره الموعودة وجد نفسه بين نارين ويكتشِفُ أنه يجب أن يتخلى عن حبيبته، سأل نفسه: "ما ذنبها لتعيش كل هذا الأسى؟" هل ينسحب من حياتها خِلسةً ويحرجها في ليلة عرسها أم يتزوج بها ويعترف لها بالحقيقة لتعيش حياة مليئةً بالرعبِ والخوفِ والترقُب؟

لم يوقظه من شروده سوى اهتزاز الهاتف النقال في جيبه؛ فأخرجهُ بيدٍ مُرتعشة ليُجيبَ سمر التي ألحت عليه بالإسراع بعد أن طال تأخره وامتلأت القاعةُ بالمدعوين.

كان سعيد في السيارة أمام باب المنزلِ ينتظرُه منذ فترة خرجَ بخطواتٍ مضطربة وكأنه يتهاوى على الأرض حتى وصل لسيارته والعرقُ يتصبّبُ من جبينه، فتحَ البابَ الخلفي بيدٍ مُرتعشة وجلس على المقعد، التفت إليه سعيد ليمازحه كالمعتاد لكنه وجد أمامه وجهًا شاحبًا ومُصفرًّا ينهره بعينيه بصمتٍ، فحاول تهدئته بكلماتِ تشجيعٍ، ظنًا منه أنه متوتر بسبب الزفاف، لكن تامر الغارقُ في شرودٍ طويلٍ كان يُفكر في المُصيبة الخطيرة التي نزلت عليه كالصاعقة.

عندما انطلقت السيارةُ زاد ارتباكه وشعر بالحيرة وهو يبحثُ في رأسهُ عن أولِ كلمةٍ سيخاطبُ بها معشوقته، وكيف سيشرحُ لها كل ما حدثَ معه، ويكشف لها سر الدعاء بعد أن أقنعها من قبل أنه فاز صدفةً بجائزة اليناصيب التي غيرت حياته.

وصلت السيارةُ إلى المكان الذي سيقام به العرس، قاعةٌ ضخمةٌ ديكورها مُستوحى من قصور ألف ليلة وليلة، امتزجت فيها الأغاني الشعبية والشرقية، أكاليل الزهور منتشرة في كل مكان وصور تامر وهدى غطت الشاشات الرقمية الموزعة على أطراف القاعة. اجتمعت عائلة هدى في الجهة اليمنى،

وأبناء حارة تامر في الجهة اليسرى، الموائد العريضة مُزينة بأبهى حُلة، ونُصبت عليها أنواعٌ مختلفة من الطعام على شكل بوفيه مفتوح، لم يتزحزح بعض أبناء الحارة من أمامه منذ وصولهم يأكلون بشراهة مفرطة غير مكترثين لنظرات تقزُّزِ واشمئزاز أفراد العائلة الأخرى.

ثلاث كاميرات تحوم في المكان وتوثق الحدث: التقطت العدسة الأولى سمر تجُرُ قفطانها بكلتا يديها، مساحيق التجميل تكاد تخفي ملامح وجهها وتوزع الابتسامات على الضيوف.

أما العدسة الثانية فتُركِزُ على سعيد الذي دخل يرقُصُ باسطًا ذراعيه على طولهما يتمايل ويتهادى فرحًا كغصن هزه النسيم.

الكاميرا الثالثة كانت تُوثِّقُ العِناقاتِ الحارة التي يُوزِعُها هنا وهناك والدا هدى استقبالًا للمَدعوين على الباب، قبل أن تترُكَهُما لتَلتَقِط الشيخَ حسن مُنتدبًا مكانًا شرقيًا في محاولةٍ يائسةٍ منه لتفادي صخبِ الموسيقى، بينما بَقيَ الكُرسي بِجانبِهِ فارغًا بعد أن تعذَّر على آدم المجيءُ من طنجة بسَببِ الامتحانات.

ما إن دلَفَ تامر إلى داخلِ القاعةِ حتى انتبه لقُدومِه الجميع وانتصبوا مُصفِقين ومُهللين وانطلقَتِ الزغاريد تصدَحُ في كل مكان.

رفع يدهُ بتردُدٍ ليُلقِي التحية يُمنةً ويسرة على صوتِ المُوسيقى الشعبية، فحمى الرقصُ وارتفع الغناء.

تضاربت في رأسِهِ الأفكار وهو يقترِبُ بخطواتٍ خجولةٍ نحو عروسته المُتربعة على عرشها فوق الكوشة، كانت تَرتَدِي ثوبًا أبيض كأميرةٍ بأبهى حُلتِها، بالأمسِ كانت مَلَكًا واليوم أَمسَت حورَ عينٍ سَقَطَت سَهوًا من الجنّة لِتقَعَ بين أحضانِ زوجها في أَغلى ليلةٍ في العمر، أَخذَ مكانَهُ بِقُربِها وَسَطَ الزغاريد التي لم تَكُفَ بعد، مدَّتَ له يدَهَا وهي تبتسم، ما إن أمسكها حتى انهالت عليهما هواتف المدعوين تَلتَقطُ الصُّورَ، وهو يُحاوِلُ بصعوبةٍ الابتسامَ ليُخفي هلعَهُ الشديد وارتباكه، بينما تَنهشُ الأسئِلةُ المُحيرةُ عقله.

هل يُخبرها بالحقيقة؟ وبالرسالة المَلعونة التي وصلته بعد أن أَخفى عنها سِرَّ دُعائه؟

كيف يُمكنُه أن يتخلَّى عن حُبٍ اندمج مع جسدِه وتمدَّد مع شرايين قلبِه، وماذا عن سُمعتِها التي ستتمرّغُ في الطين إن تخلّى عنها في ليلة زِفافِهما؟

تذكرّ أن والده أيضًا لم يَستطِع كَبحَ جِماحِ حُبِّهِ وتزوّجَ والدته، صَوتُ الموسيقى الشعبيةِ الصاخبةِ يخترِقُ أذنه وتتراقَصُ الجُثَثُ الآدميةُ في فَرَحٍ أمامه، أَخد نَفَسًا عميقًا وارتفعت دقّاتُ قلبِهِ، جمع شَتاتَ نفسه وهو يَحسِمُ قراره الأخير:

اختارَ العيشَ مع حبيبةِ قَلبِهِ وصَمّمَ على إخفاءِ كل الحقائقِ عنها لكي لا تَعيشَ في خوفٍ وقلقٍ وترقُب، ثم سيُحاوِل البَحثَ عن سببٍ مُقنِعٍ لِمنعِها من الإنجابِ دون أن يُخبِرَها بالحقيقة.

لقد ضيّعَ الدعواتِ الثلاث، ولا يُمكِنُ أن يُنقذها أو يُنقِذَ نفسه إن اكتشفوا أمره، لكنه عَزَمَ على عدمِ التخلي عن حُبِ حياته فالموتُ أهونُ له، حتى لو كان مَصيرُ البشريةِ بأجمعِها مُرتبِطًا بقرارِه الأخير.

الفصل السابع

حُرّاسُ الدُعاء

- مايا بريم –

شاشةُ العرضِ في مطار الدار البيضاء تُعلِنُ وصول طائرة من نوع بوينغ قادمةٍ من إنجلترا. في الرصيف الُمخصَّصِ لهبوط الطائرات فُتِحَ البابُ لِتظهرَ من خلفِه مُضيفتان تَرتدي كل واحدةٍ منهما فستانًا وقُبعة حمراء أنيقة، وقفتا مُتقابلتين أَمام السُلمِ وأطرقتا برأسيهما فيما يُشبهُ التحية، بعد ثوانٍ ظهر ثلاثةُ أشخاصٍ أَجانب في عقودهم الخامسة.

رجلانِ تتوسطُهما امرأةٌ تجاوزوا المضيفتين ونزلوا بِخطى ثابثةٍ على السُلم، المرأة سمراءُ البشرة، عيناها الواسعتان مُختبئتان وراء نظاراتٍ سوداء، مساحيقُ التجميلِ التي تضعُها تُخفي تجاعيدَ وجهها، بينما لَمَعَ شعرُها الأسودُ الطويلُ من تحت القبعة عندما انعكست عليه أشعةُ الشمس، ترتدي بِدلةً رسميةً سوداءَ وقميصًا أبيض وتضعُ قُبعةً باللون نفسه على رأسها، الرجلُ على يمينها أبيض، بشرته مُشربةٌ بحُمرة النبيذ، نحيفٌ ذو لحية خفيفةٍ بلون الشيب وشعرٍ ناعم باللون نفسه شقّهُ من الوسط تمامًا كخطٍ مُستقيم وقسّمَ خصلاته بعنايةٍ إلى خطين مُتوازيين، يرتدي بذلةً سوداء بقميصٍ أبيض مُشابِهةٍ لبدلَتها، يضعُ نظاراتٍ طبيةٍ ويمشي واضعًا يديه خلف ظهره، أَما الرَجلُ على يسارها فقد كان واسِع الكتفين، كهلاً لكنه يمتلِكُ جسمًا رياضيًا

كشابٍ أوشك على الثلاثين، أصلعَ ويرتدي قُبعةً دائرية كقُبعاتِ الأرستقراطيين السوداء ويفتحُ أزرارَ قميصه الأبيض ليظهرَ منه صدرٌ بشعرٍ كثيفٍ بسلسلة ذهبية تلُفُ عنقه.

هبَّ نسيمٌ عليلٌ لعب بخصلاتِ الشعرِ السوداءِ للسيدة فأعادتها وراء أُذُنِها قائلة:

- طقسُ هذا البلد دافئ وجميل، وهذا الهواء اللطيف يُوقظ في عقلي ذكرياتٍ قديمة جدًا.

التفت إليها الرجل على يمينها وقال وهو يُعدِلُ ياقة قميصه ويبتسمُ بطريقةٍ غامضة:

- هل عُدتِ مرةً أخرى لأحلام يقظتِكِ يا مايا؟

أجابته بهدوء وهي تنظُرُ إليه:

- الأحلامُ جزءٌ من الإنسان، فبدونها لا يمكنه أن يعيش أو يُحسَّ بطعم الحياة.

قال بنبرة مستهزئة:

- كثرةُ الأحلامِ تجعل تركيزكَ على الواقع يضعُف، وبذلك يزيدُ احتمالُ وقوعِكَ في الأخطاء.

تدخل الرجلُ الثالث وهو يُشعِلُ سيجارًا كوبيًا فاخرًا من نوع "كوهيبا" وتبدو ملامحه أكثر جدية وتجهُّمًا وقال:

-دعونا من هذا الكلامِ الفارغ وركِزوا على المُهمة التي أتينا من أجلها.

مشى الثلاثة عبر بوابةِ الخروج رقم ٢ وخُطاهم ثابتة وكأنهم يسيرون بإيقاع واحد، يتجاهلون المارة الذين يرمقونهم بنظرات فضولٍ، حتى وصلوا إلى المخرج حيث كانت تنتظرهم ثلاث سيارات مرسيدس سوداء كلاسيكية، استقلَّ كُل واحدٍ منهم سيارةً مختلفةٍ نقلتهم على شكل موكبٍ مُتناسق يَختَرِقُ زحام المدينة العملاقة.

بعد نصف ساعة توقفتِ السياراتُ في صَفٍ واحدٍ أمام أحد الفنادق الفاخرة في مركز المدينة، سجادٌ أحمر فُرِشَ في المدخل الرئيسي، وأكاليل الزهور المتنوعة قد وُزِعت على أركان المدخل لتُضفي لمسةً من الجمال لا يحتاجها الفندق، اصطف المدير وجميع والموظفين في صفين مُتقابلين لاستقبال هذا الوفد المهم، ترّجلَ الرجلُ الأصلعُ من سياراته أولًا وقوّسَ ظهره فاردًا طوله الفارع وأرجع كتفيه القويتين إلى الوراء، ثم استنشق الهواء بعمق وتركه يملأ رئتيه وصار فوقَ السجاد الأحمر تتبعه مايا والرجل الذي يضعُ يديه خلف ظهره.

التفتَ هذا الأخير إلى مايا وقال وهو يحومُ بعينيه حول البناية الشاهقة المُنتصِبة أمامه ويُعدِل قُبعته:

- لقد أتيت إلى هذا البلد في إحدى المهمات السرية قبل عشرة سنوات وقد تغيرت معالمُ المدينة كثيرًا عما تركته.

أجابه الأصلع وهو ينظُر حوله:

– إنهم كغيرهم من الدول، أن تقوم بزيارتهم ليس إنجازًا عظيمًا تفتخر به!

بدا القلق والارتباك واضحين على وجه المدير، فهؤلاء الزوار مختلفون عن أي زوارٍ أخرين، وقد جاءت توصيات شديدة اللهجة لاستقبالهم بحفاوةٍ وتلبية كل متطلباتهم.

اقترب منهم ومدَّ يده ليُرحبَ بهم بحفاوة مبالغ فيها لكنهم لم يكترثوا له، وأكملوا طريقهم نحو الرُدهة الرئيسية للفندق بخُطَى واثقة وكأنهم يَحفظون المكان عن ظهر قلب ثم دلفوا إلى صالة استقبال الزوارِ المُهمين.

لم يتذوق أحد منهم شيئًا من ذلك التمر الفاخر والحليب الذي وُضِعَ على طاولة بيضاء فخمةٍ أُعِدت خصيصًا لاستقبالهم، تبعهم مدير الفندق إلى الداخل ولسانه لا يكف عن نُطقِ كلمات الترحيب، جلسوا على كنبة جلدية عريضة، وبدأوا يتكلمون بأصواتٍ قريبة من الهمس لغةً غريبة لكي لا يفهمهم أحد، انتصب المدير أمامهم ورحبَ بهم مُجددًا قبل أن يبدأَ بتلاوة خُطبة مُطولة يتحدثُ فيها بفخرٍ عن جمال بلده ومعالمه السياحية العديدة وطبيعته الخلابة التي ليس لها مثيل في العالم.

أسند الرجلُ الأصلعُ ظهره على الكرسي ووضع رِجلًا فوق رِجلٍ ثم أخرجَ سيجارًا كوبيًا آخر من علبته وأشعله وهو يرمُقُ المديرَ بنظرةٍ حادةٍ ثم قال له: « إن انتهيت من كلامك نريد الذهاب إلى أجنحتنا لنرتاح».

اضطرب المدير وتلعثم في كلامه وحاول إخفاء ارتباكه بابتسامة مصطنعة ثم دعاهم إلى مرافقته للمصعد، داس على زر الطابق العشرين الأخير والمُخصّصِ للأجنحة الفخمة التي تملك منظرًا بانوراميًا جميلًا يُطل على المدينة.

قال لهم وهو يمدهم ببطاقات غرفهم بلباقة مبالغ فيها:

- « لقد ألغينا كل حجوزات الفندق عندما علمنا بتشريفكم لنا اليوم».

لوّح الأصلعُ بيده مُبدِدًا دُخان سيجاره ثم رمقهُ بنظرةٍ غاضبةٍ أخرى دون أن يتكلم أقنعته بالكفِ عن الكلام، فأغلقَ فمه ثم انصرف بخطواتٍ تقتربُ من العدو تاركًا كل واحد منهم يدلِفُ إلى جناحه الخاص.

****

في منتصف الليل داخل الجناح الذي نزلت فيه مايا جلست على الأريكة وهي ترتدي فستانًا طويلاً أبيض منسدلاً بلا أكمام، وتُمسِك بيدها فنجانًا من القهوة طُبِعَ على حافته أثر أحمر الشفاه الذي تَضعه، كانت شاردةً تتأملُ عبر النافذة التي تَحتلُ الجدار بأكمله المباني المضيئةَ والمتطاولة بخُيلاءٍ في مشهد بانورامي مُبهج، فجأة سمعت طرقًا بالباب أيقظها من شرودها فقالت بثقة: «أدخل يامكسيم».

دخل بطوله الفارع وهو يفرِكُ رأسه الحَليقَ بأصابعه ويقول:

- لازال بإمكانِكِ التعرفُ على طرقي رغم أنني تعمدتُ تغييره !

أجابته وهي تضعُ فنجان القهوة على الطاولة الزجاجية أمامها:

- كيف تُريد أن أنسى طريقةَ طرقك للباب أنت أو فرناند؟! ذلك شبه مستحيل فقد عشنا في المكان نفسه لسنواتٍ عديدة وأنا أحفظُ تصرفاتكما عن ظهر قلب.

جلس قُربها وأمسك الفنجان الذي وضعته ثم مرّرَ سبابته على أثر أحمر الشفاهِ عليه وهو يقول:

- لقد اجتمعنا أخيرًا يا مايا بعد كل هذه السنوات، أنا وفرناند لا زِلنا كما كُنا لكن أنتِ أُحس أن شيئًا عميقًا تغير داخلك لا أفهمه، فقد أصبحتِ شاردة الذِّهن كثيرًا وبدأتِ تفقدين تركيزك.

- هذا ما يحدُثُ لأي شخصٍ يَقتَرِبُ من الستين يا مكسيم، يَنسى حاضره ومستقبله ويغوصُ في أعماق ماضيه باحثًا عن الخلاص، ومُحاولًا المصالحة مع نفسه وتبرير أي قرار أخذه في حياته.

ابتسم بسخريةٍ ثم اتجه نحو البار في أقصى الجناح حيث تراصت فوقَ رفوفِه قنيناتٌ مُتنوعةٌ من الخمرِ الفاخر تفحّصها بعينيه وهو يقولُ بصوتٍ مُرتفع لكي تستطيعَ سماعه:

- فرناند أكمل الستين وأنا اقتربتُ منها أيضًا، لكننا لا نَشعُرُ بما تشعرين به رغم أننا ننتظِرُ الخلاصَ مثلكِ أيضًا يا مايا.

- ربما لأنني أُنثى يا مكسيم لذلك إحساسي مُختلف عنكما.

استقر اختياره على قنينةٍ ويسكي إيرلندية، أخرجها من مكانها، ثم فتحها ليملأَ كأسين ثم وضع أمام مايا واحدًا ورفع الثاني إلى أعلى وهو يقول:

- بصحة كل من ضحوا من أجل الخلاص يا مايا.

أصبحت نظرتها قاتمة ورفعت بدورها كأسها عاليًا وقالت:

- بصحةِ كل من وهبوا حياتهم من أجل الخلاص.

مَسحت على شعرها مُتخللة بأناملها سواد خصلاتها ثم أكملت:

- ما الذي جاء بك لغرفتي يا مكسيم؟

- رفضَ النَومُ مُداعبة جفوني، وكُنت مُتأكدًا أنك ستكونين مستيقظة أيضًا، لذلك فكرت في المجيء إلى غرفتك لنتسامر قليلًا، فقد مضى زمن طويل لم نفعل فيه ذلك.

ابتسمت وهي تجيبه:

- أنت تعشق تبادُلَ أطراف الحديث معي رغم أنك تحاولُ جاهدًا إخفاء تلك الرغبة الجامحة التي تنهشُك.

أجابها وهو يرتَشِف رشفةً أخرى من كأسه:

- نعم معك حق! لكن أن تُحِبَ فعل شيء لا يستثني أن تأخُذَ حذرك منه يا مايا ولا تَنسي أَنكِ كُنتِ غريمتي في يوم من الأيام.

ردّت عليه وهي تَضحك:

- رغمَ القسوةِ التي تُحاول إظهارها أمام الناس يا مكسيم، فأنت تُخفي داخلك قلبَ طفلٍ صغير.

قهقه بصوتٍ عالٍ وهو يُجيبها:

- أنتِ الوحيدةُ التي تقولين هذا يا مايا، ففرناند يظُن عكس ذلك تمامًا، بالنسبة له أنا شخصٌ متمردٌ وذو قلبٍ مُتحجر.

- ربما أنا أمهرُ منك ومنه في تحليل الشخصيات واكتشاف خبايا النفس.

ابتسم ابتسامةً لزجة تنطوي على غموضٍ كبير، وقال كأنه يُصحِحُ أفكارها:

- أنت تعلمين جيدًا أننا نحن الثلاثة أذكى الأشخاص في العالم، ولا يوجد بيننا من هو أفضلُ من الآخر، نحن نُكمِلُ بعضنا البعض في كل شيء.

وضعَ كأسه على الطاولة ثم اتجه نحو النافذة الزجاجية المُطلّةِ على المدينة ونظرَ إلى البناياتِ الشاهقةِ المجاورة للفندق، وقال وهو ينقُرُ بأنامله على الزُجاجِ المصقولِ فيما يُشبه الإيقاع:

- هذا البلد تطوّرَ بسرعةٍ ملحوظةٍ في السنوات الأخيرة.

أجابته مايا بملامحَ جادة:

- مازالَتْ أمامهُ سنواتٌ طويلة لِيصِلَ لِركْبِ الدُولِ المُتقدمة.

مرّرَ إبهامه وكأنه يَحصي عدد البنايات وقال:

- وهل في مصلحتنا تركه يَصِلُ إلى ذلك المستوى يا مايا؟

- ربما نعم... أو ربما لا!

ضحك حتى ظهرت نواجذه، ثم ترك النافذة ليعودَ للجلوس قُربَها، لكنه التصق بها عمدًا ثم قال وكأنه يهمس في أذنها:

- هل تذكرين يومنا الأول في المعهد يا مايا؟

أجابته بنبرة هادئة دون أن تتحرّكَ من مكانها:

- أنا أذكره جيدًا يا مكسيم كأنه الأمس، رغم أننا كنا أطفالًا آنذاك، فمن منا يستطيع نسيان تلك الخطبة المطولة التي تلاها جايكوب على مسامعنا؟، لن أنسى كلماته أبدًا عندما أخبرنا أن مهمتنا في المعهد هي البحثُ عن خلاصنا.

- معكِ حق! لم يستوعب أحدٌ آنذاك ما أراد قوله، فقد كان الجميع خائفين ومرعوبين من ذلك المكان، أما هو فكان يبتسمُ وهو يُلقي خطبته الشهيرة، جايكوب كان رجلًا استثنائيًا وغامضًا، وكانت له رغبةٌ محمومةٌ في حُب الظهور ولفتِ الأنظار.

أنا أذكُرُ أيضًا كم كنتِ مُختلفةً آنذاك يا مايا، ولفتِ انتباهي من بين الأطفالِ العشرة، فقد كُنتِ مميزةً بشعرك الطويل بلون الليل وبشرتك السمراء الجميلة، ونظرتِكَ الحزينة التي لا يُزاحِمُها سوى الذكاء المُتّقِدُ من عيونك.

اقترب منها أكثر حتى أوشكت شفتاهُ أن تلمِساَ عُنقها وقال ورائحةُ عِطرِها تَخترِقُ أنفه:

- رغم تقدُمِكِ في السّنِ لم تَخسري نُعومتك وجاذبيتك يا مايا.

أَبعدتْ أنفاسه عن وجهِها بسرعةٍ واعتدلت في جلستها وهي تقول:

- وأنت لم تتمكن بعد من التخلُصِ من سلوكياتك المستفزَة وشهوتِك العمياء، فدائمًا تختلِقُ أعذارًا سخيفةً لتنفرد بي.

ابتعد قليلًا كأنه يستدرِكُ ما فعله ثم قال:

- العين إذا أبصرتِ الشهوة عمى القلبُ عن العواقب يا مايا، أنا أذكر جيدًا محاولاتي العديدة معك لكن استعصى علي التقرُبُ منك أو سبرُ أغوار ماضيك قبل ولوجك المعهد.

- لقد كان مُحرمًا علينا التحدُثُ عن ماضينا هناك لكي لا يعرِف أحدٌ من الطلاب أسرارَ الآخر ويستغلّهَا للتغلّبِ عليه، وحتى بعد تخرُجنا كانت واجباتنا والمسئولياتُ الجسيمة التي أوكلت إلينا تَمنعنا من الكلام مع أي أحدٍ حتى مع أنفسنا، ثم بعد ذلك وقعتِ الفاجعةُ الكُبرى واختفى السيد مارك وبدأت رِحلَة بحثنا عنه والتي لم تتوقف أبدًا.

حرّك مكسيم رأسه مؤيدًا تحليلها.

سكتت قليلًا ثم أردفت فيما يشبه التشويق:

- دعنا من إغراءاتك غيرِ المُجدية، هل تُريد حقًا سماعَ قصتي يا مكسيم قبل دُخول المعهد؟

برقت عيناه وهو يُجيبها:

– نعم بالتأكيد! أنا دائمًا كُنتُ فضوليًا تجاهك أنت وفرناند؛ فالقدرُ جمعنا من مختلف بقاع العالم، لكن حياتنا السابقة ظلّت طي الكتمان، كل ما أعرفه عنكِ أنك هندية الأصل وأنه ينتمي إلى أُسرةٍ أمريكية غنية.

أجابته وهي لا تزال مُحتفظة بابتسامتها العذبة:

– لن تتغير أبدًا يا مكسيم، فضولك هذا سيقتُلُك يومًا ما،

ابتسم ثم قال بصوت واثق:

– فضولي هو ما جعلني أتفوق على الطلاب الآخرين، وأُصبحُ واحدًا من المُختارين الثلاثة.

سكتت قليلًا كأنها تَحسِم قرارها النهائي ثم قالت:

– سأُخبِركَ يا مكسيم فلا داعي لنُخفِيَ أسرار طُفولتنا عن بعضنا، فمنذ تخرُجِنَا لم تعُد غريبًا لي، ولا أحد يعلَمُ ما تُخفيهِ الأيامُ القليلة المُتبقية لنا من مفاجآت.

– هل تعلم يا مكسيم أن ما جعلني قوية واستطعت التفوقَ على البقية بجدارةٍ هو صدماتي المتتاليةُ في مرحلةِ طفولتي؟ فأنا عكس كل الطلاب لم أكن أهابُ الموتَ، فالصدماتُ التي عِشتُها كونَت في داخلي عُقدةً أبديةً ربما هي ما جعلتني أكثرَ قُوةً وتركيزاً.

أجابها مكسيم وكأنه يُفكِر:

– في التحليلِ النفسي يُؤكدُ فرويد أن العُقدَ تنبتُ من صدمةٍ ثم ينسى الإنسانُ سبب الصدمَةِ لكن العُقدَة تظلُ حيةً في نفسه.

– معكَ حق في كلامك فقد كنت أسمع دائمًا نداءً عميقَ النبراتِ من داخلي، كأنه آتٍ من أغوار سحيقة يدفعني للمُضي قدمًا وتحدي كل الأخطارِ أمامي، لذلك لم أكُن أهابُ الموتَ عكس الطُلابِ الآخرين.

هربت عيناها بعيدًا عنه وشردت طويلًا وهي تستعيد ذكرياتها القديمة، وتغوصُ في ماضيها، بينما تلتقِطُ أُذنُها صوتًا بعيدًا لمزاميرٍ تعزِفُ لحنًا هنديًا مصحوبًا بقرعٍ للطبول ثم بدأت بالكلام:

الهند سنة 1960:

اسمي الكامل مايا بريم، وُلدتُ في قريةٍ صغيرة بولاية كوجرات بالهند، أنتمي لعائلةٍ هندوسيةٍ من طبقةٍ تُدعى الداليت، وهم طائفةٌ منبوذة في الديانة الهندوسية، السببُ في ذلك يرجِعُ لمعتقداتٍ راسخةٍ عندهم مَفادُها أن الداليت أشخاصٌ ارتكبوا ذنوبًا ومعاصي في حياتهم السابقة، ولتُعاقبَهم الألهة على أفعالهم جعلتهم يُولدون ضِمن هذه الطائفة ليذوقوا عذاب العيش تكفيرًا لهم عن خطاياهم، لذلك وَجبَ عليهم الصبرُ والاحتسابُ، وتَقبلُ العقابِ الرباني الذي يستحقونه.

كانت هذه الأفكارُ الرجعية تجعلنا عُرضة للاحتقار والتهميشِ من طرف الطبقات الهندوسية الأخرى، بل أكثر من ذلك كنا نُعتبَر أنجاسًا التعامل معنا أو حتى مُجرد الكلام قد يُشعِل غضب الرب.

وسط هذه الظروف المُزرية والجهل المُتفشي في العقول فَتحتُ عيني في تلك القرية الفقيرة جدًا ذات البيوت المُرتجلة من الطين والإسمنت، تبعدُ عن مدينة أحمد أباد بستين كيلومترًا، تسكُنُها أقلية من طائفتنا الداليت والسيخ الفقراء ومجموعةٌ كبيرة من المسلمين، كنا رغم اختلاف عقائدنا نتبادلُ مشاعر الحب والاحترام، ندفِنُ معهم موتاهم ويحرقون معنا موتانا، نَحتفل بأعيادهم ويحتفلون بأعيادنا، لقد كنا نجد فيهم ما لم نجده أبدًا في أبناء ديننا.

في طفولتي كنتُ أظنُ الجوع شعورًا عاديًا، والحرمان الدائم جزءًا من طقوس العبادة وطاعةً للرّب، هكذا علمني والدي ذلك الرجلُ البسيطُ الذي يُؤمن بالخرافات، كان ماسحًا للأحذية قُرب المعبد الكبير، يعمل لساعاتٍ متواصلة وكان الكاهن يمنعهُ من الدخول أو حتى الاقترابِ من المعبد، لأنه من الداليت وبالتالي فهو شخص نجس! لكن طبيعة والدي المتسامحة وحبه الجارفُ لدينه جعله يتقبلُ الواقع، ويعتبر كل ما يتعرضُ له من تحقير وتهميش تكفير الذنوبه التي اقترفها في حياته السابقة.

كان يعلمني دائمًا أن الفقير لا يَرُدُ الإهانة أبدًا، وأن الإساءةَ إليه ليستْ ظُلمًا، بل قضاءً وعدلاً إلهيًا يستلزم الصبرَ والاحتساب.

كنتُ أنا وأمي نُصدِقُ ما يقوله ونُؤمن به، وحده أخي الأكبر سادو من كان يستهزئُ بكلامه ولا يَقبلُه، فقد ترك الدراسة صغيرًا بعد أن سئِم النبذ والتحقير اللذين كانا يتعرّضُ لهما في المدرسة، وفضَّلَ الترَدُدَ على الجبل المجاور للقرية كل يومٍ للعمل في تكسير الصخور كغيره من الشُبان، كان يَخرج عند بزوغ الفجر ولا يعودُ إلينا حتى يُدلي الليلُ ستاره.

أتذكر أمي جيدًا، امرأة في ريعان شبابها، تزوجتْ والدي قبلَ أن تتخطى سن البراءة، كان وجهها البشوش بسحنةٍ سمراءَ مُتوجًا بشارةٍ حمراء تضعُها على رأسها، كانت تبدو دائمًا نظيفةً رغم أنها لا تُغير ساريها الفاقع اللون إلا نادرًا، والذي يَكشف عن آثار ندباتٍ قديمةٍ على ظهرها لم تتحدّثْ عن سببها أبدًا، ولم أَجرؤ على سؤالها أنا كذلك، حتى سمِعتُها يومًا صُدفةً تُخبِرُ جارتنا أن تلك النُدبَ أحدثها بعضُ الحاقدين من الهندوس المُنتمين لطبقاتٍ أخرى كانت تعملُ عندهم في دلهي، عندما كانت طفلةً قبل أن تيأسَ من تلك المُعاملةِ، وتهرُبَ للنجاة من بطشهم.

رغم مشقّة الحياة وغياب والدي الدائم كانت الابتسامة لا تفارقُ مُحياها، تبتسمُ للأمل وللمستقبل المُظلم، ولم تبخل علي يومًا بحنانها وعطفها.

كانت لدي صديقة وحيدة لا أكادُ أفارقها إلا قليلاً، اسمها عائشة من أُسرةٍ مسلمة، تسكنُ بجوارنا، كان لدينا رفيق ثالث لا نراه رغم أنه كان يلازمنا دائمًا اسمه الجوع، المزبلة كانت ملاذنا عندما لا نجد شيئًا نأكله أو

مكانا نلعبُ فيه ألعابنا الطفولية أنا وصديقتي، أقدامنا الحافية لم تكن تتأثر بوخزِ الأحجارِ وقساوة الأرض، وحرارةِ الشمس المُفرطة لم تكن تزعج رؤوسنا الصغيرة فقد ولدنا معتادين على كل شيء.

عندما تهطلُ الأمطار في فصل الشتاء كنا نعشقُ اللعب في الوحلِ أنا وعائشة، كانت تُمرِغ وجهها بالتراب حتى تختفي ملامحها وتقول لي والفرحة تعلو وجهها؛ أن أُمَها تُخبرها دائمًا أن المسلمين خُلقوا من تراب، ربما كان هذا سر حبها له ورغبتها المحمومة باللعب به وتمريغ وجهها فيه، فقد خُلِقت منه كما تقول.

لن أنسى ذلك اليوم أبدًا، من نوفمبر سنة 1969 كان عمري تسع سنوات، يومٌ حارٌ يُلهِبُ الرؤوس، خرجتُ ألعبُ الغميضة مع عائشة، أغمضتْ عينيها واتكأت على الحائط مُنتظرةً اختبائي، فأسرعتُ نحو أحدِ الأزقةِ الضيقةِ أبحثُ عن مكانٍ مُناسبٍ للاختباء فتعثرتْ قدمي بكتابٍ مرميٍ على الأرض، علت الدهشة وجهي وضيقتُ حدقتيَّ استيعابًا، استرعاني فضولٌ كبير فحملته بين يدي وقلبت صفحاته، قُلتُ في نفسي ربما أسقطه أحد التلاميذ الذين يَمرُونَ من أمامنا أنا وعائشة كلّ يومٍ ونحن نلعب، يرمقوننا بنظراتِ تنقيص، ثم يكملون سيرهم إلى ذلك المبنى الحجري العتيق الذي يُسمونه بالمدرسة، لم أستوعِب معاني تلك الرُموزِ التي تملأ صفحات

الكتاب، فاحتضنته بين ذراعي وعُدتُ سريعًا إلى كوخنا وكأنني وجدتُ كنزًا ثمينًا.

جلستُ أتصفحهُ وأحاول بيأس فك رموزه لكنني لم أقدر، فأخفيته وانتظرت بفارغ الصبر عودة أخي في المساء.

عندما أسدل الليل ستاره عاد أخي مُتعبًا إلى المنزل، وجدني جالسة على عتبة الباب، أنتظره كعادتي، ما إن لمحته حتى ارتميتُ بين أحضانه، ثم طبعتُ قبلةً على خذه الخشن، كانت رائحة عرقِ الشقاءِ تَفوحُ منه، لكنها لم تكن تُزعجني أبدًا، فقد كنت أعشقها لأنها تشعرني بالأمان، ابتسم وحملني بين ذراعيه القويتين وأدخلني إلى البيت قبل أن يُخرِج من جيبه قطعة قماشٍ ملفوفةٍ بداخلها القليل من الأرز، فقد اعتاد أن يتقاسم معي غداءه، يحتفظ به ثم يحضره لي بالليل، كانت تلك تقريبًا وجبتي اليومية الوحيدة، التهمته بشراهة وشكرته، بعد أن استراح قليلًا أخرجتُ الكتاب من مخبأه وطلبتُ منه أن يَشرح لي معنى تلك الرموز العديدة، ضَحِكَ مُستغربًا لطلبي، ورفض في بادئ الأمر لكنه استجاب أخيرًا، بعد أن أَلححتُ عليه بالطلب، جلسَ بِقُربي تحتَ ضوءِ شمعةٍ خافتةٍ تكسِرُ ظلام الليل في الغرفة، وأمسك الكتاب وأشار بإصبعه إلى الرموز وهو يقول: "إنها تُسمى حروفًا ولكل حرفٍ معنى مُختلف عن الآخر، وهي ما يُكَوِّنُ اللغة التي نتحدث بها". تهجى الحروف أمامي وأنا مندهشة أُنصِتُ إليه بتركيز، بعد أن فرغ أخبرني أنه يمكننا ربطها مع بعضها

لنحصُلَ على الكلمات، وهكذا شرح لي المبادئ الأساسية، لم نشعُر بمضي الوقت حتى أدلى الفجر بخيوطه على الغرفة؛ كاسرًا ضوء الشمعة فذهب للاستلقاء قليلًا قبل أن يعود إلى عمله.

شعرتُ أن كل الرموزِ المُبهمةِ قد ظهرتْ جليةً أمامي واستطعتُ استيعابَ وحِفظَ كل كلمةٍ قالها دون أن أنسى أو أُخطئ ولو في حرفٍ واحد.

في اليوم التالي وعند عودته اكتشفَ أنني استطعتُ استيعابَ كل شيء وتهجأت الحُروف، بل حتى أن أصِلَ بين بعض الكلمات، انبهر سادو لما رآه ولم يُصدّق عينيه، وأيقنَ أنني أَملِكُ ذكاءً استثنائيًا فقرّرَ ألا يَدَعَ موهبتي تُطوى بين أظهُرِ الإهمالِ، وعزمَ على أخذي في اليومَ التالي إلى مدينة "أحمد أباد" ليَطلُبَ منهم تسجيلي في المدرسة الخاصة بالفتيات كأقراني وأتعلم، عسى أن يكونَ مُستقبلي أفضل من مستقبلِه.

اقترح الأمرَ على والدي الذي رفض بشّدة قراره، ففتياتُ عشيرتنا مُحرمٌ عليهن الدراسة، وقدرهن في الحياة أن يتزوجن أول من يَخطُبُهن ليُنجِبن ذريةً تتربى على إرضاء الآلهة، عساها تتجاوز عن ذنوبَ حياتهن السابقةِ وتشملَهُنَ بمغفرتِها ورِضاها.

رفضَ أخي الانصياعَ لأوامره وعلا صُراخهما يكسِرُ سكون الليل قبل أن يخرُجَ غاضبًا من المنزل.

تلك الليلة شعرت بخوفٍ شديدٍ يتملكني ورغبةٍ جامحةٍ في تغيير حياتي ودفنتُ رأسي في صدرِ أمي، ورجوتُها أن تتركني أذهبُ مع أخي، عانقتني بحرقة وانهمرت عيناها بالدموع الدافئة مبللة شعري، لكنها لم تَنبس بكلمةٍ واحدة، فقد كانت تخافُ علي من قسوةِ العيش وتحقير المجتمع لنا في العالم الخارجي، فحتى لو استطعتُ الذهاب إلى المدرسة فلن أسلمَ من نظرات التحقير والاستفزاز الذي سأتعرض له من لَدُنِ الأطفال والأساتذة المتعصبين الذين يكرهوننا نحن الداليت.

عند بزوغ فجر اليوم التالي أحسستُ بيدٍ دافئة توقظني، فتحت عيني ببطء فإذا بأخي يهمس في أذني ويطلب مني أن أتبعه بهدوء، تسلّلتُ بخفةٍ من بين أحضان أمي وارتديت نعلي ثم تبعته خِلسةً أسرقُ خطواتي إلى الخارج.

توجهنا إلى موقفِ الحافلاتِ في أقصى شمال القرية، رغم خروجنا المُبكِر، فقد كان المكانُ مُكتظًا بالمسافرين، فقد كان العديد من سكان القرية يُسافرون جيئة وذهابًا إلى أحمد أباد.

حافلةٌ واحدةٌ كانت تخرُجُ من القرية كل يوم وتعود في منتصف الليل، لم نجد مقاعد شاغرة على متنها، فطلب منا السائق الصعود على سطحها مع مجموعةٍ أخرى من المسافرين، تكدّسنا لكي لا نسقُطَ وانطلقنا ونحن نتمايل مع المُنعرجات، اختبأتُ بين ذراعي أخي ليَحميني من زخاتِ البرد القوية التي تُثيرها سرعةُ الحافلة، كنتُ أُنصِتُ لكلام أحد الرُكاب مع صديقه وهو

يتحدّثُ بقلقٍ عن التوترِ القائمِ بين الهندوس والمسلمين وعن بوادر لقيامِ صراعٍ بينهم بعد فوز شخصٍ يُدعى هينتدرا ديساي- زعيم المؤتمر الوطني الهندي-، بمنصبِ رئيس الوزراء، والذي حمّل مسئولية التوتر القائِم في البلد للمنظمات القومية الهندوسية. هذه الأخيرة لم تتقبلِ الوضع وردّت بأعمال عُنفٍ شملت العديدَ من الولايات ضد المسلمين الذين ردوا العنف بطريقةٍ أعنف.

كان يرتدي نظارات طبية ويحمل جريدة في يده ويُطالعني بتمعنٍ وهو يتكلّم، كان يرتجف بتوتر شديد لم أعرف سببه، فلم أكن أستوعِبُ آنذاك ما كان يقوله رغم أنني حفظت كلامه بسرعة، ما فهمته فقط آنذاك هو أن هنالك أَمرًا غير طبيعي يحدُث في المدينة التي نتجه إليها.

عند وصولنا لمشارف أحمد أباد توقفتِ الحافلةُ بحدة، ألقيتُ بنظرةٍ من فوق السطح فلمحتُ جماعةً من الُملثمين يَحملون سواطيرَ وسيوفًا وينادون بشعاراتٍ دينية لم أفهم معانيها، ثم اقتحموا الحافلة فتعالت صيحاتُ الركاب.

نظرتُ مُستغربةً لأخي الذي تغيّرَ وجهه البشوش وأصبح جامدًا يغمرُهُ الخوفُ والهلع، فجأة صرخ أحد المسافرين "إنهم المسلمون يقتُلون الهندوس!" بدأ الصراخُ يصدَحُ عاليًا في المكان، الرُكاب يحاولون الفرار بعضهم كسر النوافذ وهرب عبرها، وأخرون حاولوا بيأسٍ الدفاع عن

أولادهم ومتاعهم، اختلط الحابل بالنابل ورأينا الأمتعة تتقاذف والناس تصرخُ وتحاول النجاة بجلودها، استطاع بعض المعتدين الصعود إلى سطح الحافلة وبدأوا بقتل كل من شكوا أنه ليس مسلمًا، وسط كل تلك الفوضى باغت أخي أحد المهاجمين وشجَّ رأسه ثم حملني بسرعةٍ بذراعيه القويتين ووضعني خلف ظهره، ثم قفز بي بخفةٍ من فوق الحافلة مُبتعدًا، ركض بسرعة وأنا مغمضةٌ عيني أسمعُ صراخَ الناس يتلاشى شيئًا فشيئًا حتى اختفى.

استطعنا النجاة بأعجوبة من تلك المجزرة، عُدنا أدراجنا إلى القرية نجرُّ خطواتنا بصعوبة، الشمسُ الحارقة تلفُح وجوهنا والعطش يكاد يقتُلنا، بعد مسيرة ساعاتٍ متواصلةٍ لاحت القريةُ من بعيدٍ تحومُ فوقها كومة دخان عظيمة، رغم العياء الذي أصابنا أسرعنا الخطوات حتى وصلنا، ملامحُ قريتنا الصغيرة تغيرت بالكامل، أُحرِقت الأكواخ وأشلاءُ الناسِ مُبعثرة في الطرقات بعضها محروق وأخرى مفصولة الأجزاء لا تُميز جنس أو عمر أصحابها، أما الدّمُ فقد اختلط في الطُرقاتِ بالوحل وروثِ البقر.

في طريقنا إلى بيتنا مررنا أمام المعبد الكبير، صدمني منظرٌ يقشعر منه البدن، مجموعةٌ من الرجال عاري الصدور ومكبلي الأيدي وقد شنقوا على شجرة عظيمة أمام المعبد، كان من بينهم والدي يتدلى جسده بجانب كاهن المعبد، جثوت على ركبتي من هوْل الصدمة، ركض أخي نحوه وعانق قدميه

الحافيتين وبكى بحرقة عظيمة، أحضر زجاجة مكسورة وقطع الحبل الذي يلف عنقه لترتطم جثته بالأرض، ثم جرها ليُخفيها بين الأشجار بعناية، بينما تجمدتُ أنا في مكاني أراقبُ بهلعٍ المنظر المخيف وقد وأمطرت عيناي زخاتٍ متوالية من الدمع الغزير.

استفسرنا الناس عما حدث فأخبرونا أن بعض المسلمين جاءوا لقتل الكاهن لكن والدي تصدى لهم وحاول منعهم فاعتقلوه وشنقوه هو أيضًا، لقد مات المسكين وهو يُدافع عن رجلٍ طالما احتقره ونبذه ومنعه من الصلاة في المعبد، ربما اعتبر نفسه شهيدًا عند موته، ربما ظن أنه سيحصُل بذلك العمل البطولي على رضا الألهة والنعيم الأبدي، مسكين والدي سذاجته جعلته يعيشُ منبوذًا ويموت مشنوقًا.

أخبرنا بعض الناجين من المجزرة أن حافلات غريبة وصلت صباح ذلك اليوم وعلى مَتنِها مجموعاتٌ متفرقة من الشباب الملثمين الذين ادعوا أنهم مسلمون وجاءوا لتطهير القريةِ من الهندوس الكفرة، بعد قدومهم بدقائق وصلت حافلات أخرى لهندوسيين جاءوا بحجة الدفاع عن إخوانهم في الدين، فقام الصراعُ بين الطائفتين، يتخلله القتل والنهب والحرق.

عند وصولنا لكوخنا كانت الصدمة الكبرى فقد احترق بأكمله، اخترق أخي الحُطامِ المتراكم والرماد الخانق باحثًا عن أمي وأنا خلفه، وسط الأنقاض

لمس جلدًا خشنا فجرّهُ من طرفه بقوة ليُخرِجَ جسدًا مُتفحمًا يلُفه بقايا ساري أحمر.

عندما أخرج جثة أمي شَعرتُ بصاعقةٍ تضربنِي على رأسي وفقدتُ وعيي من هوْلِ الصدمة، لقد اختفى الوجهُ الأسمر البشوشُ فجأةً، وغابت الضحكة الجميلة الحالمة، وحلَّ محلها جسدٌ أسود خشنٌ ومرعب كالظلام الدامس.

عندما تفقِد عالمك كله في لمح البصر تشعرُ بالألم الحاد يَعتصِر جسدك، لم أكن أعرف الفرقَ بين هندوسي ومُسلم، فهم مِثلنا ونحن مثلهم، يُشبهوننا في الشكل ونُشبههم، يأكلون نفسَ طعامنا ويشربون من البئر نفسها التي نشربُ منها، فلِمَ هذه النِّزاعاتُ والحروب؟! اختلاف في الأفكار والعقائد؟! استعراض لقوة اليقين ودرجةِ الإيمانِ أمام الإله؟ أم هي ببساطة خدمة رجال سياسة هَمُّهم إشعالُ نيرانِ الفتنةِ وتصعيدُ الأمورِ من أجل مصالحهم الذاتية؟

في اليوم التالي استعدتُ وعيي لأجدَ نفسي مُستلقيةً وسط رُكامِ كوخنا، قُمتُ فزِعةً أبحثُ عن أخي وقد انتابني الهلع، وبعد فترةٍ قصيرةٍ لَمحتُه من بعيدٍ مع مجموعةٍ من الجيران يقومون بحشرِ الموتى في مكانٍ واحد استعدادًا لمراسم حرقهم، ما إن حاولتُ عبورَ الزقاق لالتحق به حتى استوقفتني جنازةٌ للمسلمين تمرُ من أمامي، خلف الموكبِ كانت تمشي امرأة تبكي وتلطُم وجهها، دققت جيدًا في جثة الفتاة المحمولة على الأكتاف فعرفتُها، كانت

عائشة، قُتلت بالأمس في تلك الأحداث الدامية، وتلك المرأةُ المكلومةُ التي تبكي هي أمها، طفلةٌ صغيرةٌ لم تُكمل بعد التاسعة من عمرها ينطفئُ نورها غصبًا من أجل صراعٍ لا تفهمه! تبعتهم إلى المقبرة وراقبتهم من بعيدٍ وهم يدفنونها، بكيتُ بحرقةٍ حتى جفّت عيناي وأنا أتذكرُ كلماتها عندما كانت تُخبرني أن المسلمين خُلقوا من تراب، ها هي اليوم ستندمج مع ذلك التُّراب الرطب الذي خُلِقَت منه.

اندلعتْ أعمالُ شغبٍ جديدة، أصبح البقاءُ في القرية أخطرَ من مغادرتها فقررنا النزوحَ إلى مدينة أحمد أباد، أفواجٌ من الهندوس والمسلمين تركوا وراءهم كل شيء، أحباءهم، ذكرياتهم، حياتهم وأموالهم، سِرنا أيامًا لم نذق فيها طعمَ الراحة أبدًا.

لم تكن المدينة أحسنَ حالًا من قريتنا، آثارُ معارك طاحنةٍ على جدرانها وأنهارٌ من الدم تجري في أزقتها، سمعنا أن الاشتباكات شملت مُدُنًا أخرى كفادو دارا، نادياد، أناند، وجوندال. إتجهنا إلى أحد المعابد الكبيرة حيث اجتمع المئاتُ من الهندوس الذين فقدوا كل شيء، ولا يَملِكون مكانًا يَلجئونَ إليه.

في اليوم التالي أخبرني أخي أن جماعةً من الهندوس هاجموا مسجدًا كانت تؤوي إليه عائلاتٌ مسلمة، ولم ينجُ من تلك المجزرةِ أحدٌ حتى الأطفال. لقد

كان مُرتبِكًا وخائفًا من انتقامِ المسلمين منا بالهجوم على المعبدِ الكبير الذي نوجدُ فيه.

توجّهَ مع مجموعةٍ من الشُّبانِ إلى مركز الشُرطة وطلَبوا منهم التدخُلَ لحمايتنا أو على الأقل إيواءَ الأطفالِ داخِلَ المخافر، لكنهم رَفضُوا ذلك بشِّدةٍ وأخبروهم أن أوامر عُليا صدرت بعدمِ التدّخُل، لأنهم لا يملِكون القُوّةَ اللاّزمة لمواجهة أعمال الشغب.

لم يجد أخي سادو والرجالُ معه حلًا في تلك الظروف الخطيرة سوى أن يَحموا المعبدَ وحدهم حتى لو قدَّموا حياتهم فداءً لذلك.

جُمع الأطفال والشيوخ والنساء في الداخل وأُغلق علينا الباب بالصناديق وألواحِ الخشب، وانتصب الرجالُ بالخارج من بينهم أخي يحملُون العصي والسيوف، كنا بالمئات يلتصق بعضنا ببعض ونحن نرتعش بسبب الخوف والبرد والجوع، أغلبنا لم يذق شيئًا منذ أيام وآخرون قد أصيبوا بجروحٍ تفاوتت خطورتها ويتأوهون من الألم، أَزفَ الغسقُ علينا ثم ما لبثَ الظلامُ الدامس أن حلَّ.

غفوت قليلًا وفي منتصف الليل تناهت إلى مسامعي صرخة جمّدتِ الدِماء في عروقي لرجُلٍ يقول بأعلى صوته:

- «المسلمون قادمون....».

تبعتها صرخاتٌ وصياحٌ ملأ الأرجاء ثم بدأ الاشتباك.

نظرتُ عبر شقٍ في إحدى النوافذ القريبة مني لأُراقِبَ ما يحدث في الخارج، لكنني لم أستطع أن تعرف على أحد وسط الهرج والمرج والغبار الذي غطى المكان.

سمعت وقعُ السيوفِ وهي تتصادمُ والضربَ بالعصي، كان كابوسًا يمرُ ببطءٍ وقساوة وكأنَ عقرب الثواني مُثقَلٌ بالعذاب والألم، كانت ليلة سوداء، فجأة اشتعلت نيران مجهولة المصدر داخل المعبد، وبدأت حرارة المكان ترتفع، اختلط الحابل بالنابل وبدأ صراخ وعويل الأطفال والنساء يشقُ الفضاء دون مجيب، الجميع يتخبط باحثًا عن مهرب من الهلاك، الضعفاء الخائفون تعثروا فسحقتهم أقدام المرعوبين.

استطعتُ الانسلال من إحدى نوافذِ المعبد المكسورة، وأطلقت ساقاي للريح دون أن ألتفت إلى الوراء، النيران تلتهمُ كل شيء حولي ركضتُ حتى اختفى الصراخُ من مسامعي ثم اختبأتُ في أحد صناديق القُمامةِ الباردةِ، وانكمشتُ على نفسي وأنا أرتجِفُ من الخوف.

عدت في اليوم التالي لأبحث عن أخي وسط أكوام الجُثثِ البشرية الهالكة لكنني لم أجده، بحثت لساعات متواصلة متأملة برعب تلك المجزرة المروعة التي حدث؛ وكلي أمل أن يكون أخي على قيد الحياة.

الإنسان في جوهره مُتعطشٌ للبطش، لكنه يكبحُ هذا الشعور في داخله ويُحاول ترويضه، ولكن ما إن تتاح له الفرصة حتى يُطلق العنان لتلك الرغبة الجامحة، مُتعذرًا بأي سببٍ كيفما كان سواء كان سياسيًا أو دينيًا أو اجتماعيًا.

لم أستطع إيجاد أخي، جلستُ أنتظره هناك أيامًا عسى أن يعودَ ليأخُذني، أنامُ الليل منكمشة على نفسي في العراءِ وحيدةً أرتجفُ في مواجهة أمواج البرد الهادرة، كانت السماء لحافي والأرض فراشي، ألتقط أي شيء تجود به الأرض لأسُدَ به رمقي، تمنيت أن يزورني الموت ليلتقطني من تلك المعاناة المريرة.

بعد أيام من الانتظار بدأ الأمل في كون أخي حيًا يتلاشى، أُراقِبُ عمال الشاحنات وهم ينقُلُون أكوام الجُثثِ التي بدأت تتعفن، لم أكن قد ذُقت طعامًا سوى ما جادت به علي امرأة عجوز منذ يومين، بدأتُ أشعر بتعب شديد، عندما انتصفت الشمسُ في السماء مرّ بقربي بائع متجول يجرُّ عربةً للحلوى، توقفَ على بُعد مترين مني فالتف حوله الأطفال كالذُبابِ يشترون منه.

غرّني منظرُ الحلوى الشهي وسال اللعابُ من شدقي وأنا أنظر إليها، لم أستطع مقاومة الجوع والرغبة واستجمعت ما بقي لي من طاقةٍ وتوجهتُ نحوه، كان مشغولًا مع أحد الزبائن فسرقتُ بعض الحلوى من عربته وركضتُ مبتعدة، انتبه لي سريعًا ولحق بي وفي يده عصا خيزران، التقطني من ياقة ثوبي البالي وضربني بقسوة وأنا ألتهم الحلوى بشراهة غير مُكترثةٍ لما

أتعرّضُ له من ضرب مُبرح، فجأة انبعثت سيدة غريبة من العدم وجرته بقوة من يده طالبة منه التوقف وهي تقول له بغضب:

- ألا تخجل من نفسك أيها الرجل، تضربُ فتاة مسكينة لا حول لها ولا قوة؟

أجابها والغضب يتطاير من عينيه:

- هذه البلهاء اللعينة سرقت بضاعتي وهربت.

التفتت إلي بحنان ثم أكملت كلامها:

- ألا ترى أنها لم تتوقف عن التهام الحلوى رغم الضرب الذي تتعرض له؟! ألم تسأل نفسك ربما تتضورُ جوعًا لذلك اضطرت للسرقة منك؟

- أنا لا أهتم، فهؤلاء المتشردون دائمًا ما يسرقون بضاعتي ويهربون، أنا رجلٌ فقير أكسب قوتي بصعوبةٍ، ولستُ جمعية تُطعم المحتاجين، أغلب أبناء البلد جياع وفقراء هل سأطعمهم جميعًا على حسابي؟!

فتحت السيدة الغريبة محفظتها لتُخرج منها بعض الروبيات ومدتها له وهي تقول:

- خد هذا هو ثمن ما أكلته هذه المسكينة.

أخد النقود ثم دسها في جيبه وانصرف، وهو يسبُ ويلعنُ بصوت غير مسموع.

كل ذلك يحدث وأنا ألتهم الحلوى بنهمٍ ولا مبالاة، تأملتِ السيدةُ عيناي الذابلتين وجسدي الضعيف، وسألتني عن مقرِ سكني لتأخذني إليه وهي تمسحُ عبراتي، أخبرتها بكل ما حدث لي وأنني أنتظر عودة أخي منذ أيام، رقَّت لحالي وضمتني إلى صدرها بحنان وقالت:

- يجب أن تتركي هذا المكان فهو لا يليقُ بفتاةٍ جميلة مثلك، ستذهبين معي حالًا إلى مكان آخر أفضل من الشارع.

أجبتها ببراءة طفلة صغيرة:

- وهل ستقدمين لي طعامًا؟

ضحكت حتى ظهرت أسنانها البيضاء وقالت:

- نعم سأفعل بالتأكيد.

أمسكتني من يدي وتوجهت بي نخترق الشوارع والأزقة؛ حتى وصلنا أمام باب حديدي كبير.

طرقت السيدة الباب ففتح شابٌ في مقتبل العمر، وقد علت وجهه بشاشة معبرة عندما رآها فتح الباب على عجل وهو يقول مرحبًا:

- «سيدة أنيتا كيف حالك؟!»

دلفنا إلى الداخل وسرنا في ممرٍ طويلٍ يخترقُ ساحة واسعة شحيحة النباتات لم يعتني بها أحد منذ زمن طويل حتى كلّلها الإصفرار، بعض الكراسي والطاولات البلاستيكية القديمة وُضعت بعشوائية واضحة فوق

العُشب، وصلنا إلى بابٍ خشبي دَفعَتهُ بيدها ففُتِحَ لوحده بسلاسة، دخلنا عبره إلى رواقٍ أشبه ببهو واسع تتفرعُ الممراتُ من جنباته، أرضيته مُسودةٌ بسبب الغُبارِ وقلة النظافة، دلفنا من الممرِ الأول على اليسار ونحنُ نتقافزُ بخفة بسبب الصراصير والحشرات التي عمّتِ المكان.

عند نهاية الممر وجدنا أنفسنا في قاعة كبيرة جدًا، لم أر في حياتي مثلها، أطفال بوجوه متشابهة اصطفوا في طابور طويل، أغلبهم حفاةٌ يمسكون صُحونًا معدنية وينتظرون دورهم، بينما وقفت سيدتان غليظتان تحملان عصيًا مصنوعة من الخيزران تراقبان الصفَّ، وتُعاقبانِ كل مَن سوَّلت له نفسه عدم احترامه.

ما إن لمحت إحداهما أنيتا حتى ارتبكت وتقدمت نحوها بسرعة قائلة بنبرةٍ مترددة:

- مرحبًا سيدتي كل شيء على ما يرام! والأطفال سعداء جدًا فقد طهونا لحمًا على الغداء.

نظرت أنيتا إلى الصحون شبه الفارغة للأطفال الملتفين على الطاولات الخشبية، بينما حاول آخرون بيأسٍ مَضغَ قطعٍ صلبةٍ من اللّحم، ثم قالت لها باقتضاب:

- استدعي لي رئيس المطبخ في الحال إلى مكتبي!

تجمدّت ملامِحُ المرأة للحظة ثم أطرقت رأسها موافقة وانسحبت.

التفتت إليّ وقد عادت لترسُم ابتسامتها الجميلة على وجهها وأمسكت يدي قائلة:

- أنا مديرة هذا الميتم يا مايا مرحبًا بك في منزلك الجديد، ستبدئين حياة جديدة معنا وتلتقين أصدقاء جددًا، هل تريدين أن تري سريرك؟

ابتسمتُ موافقةً، فأخذتني عبر ممرٍ طويل تفرقت في جنباته مجموعة من الأقسام الدراسية، أطفال من مختلف الأعمار حُشِروا في طاولات صغيرة، وآخرون افترشوا الأرض ينجزون واجباتهم المدرسية وتتدلى من فوقهم مصابيح باهتة تضيء بالنهار لغياب الضوء الخارجي، كان الجو حارًا وخانقًا بالداخل، ولم تكن هناك مروحة واحدة.

توجهنا إلى جناح الفتيات حيث اصطفت مجموعة من المضاجع البائسة المتراصة جنبًا إلى جنب، فتحت السيدة أنيتا أحد الدواليب، وأخرجت منه فستانًا جميلًا أبيض اللون وأعطته لي قائلة:

- "اذهبي للاستحمام الآن والبسي هذا الفستان، وبعد ذلك سنذهب لنأكل كما وعدتك!"

كانت السيدة أنيتا نموذجًا ومثالًا يتمناه الجميع بِرِقَتِها وجمالها وإقبالها على الحياة، سمعتُ بعض الفتيات يتحدّثن عنها، وعلِمتُ أنها من أسرة غنية جدًا، وبعد أن توفى والدها ورثت عنه ثروة كبيرة اشترت بها منزلًا وحولته إلى ميتم.

التحقتُ سريعًا بمدرسة الميتم وبدأت بالتعلم والتحصيل، لاحظ المدرسون ذكائي الخارق فقد استطعت قراءة واستيعاب المقررات الدراسية بسرعة كبيرة، لم أكن أنسَ شيئًا تعلمته أبدًا، وبزغ نجمي في الرياضيات، ومع مرور الأيام تجاوز مستواي كل تلاميذ الميتم حتى أكبرهم سنًا، وأصبحت أسئلتي مصدر إحراج للأساتذة، فقررت التوقف عن الذهاب إلى المدرسة وبموافقة السيدة أنيتا بدأت أدرس بنفسي وانفردت لوحدي في مكتبة الميتم أتعلم، بعد مرور سنتين كنتُ قد قرأت أغلب الكتبِ الموجودة هناك، كانت السيدة أنيتا تساعدني دائمًا، تحضر لي المراجع وتشرح لي بعض الأشياء المستعصية، لقد أولتني بعناية خاصة بعد أن اكتشفت ذكائي الخارق، كانت غرفنا في الميتم رمادية اللون عارية حيطانها من الإسمنت، في كل غرفة ستة أسِرَّة حديدية ذات أزيز مزعج، ولأنني كنت أميل إلى السهر والمطالعة الليلية وكنت أزعج زميلاتي اللواتي كن يتأففن مني، أمرتِ السيدة أنيتا بتخصيص غرفةٍ لي وحدي، وضعتْ فيها سريرًا وخزانةً صغيرة مَلأَتْها بالكُتبِ المُستعملة والأوراق.

في يومٍ ربيعي مشرق طلبتني إلى مكتبها وقالت لي بوجه مبتسم، أنها أرسلت إلى المعهد الهندي للعلوم تقريرًا عني وعن ذكائي الاستثنائي، وأنهم استدعوني إلى مدينة بنغالور بعد ثلاثة أيام لأخضع لاختبار تقييم الذكاء.

جهزنا أمتعتنا وسافرنا برفقة السائق إلى تلك المدينة، وفي الطريق قالت لي بكل ثقة:

- «ربما معدلك سيصل إلى 150 يا مايا».

كما هو معروف فإن نقاط معدل ذكاء الشخص العادي هو ١٠٠، السيدة أنيتا كانت تؤمن أنني أفوق هذا المعدل بكثير.

عندما وصلنا تقدمت مباشرة للاختبار، كانت صدمتها شديدة هي واللجنة المنظمة عندما اكتشفوا أن معدل الذكاء عندي هو ١٨٠، أو كما أسماه ذلك البروفسور الأسمر ذو الشعر الأبيض والحاجبين الكثيفين: "مستوى عبقري بدرجة عالية".

في طريق عودتنا نظرت إلي أنيتا بحنانها المعهود، وعانقتني وقالت وهي تحبس دموعها:

- أنت جوهرتي الصغيرة يا مايا، لقدأحببتك منذ أول يوم التقيتُك وسيكون صعبًا علي أن أفارقك.

رفعت كفي الصغير لأمسح دموعها وقلت ببراءة:

- لن نفترق أبدًا سيدة أنيتا أنا أعدك بذلك.

- أعلم أنك تحبينني أيضًا وتعلقتي بي كذلك، ولكن شخصًا بمثل ذكائك الفائق يا ابنتي لن يتركه أحد وشأنه، يجب أن تتبعي منهجًا دراسيًا مُختلفًا، وأن

تلتحقي بمدرسة ذات مستوى عالٍ تناسب قدراتك، وليس مدرسة عادية كالتي نملكها.

لم أفكر كثيرًا في تخميناتها؛ فقد كنت سعيدة لكوني بقربها طوال الرحلة، ارتكنت برأسي إلى كتفها، ونِمت كما لم أفعل من قبل، كنت أريد انتهاز فرصة سفري معها لأَنهل قليلًا من حنانها المتدفق، عانقتني ونِمتُ في أحضانها طيلة الطريق، شعرت أن ذلك الحب الذي فقدته عند موت أمي عاد ليحيا من جديد عبرها.

لم تتأخر توقُّعاتها، فبعد شهرٍ من عودتنا من بنغالور، وبينما كنتُ مرتكنة كعادتي داخل المكتبة أقرأُ كِتابًا عن الفلسفة، تناهى إلى مسامعي صوت رجولي يتحدث.

رفعتُ رأسي فإذا به رجل أجنبي في مطلع الأربعينيات، وسيمُ الملامحِ، أشقرُ الشعر، بعينين زرقاوين، يلبسُ بدلة سوداء أنيقة وقميصًا أبيض ناصعًا، وقد وضعَ رابطة عنقٍ باللون نفسه، ويُمسك بيده قبعة سوداء كقبعات الأرستقراطيين.

اقترب مني بخطوات واثقة، وغمس يديه في كومة الكُتب العشوائية أمامي ليُخرِج كتابًا عن الديانات، ألقى بنظرة إلى غلافه وقال وهو يُرسل نظراته إلى عيني مباشرة وكأنه يختبرني:

- بأي دين تؤمنين يا مايا؟

أجبته بهدوء وثقة:

- بعد كل الأهوال التي مرّت بي انطفأَ نور الإيمان المُزيف في باطني، ولم أعد أؤمن بأي دين كيفما كان، وكرهت كل المعتقدات والعقائد الزائفة، فكل طائفةٍ تحسِبُ أنها الفئة المُختارة التي ستَنعم بالجنة، أما الأخرون فكلهم كفارٌ يستحقُونَ الخلود في الجحيم، من يُريد أن يعبُدَ الإله لا يحتاج لدين صنعه البشر لتقييده، تلك هي الحقيقة الخالية من كل زخرفةٍ يا سيدي، فالدين هو أفيون روحي للسيطرة على الشعوب.

نظر إلي مُطولًا لتحليل تعبيراتِ وجهي، ثم قال وهو يترقبُ ردة فعلي:

- وماذا عن العقائدِ الرّاسِخَةِ في نفوس الملايين من البشر من سكان الأرض الذين يؤمنون بها، ويُضحون بأنفسهم من أجلها، هل كلُّهم على خطأ، وأنتِ وحدك على صواب؟

- عقائدهم راسخة فقط لأنها لا تُناقش، فقد غلّفها رِجالُ الدين بغلافٍ من المُسلمات.

أعاد الكتاب إلى مكانه ثم أضاف:

- وما رأيكِ يا مايا إن أخبرتُكِ أنك من المُختارين لتغيير كل الأفكار الرجعية للبشر والارتقاءِ بالجنس البشري نحو الأفضل؟

أجبته باستغراب:

- أنا لا أفهم ما الذي تعنينه بالتحديد؟!

ابتسم ابتسامة غامضة، ثم قال قبل أن يختفي فجأةً كما ظهر بصوت تردد صداهُ في المكان:

- ستفهمين كل شيء قريبًا يا مايا.

بعد مرور ساعةٍ كُنت لا أزالُ أسبح بين سُطور كتاب الفلسفة عندما انتشلني من تركيزي صوت إحدى الموظفات وهي تَطلبُ مني التوجُه إلى مكتب السيدة أنيتا بسرعة، ذهبتُ فورًا إلى هناك وطَرقتُ الباب فسمحت لي بالدخول، وجدت ذلك الرجلَ الأجنبي جالسًا أمامها على الكرسي واضعًا رجلًا فوق الأخرى وممسكًا بقبعته السوداء.

رمقتُ السيدة أنيتا بنظراتٍ متسائلةٍ عن هوية هذا الشخص، لكنها ظلّت صامتةً تنظُرُ إلي بعينين حزينتين قبل أن يلتَفِتَ إلي وقال دون أن يقوم من مكانه:

- مرحبًا مايا، اسمي جايكوب، وقد جِئتُ من مكانٍ بعيد جدًا لألتقيك.

تدخلت أنيتا وقالت مُعقبةً على كلامه:

- هذا السيد جايكوب لقد جاء من بلد أجنبي من أجلك يا مايا، إنه مسئول عن مدرسة للأطفال العباقرة في إيطاليا؛ حيث يقومون بتكوينهم وإعدادهم ليصبحوا علماء في المستقبل، يمكنهم تغيير العالم إلى الأفضل، أضافت وعيناها مُغرقتان بالدموع:

- لقد كنتُ أتنبأ لكِ دائما بمستقبل زاهر يا مايا، وقد جاءت الفرصة اليوم لتدُقَ بابك يا صغيرتي.

رمقتُ الرجل الأجنبي مرةً أخرى بنظراتٍ حائرة، بينما احتفظ هو بابتسامته المخيفة وقال لي:

- ستكونين سعيدة معنا، فالمدرسة التي سآخذك إليها فريدة من نوعها، وستجدين أطفالًا آخرين بمثل درجة ذكائك، سيُمكنك تبادل الأفكار العبقرية والنظريات العميقة عكس هذا الميتم الذي ستشعرين فيه دائمًا بوحدة فكرية قاتلة؛ فأنت حالة استثنائية ومختلفة عن جميع الموجودين هنا.

ما إن أكمل كلامه حتى ركضتُ صوبَ السيدة أنيتا، وارتميتُ بين أحضانها وأنا أصرخ في وجهه بتحدٍ واضح:

- أنا لا أريد الذهاب معك لأي مكان سأبقى مع السيدة أنيتا إلى الأبد.

ضمتني لصدرها كما فعلت أوّلَ يوم التقطتني فيه من الشارع، وأجهشت بالبكاء بصوت هامس حتى أحسستُ بدموعها الدافئة تُخلِّلُ شعري وتلمس جلده.

لم يكترث جايكوب للدراما الحزينة التي تَحدُثُ أمامه، ورمقَ ساعة مِعصمه الفاخرة بنظرة سريعة ثم قال بتذمر:

- سيدتي كل أوراق تسريح وتسلُمِ الفتاة جاهزة ومَمضيةٌ سلفًا من وزير بلدكم شخصيًا، يجب ألا أتأخر أكثر من ذلك، فهنالك طائرة خاصةٌ بانتظاري في المطار.

أجابته وكأنها تبحثُ عن أي سبب لمماطلته ليطول بقائي معها:

- طائرة خاصة لمايا؟ ثم كيف ستُسافر للخارج وهي لا تملك حتى جواز سفر؟!

لم تَكُن قد أنجزَت كلامها حتى قاطعها قائلاً:

- جواز سفرها بحوزتي وكل شيء جاهز لأخذها، حتى أغراضُها الشخصية فلا داعي لأن تأخذها معها، يجب أن نغادر الآن، فعلينا أن نكون في إيطاليا اليوم قبل الساعة السادسة.

- لماذا كل هذه العجلة؟ دعها على الأقل تُودِّعُ أصدقاءها والموظفين، فهي فتاة محبوبة لدى الجميع وسيفتقدها الكل هنا.

أجابها بنبرة حاسمة:

- سيدة أنيتا سأنتظركم نصف ساعة لا أكثر، وبعد ذلك سنغادر.

عند باب الميتم اصطف العديد من الأطفال والموظفين لتوديعي، لقد قضيت سنتين فقط في ذلك المكان لكنها كانت من أجمل سنوات عمري، فقد وجدتُ الحب والحنان الذي حُرمت منه بعد أن فقدت عائلتي، السيدة أنيتا كانت ملاكي الحارس الذي أرسلته السماء لمراقبتي، فلولاها لكنتُ مِتُ من

الجوع والبرد، كان حبها وعطفها علي وعلى أمثالي كفيلًا بجعلنا نتقبلُ واقعنا المر، وننظُرُ للمستقبل بنظرةٍ تفاؤل، صحيحٌ أن الملاجئ في بلدنا تُعاني النقص في التجهيزات والموارد، لكن ما ينقُصُ الأطفالَ حقًا في ذلك المكان هو العطفُ والمودة والحب، فإن وُجَدُوا غطوا على أي نقصٍ آخر كيفما كان، وهذا ما نَجحت السيدةُ أنيتا في توفيره لنا.

لم أكُن في قرارة نفسي أرغب في الرحيل، لكن غمرني شعور دفينٌ بداخلي أن قدري هو تغييرُ العالم والسمو به نحو الأفضل، وتلك كانت فرصتي للقيام بذلك، فكما قال جايكوب عالمُنا مليء بالحُزن والألم، وربما قدري أن أُغيرَ تلك الحقيقة البشعة، لهذا أملِك ذكاءً استثنائيًا ونجوت من تلك المجازر.

في تمام الرابعة عصرًا وصلنا إلى إيطاليا عبر طائرة خاصة، انبهرت لجمال المدينة وتناسُقِ بنيانها وأنوارها المضيئة، نزلتُ من الطائرة وأنا أراقب السماء بفضول، فقد كانت مُتخمَةً بالسُّحب الرمادية الكثيفة عكس بلدي الهند، حيث تشرقُ الشمسُ في أغلب شهور السنة، ركبنا سيارة فاخرة كانت بانتظارنا، أخذتنا عبر طريق طويل إلى خارج المدينة، عند حلول الظلام توقفت أمام باب كبير، ترجَّل السائق وفتح لنا باب السيارة، خرج جايكوب وأنا أتبعه، ومشيت بخطوات مترددة وأنا أنظر إلى ضخامة ذلك الباب الذي لم أتبين شكله، فقد كان الضباب الكثيف والظلام الحالك يحيطان به كل

الإحاطة، بعد لحظات فتح الباب محدثًا صوتًا قويًا فانقشع الضباب من حوله ليظهر شكله الفولاذي المستطيل، يتوسطه نقش ذهبي لنجمة سداسية، أشار جايكوب إلى الداخل وهو يقول لي:

- مرحبًا بكِ في المعهد السري يا مايا هنا ستعيشين وتتعلمين، ستتغير نظرتك عن العالم، وتكتشفين أسرارًا جديدةً لا توجد في العالم الخارجي، فأنت من المختارين العشرة، ألقي بنظرة حولك ففور دخولك سيصبح مُحرمًا عليك الخروج من المعهد السري حتى تكملي تكوينك.

نظرتُ إليه باستغراب وسألته.:

- وكم عدد سنوات التي يجب أن أقضيها هنا في المعهد؟

سكتَ قليلًا ثم أجابني بنبرة غريبة:

- سبعة سنوات إن تمكنتِ من النجاة.

لم أفهم معنى كلامه وهو لم يوضحه لي، دخل وأنا أتبعه بخطواتٍ مترددةٍ، وأفكر في كل كلمة قالها لي، سمِعتُ الباب الضخم يُغلق تلقائيًا خلفي وأنا أعبر خلف جايكوب نحو مستقبل مجهول.

الفصل الثامن

حراس الدعاء

- مكسيم كوزلوف-

ارتشفت مايا أخر جرعة من كأس الخمر ثم وضعته أمامها، وقالت وكأنها تخلصتْ من عبء ثقيل تحمله في صدرها:

- الآن أنت تعرف كل شيء عني منذ يوم ولدت حتى دخلت المعهد!

مرّر مكسيم كفهُ الخشنة على رأسه الأملس، وقال وقد حلّت على وجهه ابتسامة رضا:

- نعم معك حق! لقد أرضيتِ فضولي يا مايا فقصتك غريبة فعلا! ظهور جايكوب في حياتِكِ يشبهُ لحدٍ كبير ما حدثَ معي، هل تعلمين أنني اشتقت إليه، ذلك الرجل كان أسطورة حقًا، لن أنسى أبدًا اليوم الذي أحضرني فيه أنا أيضًا إلى المعهد السري، لقد كان رجلًا يُجيد التحكُمَ بكل ما أراد التحكُمَ به من قلبٍ وعقلٍ وتفكير، في سنواتنا الأولى في المعهد كنا نراهُ شيطانًا في هيئة إنسان، مريضًا بأنانيةٍ جافةٍ وتصرفاتٍ سادية اختطفنا ليعبثَ بعقولنا كما يريد، لكن بعد مرور السنواتِ اكتشفنا الحقيقة وعرفنا أننا مُختارون لدورٍ أسمى، لذلك تبددّتْ تلك الصُورة القاتِمةُ عنه وانقلب الكره حبًا بَلغَ درجة التقديس.

أومأت مايا برأسها موافقةً وقالت له بحماس:

– إنه دورك الآن لتُخبرني عنك يا مكسيم فبِقَدرِ كونك فضوليًا تجاه الجميع كُنتَ تحتفظ بأسرارك لنفسك ولا تُشارك بها أحدًا.

طلَّت ابتسامةُ فخرٍ من شفتيه وكأنها مَدحتهُ وقال:

– السِريّةُ شرطٌ لازمٌ يا مايا فهي تجعلُكَ تُحِسُّ بكيانك، وتستطيعُ من خلالها فرض قواعد مضبوطة تحكُمُ علاقتك بالآخرين فتكون أنتَ المُتحكم بزمام الأمور وليس هم، المشكلة في أن الناس الذين يثقون بنا ثقةً تامة يعتقدون أن لهم الحق أن يحوزوا على ثقتنا بهم ذلك غير معقول! لأن الهبات التي يقدمها الإنسان لا تمنحه أي حق.

أجابته مايا:

– أنت دائمًا كما عهدتك تعشقُ اقتباس جُملك من "نيتشيه".

سكتَ قليلًا كأنه يُفكر، ثم تنهد تنهيدة طويلة واضعًا يديه خلف رأسه لِتظهرَ عضلاته البارزة وقال:

– أنا أجد أن أفكاري ونظرياتي تتفقان مع أفكاره وفلسفته، لو لم يكن مُحرمًا علينا كتابةُ ونشرُ أفكارنا لكُنت أشهرَ منه اليوم.

– أنا أتفِقُ معك في موضوع حفظ الأسرار، فكما يقول صديقك نيشتيه: "نادرون من لا يتاجرون بأسرار أصدقائهم عندما لا يجدون موضوعًا شيقًا للمحادثة"، لذلك كنت متكتمةً جدًا.

أجابها ضاحكًا:

- أنت أيضًا تحبين اقتباس كلماتك منه!

اعتدل في جلسته ثم حسم قراره بعد تفكير سريع وأكمل:

- معك حق! لقد تخرجنا من المعهد منذ سنواتٍ طويلة، ولن ينفعنا إخفاءُ أسرارنا بشيء، فنحنُ نتقدمُ بالعمر وحياتنا تكتبُ سطورها الأخيرة الآن، ولا أريدَ أن أموت وتبقى قصتي طي الكتمان، سأُخبِرُكِ بكل ما كنت أخفيه عن طلابِ المعهد من أسرار.

- هل تعلمين يا مايا أن قصتك أيقظت في داخلي إحساسًا دفينًا كنت أُحاول تجاهله منذ سنوات، مع أنني كنت دائمًا سجين وجوده؟! قبل ساعة فقط كنتُ أحسب أنني الطفلُ الوحيدُ في المعهد الذي التحق وهو يَحمِلُ حُزنًا عميقًا في صدره، فكما قُلتِ كنتُ فضوليًا وحاولتُ الاختلاط والتقرُب من معظم الطلاب العشرة لاكتشاف أسرارهم رغم تحفظهم وحرصهم الشديدين، وقد استنتجت أن أغلبهم من أُسرٍ ميسورة أو حتى ثرية مثل فرناند، أما أنتِ فقد استعصى علي آنذاك تحليلُ واستيعاب شخصيتك المركبة!

قالت وقد زاد اهتمامها:

- ما أعرفه عنك فقط أنك روسي صحيح؟

- أنا لست روسيًا أنا من أوكرانيا، فكما تعلمين أنها كانت جزءًا من الجمهورية السوفييتية قبل تفكُكِها ونيلِها لاستقلالها، وكانت تُسمى من قبل بأوكرانيا السوفييتية.

أجابته والذهول يملأ وجهها:

- لقد كنت دائمًا أظن أنك روسي!

ضحك ضحكة خفيفة ثم قال:

- كل طلاب المعهد كانوا يظنون ذلك.

أسند ظهره إلى الخلفِ، وتنّهد تنهيدةً طويلة وأضاف:

- هل تعلمين أنه عندما كُنتِ تلعبين في الأزقة مع صديقتك تلك، كُنتِ على الأقل حرة، أما أنا فقد ولدتُ وعشتُ طفولتي في السجن؛ انفلت الكأس الفارغ من يد مايا من هَوْل المفاجأة واصطدم بالأرض مُصدرًا صوتًا رنانًا كسرَ هدوء الغرفة دون أن ينكسر، ونظرَت إليه باندهاشٍ وهو يُكمِل حديثه ويغوصُ في ذكرياته:

أوكرانيا سنة 1959:

أصعبُ شيء يُمكن أن يحدُث لك في الوجود هو أن تُولد في العائلة الخطأ، ترثُ منها آثامًا لم ترتكبها وعقابًا لا تستحقه، بينما يُولد أطفالٌ آخرون على أفرشة وثيرة وينعمون بالحب الأبوي تجرّعتُ أنا منذ نعومة أظافري الألم والمعاناة قبل أن أستوعب معناهما.

أمي كانت تلميذة شابة تعيشُ في قريةٍ صغيرة تدعى دولين، وقعتْ في حب شابٍ غريب جاء صدفة إلى المدينة، واحدٌ من أولئك الذين إذا أعجبتهم فتاة جميلة يفرشون لها الأرض وردًا، بعد قصة حب خاطفةٍ تقدّم لخطبتها من

والدها، لكنه رفض تزويجها إياه بداعي أنه غريبٌ عن القرية، ولا يملك عملًا مستقراً، لكن أمي تحدت قراره وهربت مع حبيبها إلى مدينة كييف، وهناك قررا بناء حياتهما من جديد، لكن بعد بضعة أشهر وبسبب قساوة العيش والفقر تلاشى حبه لها واختار دون تفكير التخلي عنها.

استيقظت أمي في يوم من الأيام ولم تجده، اختفى فجأة كما ظهر دون حتى أن يودعها، لسذاجتها لم تكن تعرف عنه شيئًا سوى اسمه، بحثت عنه في كل مكان لكنها لم تجده، كانت صدمتها قوية فقد تركها تتجرعُ مرارة الوحدة وصُعوبة الحياة، امتهنت العديد من الحرف، باعت السجائر وغسلت الصحون، بل نظفت المداخن أيضًا، كل شيء لتستطيع سد رمقها، فهي لم تقدر أبدًا على العودة إلى بلدتها ومواجهة والدها القاسي بعد أن عصت أوامره وهربت.

بعد شهور من التنقل بين الأعمال المختلفة رمتها الأقدار إلى محل لبيع الملابس الجاهزة يملكه أحد تجار المدينة، روت له قصتها فعطف عليها ووافق على تشغيلها.

شيئًا فشيئًا تعلّق بها ذلك الرجل وحاول التقرب منها بشتى الوسائل، لكنها كانت ترفضه وتصده دائمًا؛ لأنها لم تكن ترغب بأن ينفطر قلبها مجددًا وتتجرّع مرارةَ الذل والانكسار، لكنه كعادة الرجال الذين إذا تكلّمت غريزتهم العمياء جروا خلفها كالعميان دون التفكير في العواقب، حاول

إغواءها، ووعدها أنه سيُطلقُ زوجته ويرتبط بها، ظل يراودها شهورًا حتى تعلقت به، فالفقر العاطفي كفيل بأن يجعل المرأة لقمة سائغة لأي رجل، أحبته لينتهي بها المطافُ واضعةً قلبها وجسدها بين ذراعيه، سلّمت له أحلامها وروحها وأمالها، لكنه وكعادة الأنذال عديمي الأمانة إلتهم ما بقي من كرامتها دون رحمة، فما إن أشبع رغباته الحيوانية منها حتى دهسها بقدميه واحتقرها وأهانها، نعتها بالعاهرة التي لا تصلح للزواج، ولن يتخلى عن زوجته من أجلها، ذبح روحها بكلماته المسنونة، ثم طردها ذليلة من متجره.

اعتزلت أمي العالم أيامًا تذرف دموع الحسرة والألم، كادت الصدمة تلقي بها إلى هوة الجنون، وبدأت تفكر بالانتحار لولا أن عزمت أن تنجو منه وتلقي به هو إلى هوة الموت، فقد تمثل في شخصه كل المآسي التي قاستها طيلة حياتها، ظلم الزمن وقساوة العيش، وحبيبها الأول الذي تخلى عنها.

في اليوم التالي توجهت إلى متجره، كان منهمكًا في التحدث لبعض الزبائن، وقفت أمامه وأخرجت سكينًا تخفيه في ثيابها وباغته بطعنة في عنقه ففار الدم منه.

سقط على الأرض متخبطًا في دمائه وهو يصرخ، جلست فوقه بجمود ووضعت يدها على موضع نزفه فتخضبت باللون الأحمر، مسحته على وجهه لتُخفي به ملامحهُ المفزوعة، ثم بدأت بطعنه بقوةٍ في موضع قلبه طعناتٍ متتاليةٍ

لا تنتهي، وهو ينتفضُ ويرتعشُ وسط ذهول الزبائن الذين تَجمدوا مذهولين أمام المنظر البشع.

بعد دقائق جاءت الشرطة لِتعتقِلها، كانت لا تزالُ جالسةً فوقه وتُغني أغنيةً للأطفال، نظرت إليهم وابتسمت وأخبرتهم ببرود أنها ارتاحت الآن من كل همومها ويُمكنهم أخذها حيث يشاءون.

كشف التقرير الطبي أنه تعرض لاثنتين وعشرين طعنة، لقد كان عمر والدتي آنذاك، ربما أرادت أن يتجرع مرارة وألم كل سنةٍ عاشتها في حياتها التعيسة.

حُكم عليها بالسجن المؤبد ونقلت إلى سجن **Lukyanivska** ؛ أخطر سجون أوكرانيا. وبعد وصولها بيومين فقط اكتشفت أنها حامل بي من ذلك الرجل الذي أزهقت روحه بيديها، طلب منها الأطباء إجهاض الجنين لكنها كانت ترفضُ وتقول إن الحياة زرعت في رحمها فرصةً أخرى لتستطيع أن تحيا من جديد.

بعد تسعة أشهر رأيت النور أول مرة في مستشفى السجن، فتحت عيني وسط المجرمات والعاهرات والمدمنات، أشفق المدير على حالة أمي فأمر بوضعها في زنزانة منفردة لتتمكن من الاعتناء بي، بعيدًا عنهن، ثم أرسل التماسًا إلى الإدارة المركزية لتتمكن من الاحتفاظ بي لعدم وجود أقارب لها، فنالت موافقةً استثنائية بحق رعايتي حتى أبلغ خمس سنوات.

كانت زنزانتنا صغيرة طولها ثلاثة أمتار، بها شباك صغير مربع الشكل بقضبان معدنية، تتسلل من خلالها كل صباح أشعة الشمس المائلة لتلقي بضوئها على الأرضية؛ مشكلة بقعة وهَّاجة مربعة الشكل تكسر الظلام.

بسبب البرد ورطوبة الزنزانة كانت أمي تضعني دائمًا في تلك البقعة لأشعر بالدفء، عندما بدأتُ أتعلم المشي كنت أمشي وحدي بخطواتي الطفولية نحوها، وأحاول لمس تلك الخيوط الصفراء المشعة بيدي الصغيرتين، كانت تلك متعتي الوحيدة في تلك الغرفة المظلمة الباردة.

كانت أمي مسيحية أرثودوكسية، تُعلقُ صليبًا في الغرفة، حصلت عليه من إحدى النزيلات، تجثو على ركبتيها كل يوم لتصلي وتتضرع، ثم تقول لي فور انتهائها إن الرب سينزل يومًا من الأفق القدسي الأعلى عبر ذلك النور ليشملنا برحمته وعفوه ويطهرنا من خطايانا، ثم سيصعد بنا إلى السماء العليا، بعيدًا عن السجن القذر الذي نعيش فيه.

عندما كانت أبواب الزنزانات تُفتح في أوقات الاستراحة، كانت السجينات يتهافتن بالعشرات علينا، فقد كُنت التسلية شبه الوحيدة لهن في ذلك المكان الكئيب، كُن يتناوبن على حملي واللعب معي، تتلقفني الأيدي هنا وهناك، وكل واحدة منهن تبحث من خلالي عن الحنان والحب الضائع الذي حرمهن السجن منه.

حتى الحارسات العابسات عادة كن يبتسمن عندما أخرج للساحة ويستقبلنني بشغف وحب كبيرين.

بدأتُ أكبرُ شيئًا فشيئًا وأصبح نظام السجن هو نظامي، وقوانينه الصارمة أسلوب معيشتي، كنت أجهل وجود عالم آخر غيره، الأكل والنوم والاستيقاظ في أوقات محددة وحتى الخروج إلى الساحة للعب بوقت محدد، عندما أفتح عيني في كل صباح كنت أنظر مطولًا إلى ذلك النور المتسلل للغرفة، وأنتظر نزول الرب ليخلصنا من معاناتنا كما أخبرتني أمي، لكن الأيام مرّت ولم ينزِل المخلِّص أبدًا.

الناس لا يتذكرون عادة سنوات عمرهم الأولى، لكنني أتذكر كل شيء عن ظهر قلب، فلقد كانت تلك موهبتي التي جعلتني مميزًا، فقد كنت أملك ذكاءً حادًا وقدرة رهيبة على تذكر أي شيء، ولقد فطنت أمي لهذا الأمر، ودأبت على تعليمي القراءة والكتابة، ساعدها في ذلك مدير السجن الذي كان يحضر لها الكتب والمراجع لمساعدتي، فكنت لا أنسى كلمة أتعلمها أو حرفًا أكتبه، وعند بلوغي سن الرابعة كنت قد تعلمتُ القراءة والكتابة جيدًا وسط ذهول المحيطين بي وأولهم أمي.

في أحد الأيام وصل أمي بلاغ من الإدارة أنني يجب أن أترك السجن وألتحق بالميتم.

كان الخبر صدمة كبيرة لها، ولم تفارق الدموع مقلتيها، فقد كان بإمكانها تحمل أي شيء في الدنيا ماعدا فراقي، كان صوت المدير وهو يُعْلِمَها بالخبر كنعيق غراب يؤذن في أذنيها بالموت.

بعد أسبوع من انتشار الخبر في السجن جاءت مشرفة الميتم لتأخذني، لن أنسى أبدًا لحظة فراقي مع أمي، كنت أبكي بحرقة، وتلك المرأة الغريبة تقتلعني من بين أحضانها، جرتني من كتفي في الممر الطويل وأنا أسمعُ صراخها وتوسلاتها بعد أن أغلقوا عليها الزنزانة وتركوها تتوسل للمخلِّص الذي لايزال يأبى النزول.

بالنسبة لي لم يكن الأمر سهلاً، لم أكن قد غبتُ عن ناظريها ولو لمرة واحدة في حياتي، أحسستُ بالألمِ ينهشُ روحي، وغمرني اليأس رغم أنني في الوقت نفسه كنتُ متحمسًا ومُتشوقًا بفضول لاكتشاف العالم الحقيقي، فقد استوعبتُ من الكُتبِ التي كانت تقرأُها لي أُمي أن السجن أَسوأ مكانٍ في العالم، وأن كل من هُم حولي ليسوا أحرارًا، بل سجناء أقدموا على أفعالٍ شنيعة، تشوقتُ لاكتشاف ما اسمته الكُتب بالحرية، حيث يُمكنك أن تأكل وتخرُجَ وتَلعب وتتعلّم دون الخوف من سماعِ صوت الصافرة، وأن تنام دون أن تُوصد عليك أبوابٌ حديدية صماء، والأهم من ذلك لا وجود لحراسٍ عملهم الوحيد هو مراقبة أفعالك طيلة اليوم.

اقتادتني المشرفة نحو سيارة سوداء طويلة، كُنت خائفًا ومُرتبكًا، لم أقدر على الالتفات إلى الوراء، وانطلقنا نحو ذلك المكان الجديد الذي سيُصبح منزلي.

لم أكن قد غادرت السجن قط، في الطريق ألصقتُ وجهي بزجاج النافذة لكي لا أُفوِتَ شيئًا إلا ورأيته، أناسٌ يلبَسونَ ملابس نظيفة وجميلة تختلف تمامًا عن تلك البِزِزِ التي ترتديها النزيلات، صُدمت لأعداد وأشكال السيارات التي تجول الشوارع والطرقات العريضة الممتدة إلى ما لا نهاية، لقد كانت تختلف عن تلك العربات المصفحة السوداء التي تزُور السجن يوميًا، والتي كان صوت محركها يخيفني، أكثر شيء أبهرني وجعل اللعاب يسيلُ من فمي من فرط الاندهاش كان نهرًا مررنا عبره فوق القنطرة، فلم أكن أتخيل أبدًا أن تجتمعَ كمية مياه كهذه في منطقة واحدة، لقد كان فعلًا منظرًا لن أنساه ما حييت.

وبينما أنا أتخبطُ بين الانبهار والذهول رمقتني المشرفة مُطولًا بنظراتها، وقالت بسخرية مكتومة:

- مرحبًا بك في العالم الحقيقي أيها الصغير، أنت تنتمي إلى هنا، وليس لذلك السجن القذر الذي يعيشُ فيه المخطئون.

أجبتُها ببراءة طفولية:

- أمي وصديقاتها لَسنَ بأشخاص سيئين، فهُنَّ عائلتي!

ابتسمت بتشفٍ وكأنها عدل الإله ينَزلَ لمُحاسبة المُخطئين قائلة:

- السجيناتُ ساقطاتٌ لا يقربن إليك بشيء، وأُمُكَ كافرة مذنبة، عليها التوبة للرب وطلبُ الرحمة والمغفرة، قبل أن يَحصُدَ ملكُ الموتِ روحها الكريهة ويُلقيها في الجحيم لتذوق العذاب الأبدي.

نظرتُ إليها مندهشًا، فلم أستوعِب سبب كلامِها القاسي ونظراتها الشريرة التي ترسلها نحوي بثبات.

أتذكر تلك العجوز الشمطاء جيدًا كما كانوا يُلقبونها في الميتم، كانت امرأةً في الخمسينيات من عمرها، تُخرِجُ لسان الخيبة في وجه الأمل، ترتدي فُستانًا أسود مُحافظًا كفساتين الراهبات، وتضعُ حول عُنقها صليبًا وعلى عينيها نظاراتٍ سميكةً، بينما جمعتْ شعرها الذي أفقدهُ الشيبُ سوادهُ بمشطٍ أبيض.

بعد ساعات وصلنا إلى المكان الذي سأمضي فيه ما تبقى من طفولتي، مكانٌ أظلَمُ من السجنِ وأتعسُ منه، أطفالٌ كُدِّسوا كعلبِ السردين في غُرَفٍ مًتفرقة، لم ألحظ فرقًا كبيرًا بينه وبين السجن، على الأقل هناك كُنتُ أحظى بعنايةٍ خاصةٍ، فكلُ النزيلاتِ كن طيباتٍ معي، أما هنا فلستُ سوى طفل كغيري من الأطفال.

أدخلتني المشرفة إلى إحدى الغرف الكبيرة التي تجمعُ أكثر من أربعين ولدًا، وعينتْ لي سريرًا فارغًا مُلتصقًا بالحائط، وُضع عليه غطاءٌ شبهُ ممزّقٍ

وفوق السرير نافذةٌ زجاجها مكسور، تحملقَ الأولاد حولي ينظرون إلي بفضولٍ قبل أن ينهالوا علي بسيلٍ من الأسئلة عن اسمي ومن أين جئت، لكنني لم أنبس بإجابة أبدًا، فالرُعبُ كاد يقتلني؛ لأنها كانت أول مرةٍ في حياتي أرى فيها أطفالًا في مِثلِ سني.

في تلك الليلة انكمشتُ فوق ذلك السرير ذي الأزيز المُزعج، والتَحفتُ بالغطاءِ الذي تَفوحُ منه رائحةٌ كريهةٌ كرائحةِ الحليبِ الفاسد، حاولتُ النوم لكنني لم أقدر، فالبردُ القارسُ كان يتسرّبُ من النافذة ويبعثُ في جسدي القشعريرة، أمضيتُ الليلة مُستيقظًا وأسناني تسطكُ وأنا أُفكر في حُضن أمي الدافئ.

عندما بزغت أشعةُ الشمسِ وبدأ الدِفء يتسلّلُ ببطء إلى الغرفة أغمضتُ عيني مُستسلمًا للنوم والعياء، لكن ما إن غفوتُ حتى اخترق أُذني صوتُ صفارةٍ قوي في الغرفة يكسِرُ الصمت، قُمتُ من مكاني فزِعًا على صراخِ المُشرفةِ وهي تأمُرنا بالوقوفِ في صفٍ مُستقيم وإسقاطِ سراويلنا الداخلية، مرّت من أمامنا ونحن عراةٌ وهي مُمسِكةٌ بعصًا خشبية خلف ظهرِهاَ وتَتفحصُ بها سراويلنا، ومن تجدُ عليه قذارةً كان عقابهُ الضربَ المُبرح والحرمانَ من الإفطار.

لم أَفهم سبب ذلك التصرفِ المُشين الذي كانت تقُومُ به بشكلٍ يومي فمن يراها أول وهلةٍ يظنُها قديسةً من القديسين، لكن ما أن تعاشِرها لأيامٍ

وتراقبَ تصرفاتِها المشبوهة عن كثبٍ تكتشِفَ بسرعةٍ أن فيها عِلة نفسية، لذلك كانت تضربنا إن وجدت سراويلنا مُتسخةً نكايةً بنا.

كان النظام صارمًا وقاسيًا في الملجأ، البرد ينخرُ أجسادنا بالليل والجوعُ ينهشُ بطوننا بالنهار، ومن كان يشتكي يكون مصيره الضربَ المبرح، عندما كانت تلك المشرفة الشمطاء تغضبُ من أحدهم كانت تصبُ غضبها على الجميع، ولم يكن أحد يتجاسرُ على عِصيانها، وكل من كان يحتّجُ كان يتعرّضُ للضربِ ويُحرم من الأكل، بل يُسجن في إحدى غرف القبو المظلمة.

إنه لأمر غريب فعلًا أن ترتاح في السجن أكثر من ارتياحك في الميتم، هناك كانت لدي حياةٌ على الأقل رغم قساوتها، أما هنا فعيشٌ فقط!

الموظفون والعمال القلائل لم يكونوا أفضل حالًا منا نحن الأطفال. فقد كانوا يعيشون في ذل وهوان ولا يسلمون من تحقير واستفزاز تلك المجنونة العجفاء التي لا تتردد في صب غضبها عليهم أيضًا.

منذ مغادرتي السجن لم تسمح لي يومًا بزيارة أمي، كان عذرها الدائم أنني سأتخذها قدوة سيئة في حياتي، ذلك ما زاد من حدة غضبي وسخطي الشديد عليها، وهكذا بدأتُ تدريجيًا أتحول من طفل مطيع مهذب إلى فتى شقي وشرس.

التحقتُ بمدرسة الميتم أو بالأحرى شبه مدرسة، قسم كبير حُشر فيه الأطفال من مختلف الأعمار، لا يتعلمون شيئًا سوى الحروف الأساسية وبعض

الكلمات، بدأ الفرق يظهر جليًا بيني وبين التلاميذ الأخرين الذين زاد كرههم لي لتفوقي الطبيعي عليهم، فقد جمعت القوة البدنية والذكاء، حتى ذلك المعلم الهزيل الأخرق كان يتحاشى أسئلتي المحرجة التي لم يكن يملك القدرة على الإجابة عنها.

مرتِ الأيامُ سريعًا وزاد انعزالي عن الأطفال، فلم أستطع الانسجام معهم، كنتُ أشعرُ أنني من طينةٍ مختلفةٍ، حتى ولو كنا نتقاسمُ ظروف العيش المُزرية نفسها، فقد كنتُ أفوقهم قوة جسدية وذكاءً رغم صِغرِ سني.

نظراتُهم الفُضوليةُ والساذجةُ وخوفهم غير المُبررِ من شكلي الضخمِ لم يكن يزعجني، بل كان يجعلني أشعر بالفخر.

مرت السنوات، وكبر جسدي بسرعة واتسع صدري، كان الأولادُ الكبارُ يحاولون مضايقتي ويلقبونني بالضخم، لكنني لم أكن أكترثُ لهم ولا أُكلف نفسي أن أجيبهم، أو حتى أن أعتبر أن لهم وجودًا، كان أشدهم قسوةً ولدٌ متنمر اسمه أليكس، يملكُ عينًا واحدة، الأخرى فقدها في إحدى المعارك التي اعتاد خوضها وهو يتسكعُ في شوارع كييف، قبل أن تَقبِضَ عليه الشرطة وترميه معنا، كان قوي البنية ويكبرني بسنواتٍ، وكان عين المشرفةِ التي تُراقب كل شيء، ورسولَ الشر الذي يُخبرها بكل ما يحدثُ بين الأطفال.

لم أكترث يومًا لمضايقاته، ولم أتملقه طمعًا في حمايته، ذلك ما زاد من حدة غضبِهِ علي، حتى جاء ذلك اليوم، كنت جالسًا في المطعم، تقدم نحوي وهو

يتمايل بفخر كالطاووس، أمسك كوب ماء وسكبه على رأسي دون مقدمات، ثم انفجر بالضحك أمام أنظار الجميع، قمتُ من مكاني بهدوء دون أن أتكلم ووجهتُ إليه ضربةً واحدة إلى صدره فسقطَ ملتويًا كأنه مصروعٌ يتشنّج، سقطَ وسقطت معه هيبته الزائفة. منذ ذلك اليوم لم يتعرّض لي أحدٌ بمضايقةٍ أبدًا وأصبح الجميع يلقبونني "بالوحش الصامت"، رغم أنني لم أسلم من انتقام المشرفة التي اغتاظت لإهانتي كلبها المُدلل، فحرقَت كل الكُتب التي أحتفظ بها، وأجبرتني على تنظيف المراحيض لعدة أيام بدل الذهابِ إلى المدرسة.

على السريرِ المقابلِ لسريري كان ينامُ طفلٌ نحيف جدًا أصغرُ مني اسمه يوري، كان مثلي يُحبُ الانزواءَ ويتجنبُ مخالطة الأخرين، نظرته الحزينة الدائمة كانت تدعوني للدهشة والاستغراب، كنتُ أحبُ استراق النظر إليه، ومحاولة فهم طبيعته الضعيفة وطيبته الزائدة! كان بخوفه الدائمِ ومعاناته مع مرض الربو يثير شفقتي وحيرتي في الوقت نفسه، حتى المُتنمرون والأشقياء تركوه وشأنه، لأنهم لم يجدوا أبدًا مُتعةً في معاكسة طفلٍ مريضٍ ومُتهالك.

في أحد الأيام كان مريضًا جدًا ويشعرُ بمغصٍ شديد في بطنه، دخلتِ المُشرفة كعادتها في الصباح وطلبت من الجميع نزعَ سراويلهم لمراقبة نظافتها، لكن المسكينَ كان قد تغوط قبل ثوان عن غير قصدٍ في ملابسه، استشاطتِ المُشرفة غضبًا فضربته على رأسه بقوة حتى سقط أرضا يتأوه، انفلتت من يده

أداة الاستنشاق التي يستعملها فسحقتها بكعب حذائها العالي ببرود؛ زحف يوري نحو جهازه وهو يبكي، محاولًا بيأسٍ إصلاحه لكنه تحطّم للأبد.

لم يكترث له أحد، بدأنا ننام ونستيقظ ُعلى صوت سُعاله وصفير صدره لأيام حتى اعتدنا عليه.

بعد أسبوع سمعنا صوته وهو يسعلُ سعالًا مُختلفًا، كان قويًا جدًا وحادًا، ظلّ يصرخُ طالبًا جهاز استنشاق جديد، لكن لا من مجيب، فلم يملك أحد الجُرأة للذهاب إلى المُشرفة وإخبارها بضرورة إنقاذ يوري.

عند حلول الفجر خَفتَ صوته ثم اختفى تدريجيًا، ولم نعُد نسمعُ شيئًا من سعاله، ثم عند استيقاظنا اكتشفنا موته.

تأثر كل الأطفال وحتى العُمالُ، وخيّمَ حزنٌ عارمٌ على الملجأ، في تلك اللحظة انتابني غضبٌ عارمٌ، وشعرتُ بأنني أتحمل مسئولية موته على عاتقي لأنني لم أتدخل، وعلِمت أنه قد حان الوقت لأُغيرَ الوضعَ وأملك مصيري بيدي، فقدعلمتني الكُتبِ أنه يجبُ ألا يفقِد المرء احترامه لذاته، فإن فعل صارت رقبته لُعبةً بيد جلاده.

الثورة تُولد من رحم المعاناة، لذلك قرّرتُ في ذلك اليوم أن أصبح شبح تلك العجوز الحقيرة، وأُعلّمها أن الميتم مِلكٌ للأطفال وليس لها، حشدتُ مجموعةً من الأطفالِ الذين تأثروا بموتِ الصبِّي، وخرجنا نصرُخُ في الساحة وتَبِعَنَا أطفالٌ أخرون حتى التحق بنا أغلبُ أطفال الملجأ.

توجهتُ إلى أحد الصناديق الخشبية في الساحة، وصعدتُ فوقه وصرختُ بأعلى صوتي:

- "يوري لم يمت بل قتله الإهمال".

دبَّ صرير بين الحاضرين تلته همهمات استنكار خافتة.

جاءت المشرفة بسرعة وتقدمتِ وسط الحشود فساد الصمتُ فجأةً بينهم، الجميع كانوا يشترون سلامتهم بالخضوع والإهانة والصمت، لكنني قررتُ أن أكون مختلفًا عنهم وأُصبِحَ التغييرَ الذي حلُمتُ أن أعيشه، ما إن لمحتها قادمة نحوي حتى رفعتُ من حِدة صوتي وأنا أرمقها بنظرات تحدٍ أرسلها مباشرة إلى عينيها، فاقتربت مني غاضبة وصفعتني قائلة بصوت عالٍ وأمام جميع الحاضرين:

- "أُصمتُ يا ابن العاهرة، يا خريج السجون، موت يوري كان خطأً، فلم أعلم أنهُ يحتاجُ لذلك الجهاز بشدة، ولم يُبلغني أحد منكم بالليل أنه مريضٌ جدًا لكي أستطيع التدخل".

لقد كنتُ برميلًا من البارود قابلًا للإشتعال في أي لحظة، وكانت صفعتُها هي الشرارةَ التي فجرتني، لم يترُك لي الغضبُ فرصةً لتدبر العواقب، فقد طعنت تلك البلهاءُ في شرف أمي وقدمت أعذارًا واهية لتُغطيَ وفاة واحد من منا، ارتميتُ دون شعورٍ على وجهِها وبدأت أضربها بقبضتي القوية حتى سال

أنفها وفمها دمًا، أسقطتُها أرضًا أمام ذهول العاملين الذين حاولوا التدخُلَ فحاصرهم باقي الأطفال الذين يفوقونهم عددًا.

تكلم الوحش الصامت أخيرًا، وثبتُ فوقها وخطفتها من شعرها وجررتها كأسد ثائر لمسافة عشرين مترًا في الساحة وأمام أنظار جميع الأطفالِ الذين بدأوا بالتهليل باسمي بصوت عالٍ " مكسيم مكسيم"...

زاد حماسي واشتعل غضبي أكثر فقيدتُها على عمود حديدي في الساحة، ثم أحضرتُ بنزينًا، صببته عليها ثم أضرمتُ النار في جسدها بالكامل، أحسستُ أن تلك النيران التي تُحرق جسدها الملعون تُطفئ نار روحي المُشتعلة منذ سنواتٍ، كنت أشاهدها تحترقُ أمامي وتصرخُ بأعلى صوتها، وكلما زاد صوتها حِدةً غمرتني سعادةٌ أكبر، في تلك اللحظة بالضبط أيقنت أنني وَرِثتُ غريزة الانتقامِ من أمي.

جاءت الشرطة لتعتقلني بعد ساعات، وضعوا الأصفاد في يدي واقتادوني وسط هتافات الأطفال وصراخهم الذي لم يتوقف باسمي: "مكسيم مكسيم".

لا زلت أتذكرُ تلك اللحظات، لقد كنتُ أشعر بالفخر وأنا أسمع اسمي وهو يتردد في الأفق، فقد أصبحتُ بطلًا في نظر الجميع، الوحش الصامت الذي خلّصهم من بطش الساحرة الشمطاء، حينها فقط عرفت ما تعنيه كلمة "البطل"، فالجميع يريد أن يصبح بطلاً، لكنه ليس شيئًا عاديًا تفعله كل يوم،

هي فقط لحظة، تتجرد فيها من ذاتك ولا تُحَكِّمُ فيها عقلك، تأخذُ قرارًا شجاعًا واستثنائيًا يَختلفُ عما سيفعله الأخرون، عندها فقط تتميزُ عنهم ويظهر الفرق بينك وبينهم، وتتحول إلى بطلٍ حقيقي يَهتفُ الجميع باسمه.

بسبب حداثة سني أُودِعتُ الإصلاحية بدل السجن، على الأقلِ هناك كانت الظروف أفضل، مكان مألوف يُشبه السجن الذي وُلِدت فيه.

وجدتُ الوقت الكافي للدراسة والتحصيل، كنت أناقشُ وأحلّل أي موضوع بسلاسةٍ، والأدهى من ذلك كنت أحلُ أي معادلة رياضية بسهولة فائقة.

في يوم صيفي جاءت محطةٌ تلفزيونية لتُصور برنامجًا عن الأطفال المعتقلين وحياتهم اليومية، فأخبرهم أحد الموظفين عني وعن ذكائي الخارق، عندما أُذيعَ البرنامج في التلفاز أُعجِبَ الناسُ بعبقريتي، وذاع صيتي في كل أرجاء البلاد، بدأ الناس يأتون لزيارتي ويُرسلون لي الهدايا والكُتب ويحفزونني على الاستمرار، كانت أمي فرحة بي فرحًا شديدًا تتبّعُ أخباري عن كثبٍ عبر الرسائل التي كُنت أرسلها لها، وتُخبِرُ كل السجينات بفخرٍ عن إنجازات ابنها، رغم أنني لم أَتمكن أبدًا من زيارتها.

ثم جاء ذلك اليوم الموعود الذي لن أنساه أبدًا، كنتُ قد بلغتُ الثانية عشرة من عمري، توجهتُ إلى أحد الأقسام الفارغة داخل الإصلاحية باحثًا

عن الهدوء، جلستُ أتصفّحُ كتابًا عن الحرب العالمية الثانية وألتَهمُ معلوماته، بعد لحظاتٍ إذ بشخص غريب يقفُ أمامي.

اقترب مني حتى غطى ظلُّه كتابي وقال مبتسمًا:

- مرحبًا مكسيم ماذا تقرأ؟

رفعتُ بناظري أًحدق في بذلته السوداء الأنيقة، وقبعته الدائرية، متعجبًا من شكله الغريب وأجبته:

- إنه كتابٌ عن الحرب العالمية الثانية.

- وهل تظنُ أن الحقائق المكتوبة في هذه الكُتبِ صحيحة؟

أجبته إجابة كلها ثقة:

- طالما تسميها حقائق فهي صحيحة وحدثت بالفعل! رغم أنني أعلمُ جيدًا أن العديد من الثوابتِ التاريخية مبنية على أخطاءٍ مُتعمدة، فالتاريخ لا يكتبُه سوى المُنتصرون.

- نعم! أنا أعلم أنها أمورٌ حدثت بالفعل في الماضي، لكن من يتحكمُ في تكوينها وصُنع أحداثها؟

- الربُ بالطبع! هو من يملكُ مفاتيح كل شيء ويصنعُ الأقدار.

-إذن فالرب يختارُ ويضع الأحداث وينسج تفاصيل كل شيء! بينما لا يملك الإنسان القدرة على السيطرة على قدره؟!

- لقد أعطانا حيزًا نتعاملُ به يُسمى الإرادة الحرة.

- هذه الإرادة هل هي مُطلقة أم محدودة يا مكسيم؟

- أظن أنها محدودة وتسيرُ بمشيئته فقط، ولا نملك الخيار فيما سيحدثُ لنا في المستقبل وكيف سيحدث.

- ماذا لو كانت تلك الإرادة مطلقة؟ ماذا لو كان الرب قد وهبَ الناس الحريةَ المُطلقة في كل شيء حتى كتابة أقدارهم؟ هم فقط من قيدوا أنفسهم بقيودٍ صنعوها بأنفسهم؟

تبسّم مجددًا وهو يمدُ لي يده وأكمل:

- هل تود أن آخذكَ إلى مكان تتعلمُ فيه كل شيء عن التاريخ؟ فأنا أعلم أن كل هذه الكُتب لن تروي عطشك المعرفي البتة! مكان ستكتشف فيه أسرار الكون وتتعلمُ فيه حقيقة الواقع!

- أجبته وقد صدمني اقتراحه:

- وكيف سأغادر هذا المكان، فأنا مسجون بتهمة قتل؟

تبسم وهو يجيبني:

- لا تقلق، ستخرج من هنا اليوم رغمًا عن أنوفهم أجمعين، فأنت من الطُلابِ المختارين.

سألته بذهول:

-عن أي طلاب تتحدث؟ ومختارون لماذا؟!

أجابني وهو يضعُ قبعته الأرستقراطية على رأسه، وينظرُ إلى ساعة معصمه الذهبية:

- سيحينُ الوقت لتعرف كل شيء، أما الآن فيجبُ أن نغادر، سنسافر بعد ساعات إلى إيطاليا.

- إيطاليا؟! لِن أرحل من هنا قبل أن أزور أمي في السجن.

-لا عليك ستزورها عما قريب في جنازتك!

لم أفهم كلمةً مما قال وانتابني خوفٌ شديد، بعد ساعة جمعتُ أغراضي، وخرجتُ من الإصلاحية دون أن أُودع أحدًا، وسط ذهول الجميع، وأولهم المُدير الذي لم يستوعب كيف أحضر ذلك الرجل أوراق الإفراج عني! في اليوم نفسه سافرنا عبر طائرة خاصة إلى إيطاليا لألتحق بالمعهد السري، وباقي القصة تعرفينه جيدًا.

****

ساد الصمتُ لدقائق تأملت فيها مايا مكسيم مُطولًا ثم قالت بنبرة حزينة:

- قِصتك شبيهة بقصتي يا مكسيم، فكلانا تربى وهو يتجرعُ الظُلمَ والألم، أنا لم أكن أعلم أبدًا أنك تحمِل كل هذه المعاناة في قلبِكَ أنت أيضًا!

ما إن أكملتْ جملتها الأخيرة حتى سمعا صوت الباب يُفتح بهدوء ليظهر من خلفه فرناند.

نظرت إليه مايا بغضب وقالت:

- أصبحت عجوزًا يا فرناند، ولم تتعلم أن تقرعَ الباب قبل دخولك! ثم مَن أعطاك الحق في أن تأخُذ نُسخةً من مفاتيح غُرفتي؟

-أجابها ساخرًا وهو يتجهُ مباشرةً نحو البار ليَصُبَ لنفسه كأسًا:

- ولماذا هذا السؤال؟ هل قاطعتُ أمرًا مثيرًا كنتما تفعلانه؟!

تدخل مكسيم قائلًا بشيء من الاستهزاء:

-أنا متأكدٌ أنك طلبتَ من مدير الفندق نُسخًا من مفاتيح غُرفنا تحسبًا لأي طارئ، فأنت دائمًا حريص أكثر من اللازم يا فرناند.

أجابه وقد تجهّم وجهه وتقوصَ حاجباه:

- وأنت دائمًا مُهمل أكثر من اللازم يا مكسيم، ما الذي أتي بك إلى هنا في هذه الساعة المتأخرة؟

بارزا بعضهما بنظراتٍ حادة قبل أن تتدخل مايا قائلة بنبرة حاسمة:

- كفانا كلامًا فارغًا وأخبراني متى يُمكننا الذهاب.

أخرج فرناند هاتفه الذكي من جيبه وبدأ يضغط بسلاسة على أزراره، وقال وهو يفتح صفحة لخريطة الدار البيضاء تتوهجُ فيها نقطة معينة قائلاً:

- غدًا مساءً سنتحرك، السيد تامر عادة لا يُغادر منزله في الصباح وبعد الظهيرة يذهب مباشرة إلى مقر عمله، ويبقى هناك حتى يُغادرَ العمالُ، بعدها يعود إلى منزله بين التاسعة والعاشرة مساءً.

قال مكسيم بحماس:

- يجب أن نتأكد من أنه ابنه حقيقة وليس طِفلًا تبناه، فأنتم تعلمونَ أن السيد مارك لم يكُن شخصًا غبيًا ليُفكرَ بالإنجاب.

أغلق فرناند صفحة الخريطة ثم أخرج صفحة أخرى ظهرت فيها صورة شخصية لتامر وبجانبها بيانات مفصلة عنه، ثم قال بثقة مفرطة:

- أنا ورجالي نراقبه منذ ثلاثة أشهر، وكل المؤشراتِ تدل على أنه ابنه فعلًا، فقد تغيرت حياته جذريًا بعد وفاة السيد مارك مباشرة.

نظر مكسيم إلى رفيقيه وقد انتابه حماس جارف قائلاً:

- هو إذن يوم غد، وأخيرًا سينتهي عذابنا الطويل.

التفتت إليه مايا وقالت:

- لقد انتظرنا هذه اللحظة منذ زمن طويل يا مكسيم!

وقف الثلاثة يتأملون المنظر البانورامي للمدينة، وغاصوا في ذكريات ماضٍ بعيد جمعهم فيه القدر في مكان واحد، كان القمر مُكتملًا تلك الليلة، يزيد المنظر روعة وجمالًا وعلى صفحته البيضاء المستديرة ترائى للثلاثة صورةُ جايكوب واقفًا ممسكًا قبعته المستديرة، وهو ينظر إليهم، وقد علت وجهه ابتسامة الثقة التي عهدوها فيه منذ أول يومٍ أحضرهم فيه إلى المعهد.

الفصل التاسع
السَّليلُ المُقَدَّسُ

«أيها الإله القادر على كل شيء، تقبل صلوات مَن يحمي مواقيتَ زمنك، انعم علينا بعبادتك، وتجلَ على هذه الحضرة بهيبتك، وصرّف ما بقي من حياتنا في طاعتك،

يا سيد الملكوت الواحد، امنحنا خلاصك الخالد، خلاص كل عابد...

يا إله النور الدائم، لأجلك حشدنا العزائم، امنحنا السلام الدائم، وخلِّصنا من الظلام القاتم، لنَحمي من كل شرٍ قائم، آية من آياتك العظائم، سليلَ الأنفوكار القادم....».

انتهى الحراسً من تلاوة صلواتهم بعد أن قضوا ساعات متواصلة جاثين على ركبهم في هيبة ووقار، يشبكون أيديهم مع بعض حول نجمةٍ سداسية، ويتلون ترانيم غريبة، وقد أحاطوا الغرفة بمجموعة من الشموع تكسِرُ ظلام الغرفة التي أُغلقت نوافذها لتمنع خيوط الشمسِ من التسلل.

تكلم فرناند وهو يمسحُ عبرات مكسيم ومايا بكفه:

- "استعدوا يا إخوة النور لخدمة الرب، سنُغادرُ الساعة الثامنة مساء"،

أومآ برأسيهما مُوافقين، ثم غادرا الغرفة بهدوء.

****

في منزل تامر تسلّل الشعاع الأصفر من النافذة فغمر غرفة النوم بموجةٍ من الدفء والنور، كان يحلمُ حلمًا جميلًا عندما انتشله صوتٌ أنثوي دافئ من غياهب النوم وهو يناديه بنبرة يغمرها الحب:

- تامر ... تامر استيقظ يا حبيبي إنها الظهيرة يجب تستيقظ أيها الكسول لتذهب إلى عملك.

تململ قليلًا وأجابها بصوت متثاقلٍ، وهو يضعُ الوسادة على رأسه، ويتبسم كأنه يعيشُ حلمًا جميلًا لا يريد الاستيقاظ منه:

- دعيني أنام قليلًا يا هدى.

مدّت يدها وسحبت كفّهُ النائمة، وضمت عليها بكلتا يديها لتتحسّس دِفأها، ثم زفرت قائلة:

- ألم تُخبرني أنه عليك الذهاب اليوم إلى المكتبة باكرًا، فلديك عمل مهم يجب أن تُنهيه؟

بالكاد فتح عينيه وقال وهو يواجه بصعوبة سكرات الإستيقاظ:

- نعم أعلم ذلك، لكن أمهليني قليلًا وسأقوم من فراشي!

اتجهت نحو المرآة المُعلقة فوق الكومود، ونظرت إلى وجهها لتضع اللمساتِ الأخيرة عليه قبل أن تغادر وهي تقول بتأفف:

- حسنًا! استمر في سباتك إن أردت، على العموم أردتُ أن أخبرك أنني سأغادر الآن فأبي في انتظاري في المنزل، سنذهبُ لزيارة عمي المريض في مدينة مراكش كما اتفقنا بالأمس وسأتصلُ بك ما إن أصِلَ إلى هناك.

ما إن التقطت أذنه جملتها الأخيرة حتى انتبه من كَسلِه، ووثب من سريره بخفةٍ ليحضنها بين ذراعيه القويتين، ويطبعَ قُبلةً حارةً على خدها، وهو يتأملُ انعكاس وجهها على المرآة ثم قال:

- منذ ليلةِ زفافنا لم نفترِق ولو ليوم واحد! فكيف سأصبر على فراقك ليومين كاملين؟!

ابتسمت وهي تَردُعليه بدلعٍ نسائي مُحاولةً الإفلاتَ من قبضتِه الرجولية:

- ليس باليد حيلةٌ يا تامر، فعمي مريضٌ جدًا، ويجب أن أذهب لزيارته، كل العائلةِ ذاهبةٌ اليوم، ويجب أن أكون بجانبهم في هذه اللّحظاتِ الصعبة.

- كما تريدين يا حبيبتي! أبلغي سلامي لهم، سأدعو لعمك بالشفاءِ من كل قلبي، فأنتِ تعلَمين أنني أُحبُ من تُحبينه.

قالت له بثقة وهي تبتسم:

-نعم أعرف أنك ستفعلُ ذلك! على العُموم لن نفترقَ طويلًا، لأنك وعدتني أنك ستلحقُ بي بعد يومين لتزورَهُ أنت أيضًا، ولا تنسَ أنني سمحتُ للخادمةِ بالذهابِ لبيتها لتزُورَ عائلتها؛ لذا يتوجبُ عليك القيامُ بكل شيءٍ لوحدِكَ في المنزل.

-يومان كألف سنة، فأنا سأشتاقُ إليكِ حتى قبل أن تجتازي عتبةَ الباب.

-ستقتُلني يومًا بكلامِكَ المعسولِ هذا.

- أنت من تقتُلينني كلّ لَحظةٍ بجمالِكَ الفاتِنِ هذا.

انفلتَتْ من بين ذراعيه على غفلةٍ منه، وركضتْ نحو بابِ الغرفةِ مُبتسمةً تُلّوحُ له بيدها لتُودِعهُ، وهو يركُضُ خلفها مُحاولًا بيأسٍ إمساكها من جديد، نزلت بسرعةٍ عبر الدَرجِ، وما كادت تفتَحُ باب الفيلا حتى لَحِقَ بها وسَحبَها من ذراعِها عُنوةً لتسقُطَ مرّةً أُخرى بين أحضانه، داعب خذها الوَردي بأصابعه وهو يقول بصوتٍ دافئ:

- هل تعلمين يا هدى إنني كلما نِمتُ أرى أحلامًا وردية جميلة، لكن عندما أستيقظُ أكتشِفُ أن واقعي أجمل بكثير من الحُلم الذي عِشته! لقد انقضت ثلاثةُ أشهرٍ على زواجنا، ولم أُصدِق بعد أنكِ صِرتِ ملكي!

تأمّلتْ قسماتِ وجهه وخلّلت شعرهُ الناعم بأصابعها الرقيقة ثم قبلته بحرارةٍ وقالت:

- يومان فقط يا حبيبي وسنلتقي مجددًا فلا تقلق!

تنهّد تامر تنهيدةً عميقةً وهو يُشاهدها تُغادِرُ المنزل وتركبُ السيارة التي أهداها لها في حفلِ زفافهما، وما إن اختفت عن الأنظارِ حتى عاد إلى غُرفته مُسرِعًا؛ ليأخُذَ حمامًا ساخِنًا، ويتناولَ إفطاره المُتأخِر ثم غادر المنزل.

كانت الساعةُ تُشيرُ إلى الرابعة عصرًا عندما أوقف سيارته أمام المطبعة، انتبه العمالُ لوصوله، فتيقظوا وضاعفوا من جهدهم.

شبانٌ من مختلف الأعمار بين موظفين وعمالٍ مُكلفين بالطباعة، أغلبهم من العُمال القدامى، وأبناء حيِّهِ العاطلين الذين وافق على تشغيلهم، فرغم محاولاته العديدة فإنه لم ينجح في سلخ مشاعره عن العمل.

ذلك ما جعله يُصبح في وقتٍ وجيزٍ محبوبًا ومعروفًا لدى الجميع، فازدهر عمله بصورة سريعة، الكل يحترمه ويقدره فقد كان عطوفًا وودودًا، يساعد المحتاجين ويشعر بآلامهم، العمال بدورهم كانوا مخلصين له، ومتفانين في عملهم، أحبهم تامر واحترمهم فتعلقوا به وعاملوه بالمثل، رغم أنه كان يضجَرُ أحيانًا من غلو إطرائهم لشخصه.

استقبله عبدالصمد العجوزُ ببشاشةٍ فطرية يغيبُ عنها الرياء، كان يعملُ عند المالك القديم، وعندما اشترى تامر المطبعة لم يطرُده رغم كِبرِ سنه، بل ضاعفَ أُجرَتُه الزهيدَةِ عندما علم أنه يُعيلُ أربعة أطفالٍ بعد وفاة زوجته.

خطف منه مِحفظتهُ الجلدية وسبقهُ للمكتَبِ ولسانُه لا يتوقفُ عن نُطق عبارات الثناءِ والترحيب، تَبِعه تامر عبر الممّرِ وهو يتفقّدُ العُمالَ ويُحييهم بفخرٍ كَرجُلٍ انتصرَ لتوه في الانتخابات، ردُوا عليه التحية بدورهم، ثم عادوا إلى أعمالهم يُنجزونها بِكُلِّ جوارحهم ليس لهم همٌ سوى إتقانها لينالوا رِضا تامر.

وصل إلى مكتبه وأخرجَ مجموعةً من الملفات من محفظته الجلدية ليُبَعثِرها فوق مكتبه.

تدخل عبد الصمد قائلاً:

- هل تُريدُ شايًا أم قهوة يا سيدي؟

أجابه وقد انهمك سريعًا في القراءة:

- أحضِر لي قهوةً ياعبدالصمد، ومن الأفضل أن تكون بدون سُكرٍ، ولا تدع أحدًا يدخل عندي اليوم؛ فلدي مجموعة من المُعاملات الإدارية، يجب إِنهاؤها قبل أن أُسافِرَ غدًا.

- حسنا سيدي كما تُريد، لكن هناك شخصًا ينتظِرُكَ في القاعة المجاورة مُنذ الصباح!

حدق فيه تامر بذهول وقال:

- من يا عبد الصمد؟ ألم تسأله عن اسمه؟

أجابه بتأُفُف:

- رجلٌ ثقيل الظّلِ يا سيدي! لم يرتح له قلبي أبداً، جاء إلى هنا في الصباح الباكر، أخبرني أنك تَعرِفُه جيدًا، ويحتاجُكَ في موضوعٍ خُصوصي ومُهمٍ جدًا، أخبرته أنك لن تأتي قبل العصر لكنه لم يُصَدقني، وجلسَ رافِضًا الانصراف، لقد فكرتُ في طَردِهِ إلا أنني خَشيتُ أن يكون أحد معارفك فتُوبِخَني.

بحثَ تامر في دليل عقله عن هوية هذا الرجل الذي يدّعي معرفته جيدًا، فلم يتوصل إليه، فطلب من عبد الصمد أن يَسمح له بالدخول لِمُقابلته سريعًا.

بعد لحظاتٍ فُتِحَ الباب فدخل يوسف مُطرِقًا رأسه إلى الأرض يَجُرُّ خطواته، ما إن وقعت عيناه على تامر حتى أسرعَ نحوه، وانكبَّ على قدميه يُقبلهما ويبكي بُكاءً شديدًا.

نظر إليه تامر مستغربًا، ثم أبعد قدميه عن وجهه، طالبًا منه التوقف، فجلس يوسف على الكرسي وهو يجّرُ بصعوبةٍ طرف ثوبه ليمسَحَ به دموعه.

ابتسم تامر ابتسامةً محايدة، وعدّلَ جلسته، ثم رتّبَ ياقة قميصه وسأله وهو يَمدُ له منديلًا أبيض:

- ما الذي ذكَّرك بي يا سيد يوسف اليوم؟

انفجر يوسف دون مقدمات:

- أتوسل إليك أن تنقذني فسأفقد كل شيء يا تامر؛ مالي ومنزلي وحتى مكتبتي. فقد استثمرت كل نقودي في مشروعٍ رهنتُ من أجله كل شيء، لكنني تعرّضتُ للنّصبِ من طرف شريكي الذي سرقني واختفى، والآن أنا مدينٌ للبنك بمبلغ ضخم.

جفف دموعه ثم أكمل كلامه:

- لقد طَرقتُ كُلَ الأبوابِ المُمكنة لكن معارفي تنكّرُوا لي، ولم يبق أمامي سوى أن ألتمسَ عَطفَكَ وكرمك لكي تَنتَشِلَني من هذا المأزِق.

كلماتُ يوسف وتوسلاتُه أعادت لتامر ذكرياته معه عندما كان في أمسِّ الحاجة إليه، وبكى وهو يتوّسلُ على عتبةِ بابه قبل أشهرٍ لِيُقرضَهُ نقودَ عمليةِ جده، تمامًا بالطريقة نفسها التي يتوسلُ بها هو اليوم، لكنه سرعان ما استدرك أن كل مَا حدثَ محضُ خيالٍ فقط، فقد محى تِلك الأحداثَ الأليمة من الخطِّ الزمني عندما عاد إلى الماضي ليفُوزَ باليناصيب، ولا تُوجد سوى في ذاكرته فقط، ولا يُمكِنُهُ أن يُحاسبه على ذنبٍ لم يقتَرِفهُ أصلًا في الحقيقة!

أما يوسف فقد تحاملَ على نفسه للمجيء ومقابلة تامر لانغلاق كل السبل أمامه، رغم أنه لم يستوعب بعد التغيير الجذري الذي مسَّ هذا الشاب المُثقفَ خريجَ الجامعةِ الذي سَاعده وأعطاهُ عملًا، وما إن فازَ باليناصيب حتى سقط في هوة التكبر والأنانية وانفلتت منه الإنسانية، فتنكرَ له وصرخ في وجهه، وأهانه قبل أن يستقيل ويُغادر دون عودة.

أطرق يوسف رأسه وقال بصوت مبحوح:

- أُعذرني سيد تامر أنا أعلمُ أنك رجلٌ شهم وقلبُكَ طيّبٌ وستساعدني؛

هز كتفيه مصطنعًا البراءة وأضاف بخفوت خبيث:

- أنا لا أعرف لماذا تنّكرَ لي كل أقاربي رغم غِناهم الفاحش!

أجابه تامر:

- أنت شخصٌ صعب المِزاجِ سيد يوسف، وشحيحٌ أيضًا، لذا لا أستغرب أن يفعلوا بك ذلك.

سكت قليلًا ثم أكمل:

- ولكنني لن أنسى أبدًا أنك كنت الوحيد الذي شغّلني بعد أن تورّمت رجلاي بحثًا عن عمل.

قام تامر من مقعده، ووقف عاقدًا يديه خلف ظهره ووجهُهُ للنافذة القريبة منه والمطلة على الحديقة المجاورة وهو يُفكرُ فيما سيفعله؛ فهو لا يُنكِرُ أنه منذ شهور وهو يشعر بالندم للكلام الجارح الذي قاله ليوسف عندما ترك عمله في المكتبةِ. فقد استسلمَ لشهوة الانتقامِ من سنوات المُعاناة التي كانت تنهَشُ كيانه.

أجابه بعد أن حسم قراره:

- حسنًا سأساعدك لتتجاوزَ هذه المحنة، سأدفعُ المبلغ لكي لا يحجز البنك على أملاكك، ولكن بشرط واحد سوف أصبح شريكًا بالنصف في كل ما تملكه؟

تردد يوسف لدقائق لكنه وافق على اقتراحه، فضربَ له تامر مَوعِدًا بعد عودته من مراكش ليبدأ بالإجراءات، فخرج من المكتب يتمايلُ من الفرح وسطَ دهشةِ عبد الصمد الذي لم يفهم ما يحدُث!

مرَّ الوقتُ بسرعةٍ وانسحب كل العمالِ إلى منازلهم بعد عملٍ يومٍ شاق، لكن تامر لم ينتهي بعد من مُراجعة المِلفاتِ المُتراكِمةِ على مكتبه.

فجأةً سَمِعَ طرقًا سريعًا على البابِ، الساعةُ الحائطيةُ تُشير إلى التاسعة مساءً، وصوتُ عبد الصمد خَلفَ البابِ يطلُبُ منه بنبرةٍ مُلحةٍ أن يسمحَ له بالدخول.

دخل بِسُرعةٍ وأغلقَ الباب خلفه، ثم توجه نحوه وقد اصفر وجهه، وبدا عليه خوفٌ وهلعٌ غيرُ مفهومين، وقال له وهو يَلهث:

- سيدي هناك بعض الأشخاص في الخارج يريدون رؤيتك، لقد أخبرتهم أنك مشغول، ولن تستطيع استقبالهم، لكنهم أصروا على لقائك.

اتسعت عينا تامر بالكثير من الذهول والدهشة، وبدأ الشك يتسربُ إليه وهو يسأله:

- كم عددهم؟ وكيف تبدوا أشكالهم؟

- رجلان وامرأة لا يظهرُ أنهم مغاربة! ومعهم مجموعةٌ كبيرةٌ من الرجال، مَظهرهم غريبٌ يُوحي بالخوفِ، يلبسون ملابسَ مُتشابهةً، تحدّثوا معي بِلُغةٍ عربيةٍ فهِمتُها بصعوبةٍ، وطلبوا رؤيتك فأخبرتُهم أنك مشغولٌ، لكنهم رفضوا المُغادرة، وعندما ألَحتُ عليهم؛ صرخَ أحدهم بغضبٍ في وجهي وهددني قائلًا إنه لا يريد سماع أعذارٍ مني، وأن أمامي دقيقتين لأدخل إليك وأخبرك أنهم يريدونك في أمرٍ مُهم، فتجاهلت تهديداته وحاولت إبعاده عن الباب،

وما إن لَمستُ بِذلَتَهُ حتى استشاطَ غضبًا، وأخرجَ مُسدسًا مُثبتًا بحزامه وصوبه نحو رأسي وهو يُزمجرُ وكاد يقتلني لولا تدخلُ رفيقيه الذين طلبا منه أن يهدأ فأفلتني، ثم هرعتُ إليك لأخبرك بما حصل لتتصِلَ بالشرطة.

أظلمت الدنيا في وجه تامر وارتعدت فرائصه، وتساقطت الأسئلة عليه، وهو يتكلم بصوت منخفض: "هل يعقل ما يحدث الآن؟ هل يمكن أن تكون تلك المنظمة التي تحدث عنها والدي؟ وكيف اكتشفوا مكاني رغم حذري الشديد؟".

شعر أن حياته ستنقلب رأسًا على عقب دون تمهيدٍ أو مقدمات، رفضَ اقتراحَ عبد الصمد بالاتصال بالشرطة، فلن يزيدَ الموقف سوى تعقيدًا، فإن كان هؤلاء أفراد المنظمةِ المعلومةِ فحتى الشرطةُ لن تثنيهم عن المُهمة التي جاءوا من أجلها، ولن يزيد مجيئهم المشكلة سوى تعقيدًا.

حاول تثبيتَ عزيمته والتركيزَ لثوان، ثم طلبَ من عبد الصمد أن يُماطلهم لدقائق ليتمكنَ من الهروب من البابِ الخلفي لمكتبه، تردّد الرجلُ للحظاتٍ، ثم خرج وهو يرتجف لِيُنفِذَ أمر سيده دون أن يملِكَ أدنى فِكرةٍ عما يدور في رأسه.

بحث تامر عن هاتفه النقالِ وسط الأوراق المتراكمة، وحاول أن يتصل برقم هُدى بأصابعٍ مُرتعشة، ثم وضعَ السماعة على أذنه منتظرًا أن تجيبه، لكن هاتفها كان خارجَ التغطية، سال العرقُ من جبينه وهو يُفكرُ في خطوته التالية.

أعاد الاتصال، حبيبته لا تجيب، الزمنُ يحرِقُ الثواني ببطء ويحرقُ معه قلبَه، بدأت الأسئلة والاحتمالات تتساقط على رأسه، كيف وجدوه؟ هل يُعقلُ أنهم عرفوا بأمر الرسالة التي تركها له والده عن طريق ذلك المحامي العجوز؟ حاول جمع شَتاتِ نفسه، واستعاد ثقته عندما تذكر أنه يَسبِقهم بخطوة، فقد استعدَّ جيدًا لهذا الموقف، أخفى في منزله جوازات سفرٍ له ولزوجته بأسماء مُزورة، وقام بتحويل جزء من ثروته إلى أحد البنوك الخارجية بذلك الاسم، تحسُبًا لأي طارئ، فكل شيء يمكن شراؤه بالنقود، حتى حياة جديدة لم يكن يلزمه سوى أن يُماطلهم عبد الصمد لدقائق، بينما يجمعُ مستنداته المهمة ثم يغادر ليلتحق بهدى في مراكش، هناك سيحجز بسرعة تذكرتين لأي طائرةٍ مُتجهةٍ لبلدٍ أوربي.

لم يكن يرغب في قرارة نفسه أن يهرب ويترك وطنه الذي جرى حبه في وجدانه، وتدفق في شرايينه، لكنه كان على يقين أن ذلك هو الحل الوحيد، أما هدى فستتفهم الأمر وتختارُ الهربَ معه؛ لأنها تُحبه رغم أن تَركَها لوالديها لن يكون بالأمر الهين، على العموم فقد قرر قبل ذلك ألا يُرغمها على فعل شيء لا تريده، فتح خزنته ليخرج منها مبلغًا من النقود؛ دسه في جيبه ثم حمل محفظته، وتوجه نحو الباب الخلفي، وما إن وضع يده على المقبض حتى تلاحقت أنفاسه في صدره وكأنه في حلبة ملاكمة، فشلت أقدامه في حمله فاستدار نحو الأريكة لينهار فوقها.

رفع كلتا يديه المرتعشتين إلى السماء متضرعًا لله بصوت خافت أن ينجيه من هذا الموقف والخوف ينهش جسده، ما إن حاول الوقوف مجددًا حتى سمع طرقًا خفيفًا على باب المكتب فانفجر الإدرينالين من جسده بغزارة، وهو يسمع الباب يُفتح ببطء، ودون استئذان ليظهر من خلفه ثلاثة غرباء تقدموا بهدوء نحوه، وهم يرمقونه بنظرات باردة حتى وقفوا أمامه.

رفع تامر رأسه ببطء ليرى امرأة سمراء تتوسط رجلين أجنبيي الملامح بملابسهم الفاخرة.

تكلمت المرأة بلكنة عربية ثقيلة قائلة.

- مرحبًا هل أنت السيد تامر حمدي؟

ابتلع ريقه وحاول النفي، لكنه علم أنها ستكون حركة فاشلة منه ستثير شكوكهم فحرك رأسه بالإيجاب:

- نعم إنه أنا هل يمكنني أن أخدمكم في شيء؟

حدقت إليه للحظات، ثم رسمت ابتسامة شفافة على وجهها وهي تقترب منه، وطبعت قبلة على جبينه دون استئذان وقالت:

- أنت تملك ملامح والدك تمامًا يا سيد حمدي.

توقف قلبه عن النبض وتخدرت أطرافه، ولم يقوَ على الكلام، مسح دون تفكير موضع قبلتها بكفه قبل أن يتقدم الرجلان ويقفا بجانبها في شموخ واحترام كما يقف الحرس الشخصي أمام ملك من الملوك أو قائد دولة كلفوا بحمايته.

نزع فرناند عدستيه ليمسحهما بمنديل أبيض أخرجه من جيب بذلته ثم قال:

- أعذرنا سيد تامر فقد جئنا إليك دون ميعاد مُسبق، اسمي فرناند وهذان مكسيم ومايا، نحن أصدقاء والدك، وقد جئنا إليك اليوم لنكلمك في موضوع مهم.

أجابه تامر بتلعثم فاضح:

- أنا أسف! فأنا لم ألتق بوالدي من قبل، فقد اختفى وتركني صغيرًا! حتى أنني لا أعرف شكله، ولا أستطيع أن أفيدكم في شيء بخصوصه!

- نعم معك حق، أنت لم تعش معه لتعرفه، لذلك أتينا اليوم من مكان بعيد جدًا خصيصًا للقائك، وإخبارك بكل ما تريد معرفته عنه.

ازداد الأمر تعقيدًا فلا مفر من الحيلة والدهاء للهرب من هذا الموقف، رسم بصعوبة ابتسامة باردة على وجهه ليخفي بها الرعب الذي تملك جسده، وجمع ما تبقى من قوته ليقف، ثم توجه نحو مكتبه وهو ينظر إلى ساعة معصمه مدعيًا الاستعجال وقال:

- أنا أعتذر منكم فقد كنت أهم بالخروج الآن فلدي اجتماع طارئ! يمكنكم أن تعودوا لزيارتي غدًا في الصباح، سأكون هنا الساعة العاشرة، ويمكننا حينها أن نحتسي القهوة ونتحدث في أي موضوع تريدونه.

تدخل مكسيم بنبرة حادة:

- سيد تامر لقد أخبرك فرناند أن الموضوع الذي نريدك من أجله خطير جدًا، وقد تأخر بما فيه الكفاية، يجب أن تأتي معنا حالًا من فضلك.

أحس تامر بهلع شديد، لكنه حاول الحفاظ على تركيزه ليتأقلم مع الظرف الشاذ الذي يعيشه، فتشجع أكثر وبارز مكسيم بنظرات تحد قائلًا بغضب:

- لقد بدأت نبرة صوتك تزعجني يا أيها الرجل، أنا أرفض أن أتي معكم فخذ أصدقاءك وغادروا مقر عملي، وإلا سأتصل بالشرطة.

التفتت مايا إلى رفيقيها وابتسمت قائلة:

- حقا هو صورة عن والده! حتى قسمات وجهه عندما يغضب!

قال مكسيم وقد ابتهج وجهه:

- إن أردتَ أن تتصِّلَ بالشرطةِ فافعل، ولكن لا تغضب إن لم يحضروا! لا تحاول أن تدعي السذاجة من فضلك، سأطلب منك لأخر مرة أن تأتي معنا، وإلا سنُضطرُ إلى استعمال القُوةِ يا سيدي، لكن لا تَخف لن نستعملها ضدك، فأنت شخص مُقدسٌ ومحرم علينا أن نَمَسَّك بسوء، لذلك سنقوم بتخديرك وأخذك رُغمًا عن إرادتك، عندها سيحاول ذلك الحارسُ الغبيُ التدخل، وستتاحُ لي الفرصةُ لقتله بعد أن لمسني بيديه المُتسِختين.

ابتسمت مايا قائلة وهي تتفقد ملابسه:

– أعتقد أنه يستحقُ الموت فعلًا، فقد تجرأ على توسيخ بذلتك الجديدة، لكن لا تُلطخ يديك بدمه، أخبر فقط أحد رجالنا في الخارج وسيقومُ بالعملية بسرعة.

أجابها بغيظٍ وهو ينفضُ بكفه غبارًا خياليًا على بذلته.

– لن يلمسه أحد، سأقتله بنفسي لكي أشفي غليلي منه.

خارت عزيمة تامر مجددًا، وعاد الرُعب ليستولي عليه، وقال لهم بصوتٍ مُرتعش:

– هل أنتم بشرٌ أم قطع ثلج متنقلة؟ تتكلمون ببرودة عن قتل شخص بريء؟!

هنا تدخل فرناند قائلاً:

– أنت يا سيدي من ترفضُ المجيء معنا فتُعسِّر الأمور عليك وعلى من حولك، إن كان ذلك العجوزُ يهُمكَ حقًا، ولا وتريدُ أن يمسّه سوء فيجب أن تختار الذهاب معنا بإرادتك.

أحنى تامر رأسه يُفكرُ في حلٍ فلم يجد، سلّم أمره لله ثم حسم قراره مُكرهًا لما وجده فيهم من تصميم وجدية، أومأ برأسه موافقًا وانتفض من مكانه حاملًا محفظته.

خرج الثلاثة من المطبعة وتامر يمشي بينهم، حاول عبد الصمد الاقتراب منهم لاستطلاع الأمر، لكنه نهرهُ بعينيه لكي لا يتدخل، فابتعد قليلًا ينظرُ

إليهم وهم يستقلُّون سيارة مرسيدس كلاسيكية سوداء، تولى مكسيم قيادتها، بينما تَبِعتهم السيارات الأخرى يركبُها مجموعة من المرافقين ذوي الوجوه المتجهمة.

وصلوا سريعًا إلى الفندق وصعدوا مباشرة إلى غرفة مايا، طلب فرناند من تامر الجلوس على كنبة جلدية السوداء، بينما وقف مكسيم خلفه مباشرةً يُدخنُ سيجاره المعهود.

توجهت مايا نحو ماكينة القهوة قائلةً لتامر بوِدٍ:

- سأعطيك فنجانًا ساخنًا من القهوة الممتازة لتهدئة أعصابك قبل أن نُباشِر الموضوع الذي أحضرناك من أجله.

لم يُجبها تامر الذي زاد توتره وهو يشعرُ بحدة نظرات مكسيم وفرناند تكادُ تخترق جسده، أحضرت له فنجانًا فأمسكه بيدين مُرتعشتين وارتشفَ منه رشفةً واحدةً، ثم وضعه على الطاولة، جلست بقربه واضعة يدها على كتفه ثم قالت بابتسامةٍ شفافة.

- هل تعرِفُ لماذا أحضرناك إلى هنا يا تامر؟

حّرك رأسه نافيًا فأكملت مايا:

- الأمر مُتعلقٌ بقُدرةٍ خطيرةٍ تملكها، وكان يملكها والدك من قبل، هذه القدرة تجعلك تُغيرُ الزمن.

أظهر تامر أنه لا يفقه شيئًا مما تقول وأجاب:

- لقد أخبرتُكم من قبل أن والدي اختفى منذ سنوات، فكيف لي أن أعرف عنه شيئًا؟!

- ألم تلاحظ تغييرًا جسديًا عليك كظهور وشم غريب على شكل مثلث أعطاك قدرة غريبة على فعل أشياء خارقة للطبيعة؟!

اضطرب تامر وأحنى رأسه ثم أجاب مايا بارتباك:

- أشياء مثل ماذا؟

تدخل فرناند قائلاً:

- السفر عبر الزمن مثلاً...

رشف من قهوته بيدين مرتعشتين، ثم تصنَّعَ ابتسامةً مُتوترةً وقال:

- السفرُ عبر الزمن؟ هل أنتم مجانين لتقولوا مثل هذا الكلام؟ ليست هناك قدرةٌ مماثلة، فرغم تطورِ العلم لم يستطع أحد إثبات إمكانية حدوثه!

جلس فرناند قربه ووضع يده الباردة على عنق تامر وقال بهدوء:

- نعم معك حق، فالانتقالُ الجسدي لا يشبه القدرة التي نكلمك عنها، فهي تتمعن طريق الوعي، أخد نفسًا عميقًا ثم أكمل كلامه:

- أنت يا سيد تامر شخص مميزٌ جدًا، بل أكثر مما تتخيل! فأنت سليل أبطال عظماء صنعوا التاريخ.

- ما تقولونه أمر خطير جدًا، ويستعصي على الفهم، وما علاقتي أنا بكل هذا؟ إن كنتم تُريدون والدي فابحثوا عنه وأتركوني وشأني.

همست مايا من خلفه وهي تَترقبُ ردة فعله:

- والدك السيد مارك مات! لقد انتحر قبل ستة أشهر، رمى بنفسه من أعلى جسرٍ في إحدى المُدن بإيطاليا.

نطقتها ثم التفتت لتقِفَ أمامه وتغرِزَ نظراتها بعينيه، فارتجَ أمامَ تلك النظرة الواثقة المُسددة، ثم أضافت لتزيد من ارتباكه:

- في الأسبوع نفسه الذي فُزتَ فيه بجائزة اليانصيب يا سيد تامر.

ارتبك لكن أجابها بتحدٍ:

- أنا اسمي تامر حمدي ولا أعرفُ أحدًا باسم مارك، أنا عربيٌ مسلمٌ، ولا علاقة لي بسلالتكم المُقدسة.

- لم يكن أحدٌ من أجدادك عربيًا، فعرقكم أسمى وأطهر بكثير.

-عن أي عرقٍ أو نسبٍ تتحدثين؟! الله عز وجل لم يُفرِّق بين الناس سوى بالتقوى والإيمان به، وليس بالانتماء لنسلٍ أو عرق معين.

-أنا أرى أنك قد تشبعت كثيرًا بثقافة هؤلاء العامة الذين عشت بينهم طيلة حياتك، أنا أعذرك فقد وُلدت وترَبيتَ في المكان الخطأ، ولا يُمكننا أن نُحمِلَكَ مسئولية أخطاءٍ قام بها والدك، نحن لَسنا هنا لِنُناقِشَ معك هذا الموضوع، فأنت لَستَ مُستعدًا بعد لاستيعاب الحقائق.

استطرد فرناند قائلاً:

- كفاك مُماطلةً يا سيد تامر، فقد وجدنا ذلك المحامي التافه الذي جاء لزيارتك واعترف لنا أنه جاء إلى المغرب لإعطائك وصية ما، تركها لك السيد أنطونيو دياطولي، الذي اكتشفنا أنه الاسم المُستعار لوالدك السيد مارك.

تدخل ماكسيم وهو يربت على كتفه:

- لقد أخبرناك بكل شيء يَخُصُكَ وكُنا صادقين معك، والآن دورك لتُخبِرنا الحقيقة دون كذبٍ أو مُماطلة.

- عن أي حقيقةٍ تريدني أن أخبرك؟

- كم مرةً غيّرتَ الماضي عن طريق الدعاء؟

أطرق برأسه إلى الأرض للحظاتٍ مُستسلمًا للضغط الرهيب الذي يعيشه، ثم قال بصوت خافت:

- لقد استعملتُ الدعوات الثلاث واختفى الرمزُ من ظهري.

تبادل الثلاثةُ نظرات ذهولٍ بينهم غير مصدقين لما تسمعُه أذانهم وصرخت مايا:

- غيّرتَ الماضي ثلاث مرات؟!

التف مكسيم خلفه باندفاعٍ ومزّق قميصه الأبيض بخفة ليتحسّس مكان الوشم، فاكتشف اختفاءه! سقط على ركبتيه، وقد اتسعت عيناه بذهول غير مصدق لما يُشاهده أمامه، بينما انفلتت نظارة فرناند من يده، وتسمرت مايا في

مكانها لثوانٍ قبل أن تنطق بصوت جاف: "إنه أمر سيئ جدًا يا سيد تامر لقد تأخرنا كثيرًا قبل الوصول إليك".

أخرج فرناند هاتفه وخرج إلى الشرفة يتحدثُ بكلماتٍ خاطفة ومُبهمة بالإنجليزية، أما مكسيم فقد ضرب الحائط بقبضة يده بكل قوته حتى كاد يتململُ من مكانه، مما أثار فزع تامر فأسقط الفنجان أرضًا.

التفتت مايا إلى مكسيم قائلة:

- حافظ على هدوئك، فليس هنالك وقت لِنُضيعه، يجِبُ أن نُعيد السليلَ للندن اليوم، سأتصل بربان الطائرة ليستعد حالاً!

ما إن سمِع تامر كلامها حتى وثبَ من مكانه وصرخ في وجهها قائلًا بتحدٍ واضح:

- أنا لن أتحرّك من هنا، ولن أذهب معكم لأي مكان، ولن يجبرني أحدٌ منكم على ذلك.

اقتربت منه مايا حتى داعبت نفحةٌ من عطرها القوي أنفه، ثم وضعت يدها برقةٍ على خده وهمست في أذنه قائلة:

- اسمع جيدًا سيد تامر أنت لا تملِكُ الخيار! لا أحد منا يملكه! لقد وهبنا أنفسنا منذ سنواتٍ طويلة من أجل خدمة المنظمة، والآن دورك أنت أيضًا لتفعل الشيء نفسه وتسِيرَ على درب أجدادك، أنا أعلم أنك تائه ومُشوش، لكن كل ما تعتقده عنا خاطئ، وستَكتَشِفُ ذلك عما قريب.

دفعها بكلتا يديه حتى تقهقرت إلى الخلف، وانفجر قائلاً:

- هل تريدين أن أُفنيَ حياتي من أجل خدمة منظمةٍ شريرةٍ تلعبُ بأرواح الناسِ الأبرياء؟ أنتم تخدمونَ الشيطان بمؤامراتكم الدنيئة ورغبتكم الخسيسة في السيطرة على العالم عن طريق طقوسكم السوداء الغامضة التي تمارسونها؛ لكن الله يُمهل ولا يهمل، فيومًا ما ستُفضَحُ مؤامراتكم الدنيئة للعامة وسينتفض الناس جميعًا لمواجهتكم واستأصالكم عن بكرة أبيكم.

ضحكت مايا ملء فيها وهي تقول:

- يجب أن تعلم أن كل القصص الكاذبة التي تقرأها عن منظمتنا لا أساس لها من الصحة؛ لأننا وببساطةٍ نحن من نَنشرُ تلك الأساطير والأكاذيب عمدًا لنُخفي الحقيقة بين أكوامٍ من الشائعات.

صفّق مكسيم مُعجبًا بشجاعة تامر ثم تكلم:

- لقد أعددتَ فروضكَ المنزلية جيدًا! لكن كان عليك الحذرُ وأنت تنتقي المعلوماتِ المُنتشرةِ على الإنترنت، فتلكَ الشبكةُ اللعينةُ جعلت أفواه الجبناءِ تُفتح على مصراعيها، يختبئون وراءَ شاشات حواسيبهم الرخيصة، ويَحسبونَ أن لهم القُدرةَ على سبر أغوارنا وكَشفِ أسرارنا وتعرية حقيقتنا أمام العالم! لكنهم تناسوا أنه لا أحد سيتجرأُ يومًا على مواجهتنا مباشرة، فأولئك الجبناءُ أبطالٌ وهميون يعيشونَ البطولةَ في خيالهم فقط ثم يُصدقونها!

هل يُمكِنك أن تُخبرني ماذا يفعلون لمواجهةِ الجوع والقتلِ والحروبِ التي تنهشُ بلدانهم غير نشرِ صُور على بروفايلاتهم، وكتابة تعليقات تافهة لن تفيد في شيء؟!

العالم يحتضر يا تامر! حُكَّامه غائبون وجماهيرهُ مُخدرة، اختلت الموازين وتغير نهج العواطف، فالناس اليوم يسوقهم الحزنُ فقط على الأشياء التافهة والبسيطة، ويبكون بحرقةٍ من أجلها! لكنهم لا يُحركون ساكنًا إن تعلق الأمر بمصائرهم.

من تَنتظرُ انتفاضتهم يعشقون الاستلقاء على أسرتهم الوثيرة أمام شاشة التلفاز، يمسكون الريموت كنترول وينتقلون بكسل بين القنوات المتنوعة، فيصادفون قناة إخبارية تتحدث عن المجازر والكوارث التي تُخلفها الحروب، يتأملون بسخط لثوان ثم يغيرون القناة ليصطدموا بمشاهد أخرى من الجوع والفقر الذي يقتل الملايين في بلدان مختلفة من العالم. كل تلك الأهوال التي يشاهدونها لا تحرك فيهم ذرة واحدة، يتمتمون فقط بكلمات الاستنكار ثم يحركون أيديهم بتثاقل ليغيروا القناة مرة أخرى، فقد اعتادوا رؤية تلك الأشياء؛ لدرجة أنها أصبحت مجرد مشاهد عادية بالنسبةِ لهم لا تمُسُ روحهم ولا تُزلزِلُ قلبهم أبدًا!

نفس الأشخاص بالضبط عندما يشاهدون فيلمًا أو مسلسلًا أو يقرأون روايةً خياليةً، يموت بطلها في النهاية، تجدُ قلوبهم قد انكسرت وتُفجَعُ أرواحهم، ويبكُون بحرارةٍ؛ وكأنهم فقدوا جزءًا من كيانهم.

هكذا للأسف هم شعوب العالم اليوم، اختلّت لديهم موازينُ الإحساس، وأصبحوا كأشباحٍ تمشي في الشوارع، تجرّدت من إنسانيتها، تتجاهلُ الواقعَ وتلهثُ خلف الخيال باكيةً وراءه، فلا تنتظِر من مثل هؤلاء أن يثوروا ضد الظلم أو الاستبداد، فمهما طال الزمن لن يُغيروا شيئا من أجل أنفسهم أو مجتمعاتهم.

حتى إنه يمكنك أن تَقتُلَ أمامهم الأطفال وتغتصبَ النساءَ بحريةٍ، ولن يتكلموا أبدًا! أقصى شيء سيفعلونه هو أنهم سيدعُون عليك بالهلاك، ثم سيهرعون إلى منازلهم بسرعةٍ لمشاهدة مباراةٍ لكرة القدم أو حلقةٍ جديدةٍ من مسلسلهم المُفضل!

كيف تحسبُ أن هذا النوع من الناس يستطيع قهرنا، أشخاصٍ مثلنا وهبوا حياتهم من أجل أهدافٍ سامية؟ ذلك أمر لا يتقبله العقل والمنطق!

مسح تامر العرقَ المُتصبِّبَ من جبينه، وقال تامر بحروفٍ مُبعثرة:

- من أنتم أيها الأشخاص؟ وماذا تريدون مني؟

أجابته مايا بثقة:

- نحنُ حراس سليل الإنفوكار والدك السيد مارك.

عاد فرناند من الشُرفَة بعد أن أكمل مُكالمته، وقال وهو يَنهرُهما بعينيه بعد أن سمِع كلامهما:

- دعونا من هذا الحديث الذي لن يجدي نفعًا ولا تحاولا ملء عقلِهِ بأفكارٍ جديدة، فهو ليس مُستعدًا بعد لتقبُلها.

وسط هذا النقاش الحاد لم يكن تامر يُفكر سوى في كيفية الاتصال بهدى وإخبارها بكل ما حصل، وكيف سيشرح لها الوضع بعد أن أخفى الحقيقة عنها خوفًا على حياتها.

انتشله من تفكيره صوت مايا وهي تقول له بما يشبه الهمس:

- سيد تامر أين سرحت بأفكارك؟ هل تُفكر في زوجتك السيدة هدى؟! لا تخف فهي تحت مُراقبتنا منذ صباح اليوم، وقد سافر رجالنا خلفها إلى مدينة مراكش!

ارتعد تامر عندما خرجت تلك الكلمات من فمها كطلقاتٍ تعرِفُ هدفها، وشعر بالرُّعب يسري في جسده، وانقطعت أنفاسه، فانهار جاثيًا على ركبتيه دون سابق إنذار، وقال صارخًا وقد انفجرت عيناه بالدموع:

- هدى لا دخل لها وتجهل كل شيء عن الموضوع، لا تقترِبُوا منها، وسأفعلُ كل ما تريدونه.

اقترب منه السيد فرناند، وأمسك يده بلباقةٍ مُفرطةٍ؛ ليُساعده على الوقوف وقال له وهو يخرج من جيبه منديلًا فاخرًا كُتب في طرفه بخط عريض حرف **F**:

- خد سيدي وامسح دموعك، ولا تجعل شموخك وكبرياءك يتزلزل، أعرِفُ أنك إلى حد الساعة لم تستوعب قيمتك للبشرية، لكن مع أنك استنفدت الأدعية الثلاثة كلُّ التركيز سينصَبُ على ابنك القادم الذي ستنتقِلُ له قوة الدعاء فور ولادته وبعد موتك مباشرة!

-عن أي ابن تتحدث؟! أنا لن يكون لي أبناء ولن يرغمني أحد على تكرير خطأ والدي مهما حاولتم.

- هل تذكرُ طبيب الأسنان الذي زارته زوجتك والمكلفُ بإعادة تقويم أسنانها؟ إنه يعملُ لصالحنا عندما زارته في عيادته خدرها وأجرى لها فحوصات الحمل دون أن تشعر، وقد أكد لنا أنها تحمِلُ في بطنها جنينًا.

قال فرناند وهو يحلِّلُ تعبيرات وجه تامر الذي استقبل الخبر كالصاعقة:

- رُبما هي تَعلمُ بحملها الآن وتنتظرُ الفُرصة المُناسبة لإخبارك بالخبر السعيد! لقد كنا نريدك وحدك لكن هدى أصبحت أهمَّ منك يا سيد تامر، وخُصوصًا بعد استنفاد كل دعواتِكَ الثلاتة، فربما تحمِل في بطنها سليل الإنفوكار المُقبل، لذا سأتوجه بنفسي إلى مُراكش لأُقلها في طائرةٍ خاصة إلى لندن حيث ستُولّى بعنايةٍ خاصةٍ.

شعر تامر أن زِمام الأمورِ سينفلتُ من بين يديه، ففكر في مُماطلَتِهم لكسب المزيد من الوقت حتى يجد فرصة سانحة للهروب وإخطارِ حبيبته، فأجابهم بحروف مرتبكة:

- لا يُمكن أن أسافر معكم الآن عليَ التوجُه إلى منزلي لأخذِ بعض المُستلزمات، وتغيير ملابسي، ثم يُمكننا الذهاب.

اقترب منه مكسيم قائلاً:

- ليس هناك داع، فأنت لن تحتاجَ لشيء بعد اليوم يا سيدي.

نظر إليه تامر بتحدٍ قائلاً:

- ألا تقولون إنني سيدكم المقدس؟ إذن أنا آمركم أن تتركوني أذهب إلى منزلي.

تشاور الثلاثة بينهم، وقالت مايا وهي تنظر إلى ساعة هاتفها:

- أمامنا ساعتان على موعد الطائرة، ربما يمكننا تلبية طلبه على الأقل سنكسب ثقته ولو نسبيًا.

أومأ فرناند برأسه موافقًا ثم أضاف:

- هذا ما أفكر فيه أيضًا، لكن يجب أن يرافقه أحدكما ومعه بعض من الرجال تحسبًا لأي طارئ.

تدخل مكسيم بسرعة قائلاً:

- سأرافقه أنا، لكن بدون رجالي، لكي لا نثير الشُبهات في المنطقة التي يسكنُها.
- وإن حاول الهروب منك؟
- لن يفعل يا مايا! وحتى إن حاول، فلن يبتعد كثيرًا قبل أن أجده بسرعة.
- وهل ستتحملُ مسئولية سيد الإنفوكار على عاتقك وحدك؟
- ذلك شرف لا أريد أن يشاركني فيه أحد.

حسنًا يا مكسيم افعل ما تراه مناسبًا، لكن يجب ألا نتأخر على موعد الإقلاع.

بعد دقائق وصلتِ السيارةُ إلى باب الفيلا، دخل تامر وهو يُفكر في خطوته القادمة ويقاوم شعوره بالذعر المتزايد، فقد كان غرضه الأساسي من العودة إلى المنزل هو الحصول على الأغراضِ التي يُخفيها في خزانته السرية (المُسدسُ وجوازات السفر المزورة) ثم الهروب إلى مراكش للقاء هدى والسفر بعيدًا.

مشى خلفه مكسيم بطوله الفارع، وهو يدقق في تفاصيل البناء جيدًا، توقف الرجلان في البهو، أمسك ماكسيم جريدة تركها تامر قبل خروجه على طاولة رخامية، وقلّبَ صفحاتها بأصابعه الضخمة، ثم رماها على الأرض وهو يقول:

- هل تعلم يا سيد تامر أن الإعلام هو أعظمُ سلاحٍ فتّاكٍ استعملناه منذ تأسيسِ المُنظمة! فكل الكلام الذي يقرؤه الناس في الجرائد يتحكّمُ في صياغتِه عُملاؤنا في أغلب دول العالم.

- كل ما يُنشر محض أكاذيب، وأقوال فارغة هدفُها تمويه الشعوب وتضليلهم.

ضحك مكسيم مجيباً:

- لا تنسى أننا نعيشُ في عالمٍ من المظاهر، والأكاذيبُ هي العصا السحرية التي تُزيّنُ تلك المظاهر، رجل الدين يكذب، ورجل السياسة يكذب، كل من له تأثير على المجتمع مضطرٌ لِمزجِ كلامه بين الحقيقة والخيال، لكي لا يخسرَ سُلطته ومنصبه، ومن يتغاضى عن هذه الحقيقة أو يُشكّكُ فيها يكون كاذبًا أيضًا! أخد قنية ماء زجاجية وشربها دفعة واحدة دون توقف، ثم مسح فمه بطرف كفه وأكمل كلامه:

- الأكاذيبُ تملك قوةً كبيرة على إقناع الجماهير بفكرة ما عكس الحقيقة، فالكذب يُخوِلُ لك أن تقول كلَ ما يُريد الأخرون سماعه، فَيُصدِقُونَكَ ويُصفِقون لك، دون تفكيرٍ ولا تدبير، أما عندما تقولُ الحقيقةَ؛ وإن كانت مبنية على أمورٍ واقعية؛ فالجماهير تَغضبُ منك وتُكذبك وتستنكرُ أقوالك؛ لأن كلماتك ببساطةٍ لا تُناسب تطلعاتِهم وأحلامهم.

تركه تامر يكمل كلامه لوحده وصعد إلى الطابق العلوي، دلف بسرعةٍ إلى غرفته، وأوصد الباب خلفه، أخرج هاتفه وحاول الاتصال بهدى مجددًا فلم تجب، اتصل بوالدها لكنه لا يرد على هاتفه أيضًا! توجه نحو خزنته

السرية خلف لوحةٍ حائطيةٍ لشاطئ البحر معلقة فوق سريره مباشرة، ليُخرِجَ جوازات السفر والمسدس.

وهو في تركيزه الشديد يضغطُ على أزرارِ الخِزانة بعصبيةٍ مُحاولًا تذكر رمزها السري، شعر فجأة بظلٍ يقفُ وراءه وسمع صوتًا خشِنًا يقول له:

- إن كنت تريد الأغراض التي كانت موجودة في الخزانة فلن تجدها، لأننا أرسلنا بعض الرجال الذين فتحوا خزنتك وأفرغوها من كل محتوياتها، أنا أعلم جيدًا أنك تفكر في الهروب، لكن الحلُ الوحيدُ أمامك هو مواجهتي، افعل ذلك إن أردت، ولن أمنعك يا سيدي! ولتتأكد من ذلك خُذ مسدسي، لكن اعلم شيئًا واحداً، لن تتمكن من الهروب بعيدًا فنحنُ نراقِبُك منذ زمنٍ ونعرِفُ عنك كل شيءٍ، كيف تُفكر، وما الذي تريدُ فِعله، ومهما حاولت لن تستطيع أن تسبقنا ولو بخطوة.

هل تظنّ أن مرض عم زوجتك وذهابها لمراكش أمر عادي؟ نحن من أردنا فصلها عنك لكي لا تقومَ بعملٍ غبي أمامها، ولقد كُنتَ تُحاول الاتصالَ بها منذ علِمت بمجيئنا إلى المطبعة دون جدوى، هل تعرف لِمَ؟ لقد قطعنا الشبكة عن هاتفها وهواتف أفرادِ أسرتها. نحن نعتذرُ بشدة عنك لهذه التصّرُفاتِ المُسيئَةِ لمعاليك يا سيدي، لَكِننا لا يُمكنُ أن نُغامِرَ بِفقدانك أو هَربك، وأرجوكَ يا سيدي لا تتهوّر بفعلٍ أمرٍ غير مرغوبٍ فيه، فأنت لا تَملِكُ أدنى فِكرةٍ عن أهميتك بالنسبة لنا، وما يمكننا فعله لإعادتك إلى لندن.

تجمّدَ تامر في مكانه فكلُ خُطَطِه تلاشت أمام ذكاءِ واستعدادِ هؤلاء الغرباء، فلم يتركوا شيئًا للصدفة، الفُرصة الوحيدةُ التي كان يملِكُها للتفوقِ عليهم كانت باستعمال قُدرةِ ذلك الدُّعاء لكنها تلاشت، أظلمتِ الدنيا أمام عينيه، وانتابه غضبٌ شديدٌ بعد أن فشل تَخطيطه، التقَطَ أنفاسه للحظاتٍ، ثم وَثبَ فجأةً ودون تفكيرٍ في خُطوةٍ غيرِ مَحسوبةٍ على مكسيم، وباغتَهُ بِضربةٍ على صدرِه، أسقطته أرضًا فأفلتَ مُسدسه الذي تَدَحرَجَ ليخطِفهُ تامر بِخفةٍ ويُشهِره في وجه وهو يصرُخ:

- اتصل بصديقك الأخر وأخبِرهُ أن يبتعد عن هدى وإلا سأقتلك.

تنهد مكسيم بحذرٍ ثم ابتسم ابتسامةً شفافة، وقال بصوت غير مسموع:

- "هذا ما كنت أتمناه بالضبط!".

أَدخل يده في جيبه ليُخرِجَ منها هاتفه المحمول واتصل برقم فرناند، رنَّ لثوانٍ قبل أن يُجيب فقال له:

- ألو.... أخي فرناند!

- نعم مكسيم ما الأمر؟! أنت لم تناديني أبدًا بأخي!

- لقد تشرفتُ بالدراسة والعمل معك يافرناند، لقد قُمت بواجبي على أكمل وجه كما علّمنا جايكوب، والآن رُبما حانت لحظةُ خلاصي الأخير.

سَمِعهُ فرناند على الهاتف يأخذُ نفسًا عميقًا، وكان بإمكانه الشعور بابتهاجه وسروره، وقال له بعد أن صمت للحظات:

- أيها اللعين مكسيم! لا تُخبرني أن سليل الإنفوكار سيقتلك! لقد كُنتَ دائمًا تتمنى أن تكون أول من سيحصل على خلاصه، وها أنت ستُحققُ أمنيتك، ويا لها من ميتة مُقدسة! أنا متأكد أنك خطّطتَ لحصول كل هذا، ولكي تَنفرِدَ وحدك بالسليل، لم يخطُر ببالي أبدًا أنك ستتجرأ على فعل ذلك، وستسمح للسيد تامر بالهروب مقابل تخليصك!

ارتجفت أوصال تامر عندما سمع هذه الكلمات التي تخرج قوية عبر الهاتف، وازداد قلبه خفقانًا عندما رأى ابتسامة رضا على وجه مكسيم، وهو يُودع صديقه بفرحٍ عامر، لم يستوعب شيئًا مما يحدُثُ أمامه، ففي أفظع كوابيسه لم يكن يتخيل أبدًا وجود هذا النوع من الأشخاص، أفراد لا يكترثون للموت ويرحبون به، بل يحسدون بعضهم عليه؟! وما هذا التقديس الذي يقدسونه لشخصه لدرجة أنهم يتمنون الموت على يديه؟! بينما هو غارق في ذهوله، فإذا بمكسيم يقترب منه ويجثو على ركبتيه أمام أسطوانة المسدس وهو يقول:

- إن كنت تريد فرصة للهرب يا سيد تامر فعليك قتلي، أنا أعلم جيدًا أنك لم تقتُل شخصًا قط، ولم تُطلِق رصاصةً في حياتك، سأشرحُ لك كيف تُمسك المُسدس جيدًا وتضغط على الزناد بثبات، ولا تنس أن تفتح صمامَ الأمانِ، وحاول ألا ترتعِشَ فتُخطئ رأسي. أريدُ أن تكون ميتتي سهلةً وسريعةً من فضلك!

أفاق تامر من ذهوله وتراجع خطوات إلى الخلف، وهو يُحكم قبضتَه على المُسدس، ثم قال وهو يصرخ في وجهه:

- اسمع أيها الأصلع! أنا لا أمزح، أُقسم أنني سأقتُلُكَ إن لم تفعل ما أقولُه لك.

أجابه مكسيم بهدوء شديد:

-هذا ما أريد حدوثه بالضبط، فلا تنفعل، وركِز فقط فيما تريد فعله، فأنا راضٍ عما سيحصُلُ لي الآن، ليس هنالك أعظمُ لحَارس الدعاء من الموت على يد سيد الإنفوكار، هذه إشارة سماوية على أنني عَمِلتُ بكل صدقٍ وأمانة، فكافأني إله النور بأن تُقبَضَ روحي بيديك الطاهرتين.

- كُفَّ عن هذا لكلام الفارغ! أنا أعلمُ أنك تماطلني، لكي تستطيعَ خطفَ المُسدسِ مني والنجاةَ بحياتك.

- لقد أوقعتُ المسدسَ عمدًا لتتمكن من التقاطه، أنا لا يمكن أن أكذب أبدًا، فقد أقسمت منذ عقود على أن أُخلِصَ للعهد الذي وضعه أسيادنا الأولون حتى يأتيني الخلاص.

ما يحدث لك طبيعي، فأنت الآن مُرتبك وتائه، سأشرح لك لتستوعب ما يحدث؛ كلما ولد سليل إنفوكار جديد يُعين المجلس الأعظم ثلاثة حراسٍ يرافقونه، وعند انتهاء مهمته يقوم بالتضحية بنفسه لتنتقل القدرة إلى ابنه، واعترافًا بالخدمة العظيمة التي قدمها الحراس ينالون شرف الموت على يديه في

طقوس رسمية، أنا ومايا وفرناند حرمنا والدك من هذا الشرف، فعندما هرب واختفى، رفض العظماء اعتباره سليلًا شرعيًا للإنفوكار، وبذلك لم نحصل أبدًا على خلاصنا...

ما حدث كان كاللعنة بالنسبة لنا فقد خسرنا شرفنا كحراسٍ، واليوم قد كبرنا وربما نموتُ أو نمرضُ في أي لحظة، ونختفي كأننا لم نُقدم شيئًا للتنظيمِ أو لأنفسنا، ولن تذكُرناَ كتبُ التاريخِ بشيء سوى باسم أؤلئك الذين هرب في عهدهم سيد الإنفوكار، لكن الأمل عاد ليفرد جناحيه ويحلق من جديد فوقنا عندما اكتشفنا أن للسيد مارك ابنًا أنجبه ويعيش في بلد عربي.

نحن لا نملك أدنى فكرة عما سيحدثُ عندما سنعود إلى لندن، وهل سيوافقُ أعضاء المجلس العظماء على تركنا نحصل على خلاصنا على يديك أم لا، لذلك سانتهز الفرصة الآن وأموت يا سليل الدعاء لتتخلص روحي من معاناتها.

رِجلا تامر ودواخلهما تصطك في هذه اللحظة خوفًا من كلامه العجيب، لم يدر أبدًا ما يفعله في موقف كهذا وجمد في مكانه، فجأة قفز مكسيم أمام فوهة المسدس محاولًا إرغامه على الضغط على الزناد؛ فدفعه تامر برجله بكل قوته، لكن صلابة جسد مكسيم جعلت تامر يتقهقر إلى الخلف فانطلقت رصاصةٌ طائشةٌ من المسدس أصابت مكسيم بالخطأ مباشرةً في منتصف رأسه؛ فسقط الأخيرُ على الأرضِ صريعًا، وعيناه تنظران إلى تامر نظرات شكر وامتنان.

دب الهلع في أوصال تامر وحمل الهاتف الذي لم ينقطع خطه بعد، وقال بنبرةٍ صارخة وهو يرتجف ولا يدري ماذا يفعل:

- اسمع أيها الرجل، دع زوجتي وشأنها وإلا قتلتك كما قتلتُ صديقك.

أجابه فرناند بنبرة واثقة:

- لي الشرف أن تقتلني يا سيدي، ولكن يجب أن أكمل مهمتي قبل ذلك، إن كنت تريد الهرب فافعل! سأتصل برجالي وأمرهم بتركك! لكن لا تنس أن هناك جثةً في غرفتك، ولن تتمكن أبدًا من رؤية زوجتك أو ابنك المستقبلي إن اختفيت أو قبضت عليك الشرطة، حاول أن تفكر جيدًا قبل إقدامك على تصرفٍ قد تندمُ عليه إلى الأبد، ثم قطع الخط.

انعقد لسان تامر وسقط الهاتف من يده، جلس على الأرض؛ مُستندًا بظهره على أحد جانبي سريره، وعقد أصابعه خلف رأسه مستندًا على ركبتيه، صراع وحشي بين الأفكار يدور في داخله، هل يهرُب ويترك كل شيء خلفه أم يستسلمُ لهم كما أرادوا؟

بعد دقائق سمع باب منزله يُفتح، تلاه صوت أقدامٍ تثير الذعر في القلب تصعدُ الدرج، ثم فُتح باب الغرفة لتدخل مايا ومعها مجموعة من رجال.

أطرقت مايا أسفًا وهي تنظرُ إلى جثة مكسيم الملقاة على الأرض، اقتربت منه ومسحت بيدها على وجهه الذي اختفت ملامحه وسط الدماء الغزيرة التي فارت من جبينه، وقالت بنبرة حزينة وهي تنظر إليه:

- كنت أفضل أخ حصلتُ عليه بعد أخي الحقيقي، لقد تشرفتُ بالعمل معك، وأنا جد سعيدة لأنك حصلت على الخلاص الذي نبحث عنه منذ زمن، وقد وصلتَ إليه قبلنا كما كنتَ تتمنى دائمًا.

طبعت قبلةً على خده وأكملت:

- ها هي القُبلة التي طالما سعيت خلفها، خذها معك إلى العالم الأخر، حيث السلام المُطلق والنور الأبدي.

حمل الرجال الجثة ووضعوها في كيس بلاستيكي شفاف، ثم أخفوا كل ملامح الجريمة بسرعة ودقة متناهيتين.

نظرت مايا إلى تامر الذي لم تتوقف أطرافه عن الارتجاف وقالت له:

- الموت دائمًا يخيف الناس العاديين يا سيد تامر، أين ذهب الإيمان الذي تكلمت عنه من قبل؟ أين اختفى اليقين الروحي الذي يمُدك به دينك؟ بمناسبة الكلام عن الدين، لقد قرأتُ تقريرَ رجالنا الذين كانوا يُراقبونك منذ أيام ولم يُذكر أنك صلّيت أو سجدت لربك سجدةً واحدة! ألا تقولون في الإسلام إن من لا يُصلي كافر؟ إذن أنت كافر أيضًا كما تعتبرنا! هل رأيت؟! ليس هنالك أسهلُ من تلفيق التُهم ورمي الناس بالباطل! أنت لا تعرِفنا جيدًا لتحكُمَ علينا، لا أحد يملك الحق في الحكم على الناس سوى من خلقهم.

الآن كل شيء جاهزٌ للرحيل، ولا داعي للارتحال إلا إن كنتَ تُريد قتلي أنا أيضًا فيكفي أن تُخبرني سأطردُ الجميع حالًا، وأتركك تفعل، فذلك شرفٌ لي أيضًا!

نظر إليها تامر بعينين دامعتين يملأهما الإحباطُ، وقد اختفت ملامحُ وجه وقال:

- لن أقتُل أحدًا، أتوسل إليكم أن لا تلمسوا زوجتي بسوء، دعوها وشأنها وسأذهب معكم لأي مكان تريدونه.

قالت مايا وهي تمدُ له يدها لتساعده على الوقوف:

- كل شيء سيكون على ما يرام، ما أريده منك الآن فقط هو أن تتخلّى عن دور الفارس البطل الذي سيُنقذ أميرته من براثن الشر! فذلك لا ينجحُ سوى في المسلسلات والقصص التافهة التي يُصدقها البُلهاء، أما في الواقع فذلك ليس ممكنًا أو حتى منطقيًا، الملحمةِ بين الخير والشر التي تعيشُ أحداثها الجامحةَ تحدثُ فقط في مخيلتك، فلا تُحاول قهرنا والانتصار علينا؛ لأننا وببساطة لا نمثل الشر كما تعتقد، بل نحن رُسل النورِ، جئنا لانتشالك من بحر الظُلمات.

الفصل العاشر

الانْسلاخ

الخلاص هو أن تُنهوا حياتكم كما أردتموها أن تنتهي، أن تموتوا مُطمئنين وراضين على ما فَعلتم طيلةَ حياتكم، أن تنالوا السلام الأبدي الذي كُتب في الأزل للمخلصين، عندها ستَندمِجُ رُوحكم بروح النُّورِ السماوية التي خلقتكم على هذه الأرضِ وجعلتكم مُختلفين عن الأخرين.

إن كنتم تريدون أن تَعيشوا حياتكم دون تَركِ بصمةٍ واضحةٍ فيها، دون أن تُخلِّفوا وراءكم شيئًا يتذكرُكم به المُستقبل، دون أن تَنقُشوا أسماءكم على حائطِ الإنجازاتِ الخالد، فاعلموا أنكم مَيتُون أصلاً، لكنكم فقط تَجهلون ذلك....

علا صوتُ هديرِ مُحركِ الطائرة وابتسمت مايا ابتسامة حزينةً ومؤثرة؛ وهي تتذكرُ كلمات جايكوب التي يتردد صداها في رأسها منذ سنواتٍ، وتتذكرُ مكسيم الطفلَ الضخمَ المُتمردَ ذي الذكاءِ الخارق الذي رَفضَ تعلُّمَ الإنجليزية في أول سنة له في المعهد مُعتبرًا إياها غريمةً للغة الروسيةِ التي يعشقُها، قبل أن يخضعَ للأمرِ الواقع ويتعلّمها رغمًا عنه!

صعدتِ الدرج وهي تمسك بثباتٍ قبعتها الدائرية، لكي لاتُسقطها الرياحُ القوية، ثم دلفت إلى داخل المقصورة، بينما سارَ تامر خلفها بخطواتٍ ثقيلةٍ غير مُستوعبٍ لما يحصُل، والصورة المُخيفةُ لقتله مكسيم لا تُفارقُ خياله.

تقدّم رجلٌ في الأربعين ذو ملامح أوربية جميلة، وشعرٍ ناعم مرسل إلى الخلفِ، عيناه زرقاوان حادتان، ووجهه أبيضُ ممتزِجٌ بحمرة، ابتسم وهو يَهمِسُ بلطفٍ لمايا:

- مرحبًا سيدتي كيف حالك؟!

نظرت إليه نظرة جانبية، وقالت وهي تُعدِّلُ جلستها على الكرسي بِسرعةٍ، وتضعُ حزام الأمان.

- مرحبًا أيها الربان، هل سافر فرناند؟

- نعم سيدتي! لقد أرسلنا له طائرة خاصة إلى مدينة مراكش لِتُقِلّهُ إلى إنجلترا هو والسيدة هدى وجدي، لقد طلبوا منها مرافقتهم بلباقة، لكنها رَفضَت وقاومتهم وبدأت بالصُّراخِ، فاضطروا إلى تخديرها لإرغامها على ركوبِ السيارة.

- هل كان معها أحدٌ من أفرادِ أُسرَتِها عندما اختطفوها؟!

- لا، كانت بمفردها، ولكن وصلتنا معلوماتٌ تُفيد أن والديها يبحثانِ عنها، وبينما نحن نتكلم الآن هما موجودان في مخفر الشرطة للإبلاغِ عن اختفائها.

- حسنا جيد جدًا أخبِر رجالنا أن هذا الملف يجبُ أن يُطوى بسرعة، نحن أيضا يجب أن نَنطلِقَ الآن لنصل سريعًا إلى إنجلترا.

أجابها وهو يَلتفتُ يمنة ويسرة داخل الطائرة:

- وأين السيد مكسيم ألن ننتظر مجيئه؟!

أطرقت برأسها وقالت بنبرة حزينة:

- مكسيم لم يعد بيننا الآن، لقد انتهت مُهمتُه في هذه الحياة، وغادرنا إلى عالم أفضل.

تجمّدَ في مكانه للحظات ثم أجابها بعبارات مُبعثرة، وقد بدى عليه الذهول غير مُدركٍ لما يحصل:

- حاضر!... حاضر سيدتي سنُحلقُ حالًا كما تريدين!

أحنى رأسه احترامًا ثم توجه إلى مقعد تامر في الجهة المقابلة، ونظر إليه بفضول للحظات ثم قال:

- إنه لشرف لي أن أكون أول طيار تركبُ معه يا سيدي، انعم برحلة طيران سعيدة، هل تُريد شيئًا قبل الإقلاع؟

انتصب مُنتظرًا جوابه لكن تامر لم يعره اهتمامًا، فتلى على مسامعه كلماتِ الترحيبِ مجددًا، ثم عاد إلى مقصورة القيادة وأغلقَ الباب خلفه.

بعد دقائق انطلقت المركبةُ على مُدرجِ الإقلاع، وحلّقت مفارقة الوطن الذي وُلد وترعرع فيه تامر، أسند رأسه على زجاج النافذة، واستسلم لتأملاته، بينما ترتفع الطائرة، الشمس تميل للمغيب، احتضن ببصره كل ما يستطيع من تلك الأرض الطيبة التي كبر فيها وجرى حبها وعشقها في دمه، أحس في قرارة نفسه أنه لن يعود إليها أبدًا، لذلك ضمها بقلبه وروحه. المشهد البانورامي لمدينة الدار البيضاء أثار في داخله عاصفة من الذكرياتِ

والصورِ المقتطفةِ من حياته، البناياتُ العظيمة تظهر جليةً أمامه؛ مسجد الحسن الثاني حيث كان يأخذه جده لصلاةِ التراويح واقفٌ بشموخٍ في مواجهة أمواج البحر الهادر، وناطحتا السحاب التوأمتان اللتان يوجد في أسفل إحداهما مطعمٌ كلاسيكي رائع اعتادَ تناول العشاء فيه مع حبيبة قلبه كل ليلة سبتٍ، على ضوء الشموع والموسيقى الكلاسيكية.

قاوم توتره وحاول الاسترخاء على المقعد الناعم، أغمض عينيه وباله مشغولٌ بحبيبته، فقد اكتشف هؤلاء نقطة ضعفه الوحيدة واستغلوها أحسن استغلال، شعر بمدى غبائه لاستهتاره بقوتهم وأحس بتأنيبٍ شديد لضميره لإخفائه أسراره عن زوجته التي ستتجرع الألم بسببه.

بينما تخترقُ الطائرة السحاب مُتجهةً نحو مدينة الضباب، أغمض عينيه ببطء، واستسلم مُكرهًا للنوم وهو يشق طريقه نحو بلدٍ جديد، وفصل مجهولٍ من حياته.

****

ساعة البينغ بانغ الشهيرة تشير إلى الخامسة والنصف، على ارتفاع عشرين ألف قدم عن البحر كانت طائرة الخطوط الجوية البريطانية تهتز بفعل المطبات الهوائية، لكن تامر بالكاد مهتمٌ لما يجري، بعد دقائق حطت الطائرةُ رحالها على مُدرّجٍ خاص في المطار الدولي في لندن.

اصطفت مجموعة من الأجانب الغرباء في صفين متقابلين لاستقبالهم، يرتدون بذلات ونظاراتٍ سوداء، نزلت مايا من الطائرة يتبعُها تامر، صامتٌ لا ينطقُ وعيناه لا تتزحزحان عن الأرض، كان الجو قارسًا وهو يرتجفُ من الرعب والبرد والخوف، تقدم إليه رجلٌ يحملُ معطفًا جلديًا فاخرًا وساعده على ارتدائه.

نظرت إليه مايا ثم قالت له وهي تبتسم:

- مرحبًا بك في مدينة السحر الدافئ والشتاء الرمادي، إنها لندن، ملهمة شكسبير ومحتضنة ديكنز، هنا عاش كل أجدادك من قبل وسيعيش أحفادك بعدك.

حام تامر بنظره مكتشفًا الأجواء المدينة الضبابية، وقد اختلطت مشاعره وتذكر كم تمنى السفر إلى إنجلترا أيام دراسته، فقد كان كغيره من أقرانه يُمَني النفس بالهجرة ليتمكن من مساعدة جده وليصنع مستقبلًا جيدًا لنفسه.

استقل الإثنان سيارة مرسيدس سوداء فاخرة سارت تخترق شوارع لندن تتبعها سيارات أخرى غريبة، الموكب لا يتوقف، يتجاهل المارة وإشارات المرور، ويجتازون الزحام بنفوذ وثقة وصوت صفاراتها المدوي يفرق المارة في أشد أزقة لندن زحامًا، بعد نصف ساعة وقف الموكب أمام باب قصر كبير، كانت الشمس تميل إلى المغيب، فتحت مايا زجاج النافذة، وأشارت بيدها نحوه وهي تقول لتامر:

- "هذا هو قصر باكنغهام المشهور ربما لن تتاح لك الفرصة لزيارته، لذا رأيت أن أوقفك هنا قليلًا لتتأمل جماله، إنه رائع أليس كذلك؟!"

نظر تامر إليه بطرف عينه ثم أشاح بوجهه عنه غير مكترث لكلماتها، رمقته بنظرة تذمر ثم أمرت السائق بالانطلاق من جديد فأكملت السيارة طريقها وسط شوارع لندن، بدأت المدينة تعدو من جديد أمام عيني تامر، وهو شارد الذهن يفكر في حل لمصيبته، بعد مسافة خمسين كيلومترًا اختفت المباني وظهرت حقولٌ واسعة عريضة، ثم انعطفت السيارة عبر طريق ثانوية واجتازت ممرًا ضيقًا كثيف الأشجار ممتد لمسافة طويلة، في أخره لاح من بعيد قصر عظيم محاط بسور لا تُميز حدوده.

اقتربت السيارة من المكان وتامر يتأمل عبر النافذة بذهول محاولًا استيعاب حجم السور.

كان طوله ميلين ونصف الميل، وارتفاعه ٦٥ قدمًا، في أركانه الأربعة أبراج نصف دائرية تنتهي من الأعلى بشرفات بارزة، مساحته تقدر بأكثر من خمسين ألف متر مربع.

وقفت السيارة أمام بوابة حديدية عظيمة ومزخرفة برموز شعائر غريبة تبعد عن البناء الرئيسي مسافة ميلين.

اصطف أمام الباب مجموعة من الحراس طوال القامة وأقوياء البنية، يبدو عليهم الاحتراف كأنهم جنود سابقون في القوات العسكرية، يلبسون بذلات

سوداء ونظارات غامقة، ويضعون سماعات بلوتوث على آذانهم، ملامحهم خالية من التعابير لا يتحركون من أماكنهم؛ كأنهم أصنامٌ وثنية جامدة، يراقبون الطريق بيقظة وتركيز شديدين.

عندما تعرّف رئيسهم على مايا أمرهم بفتح الباب بسرعة، لينكشف من خلفه ممر طويل تحفه الأشجار من الجوانب، وفي نهايته ظهرت حدائق مضيئة بألوان زاهية تمسحُ ظلام الليل، ثم ظهر قصرٌ شامخ من بعيد على مرج أخضر. توقفت المركبات الأخرى في تلك النقطة، بينما صارت السيارة وسط ذلك السحر الخلاب ورحيق زهور البساتين الذي ينعش الصدور الجريحة.

وصلت السيارة أخيرًا إلى باب القصر، حيث التدابير الأمنية أشد، أسكت السائق المحرك ثم نزل ليفتح الباب الخلفي، ترجل تامر وهو يشعر بدهشة شديدة، وعيناه تحاولان استيعاب الكتلة العظيمة للقصر بالكامل، توجهت مايا أمام الباب وقربت عينيها اليسرى أمام آلة استشعار إلكترونية لتمسحها ضوئيًا بعدت ثواني خرج صوت من داخلها يقول بلغة إنجليزية:

Welcom Miss Maya- مرحبًا بعودتك سيدة مايا."

فُتحَ الباب لوحده ببطء، التفتت مايا إلى تامر وقالت له وهي تحنى رأسها احترامًا وتشير إليه بالدخول: "مرحبًا بك في قصرك العظيم، هنا سكن كل أسلافك منذ تأسيس التنظيم، وهنا ولدوا وتربوا ودفنوا، فأهلًا بعودتك يا سليل الإنفوكار إلى بيتك".

مشى تامر بخطوات حذرة داخل القصر وهو ينظر باندهاش لجماله الخلاب، تحفة فنية متقنة بأدق تفاصيلها مبنية بإلهام معماري روماني، شعر ببرودة المكان تُزلزلُ أعماقه، وبعث شكله المهيب في أوصاله خوفًا غريبًا من ذلك العالم المجهول الذي سيخترقه.

أحست مايا بخوفه فأمسكته من يده وتوجهت به في ممر رخامي طويل واسع به أبواب عديدة، لا يستطيع الإنسان التمييز بينها، قادتهم نهايته إلى الردهة الرئيسية للقصر ذات سقف عال، تتدلى منه ثريات تتألق بعظمتها الكلاسيكية.

نظر تامر إلى أعلى القباب وقد اعتراه الذهول وهو يتأمل الأشكال والرسومات الرائعة من عصر النهضة التي تزينه، أما النوافذ فقد كانت تتلألأ بين العوارض المزخرفة بأشكال بديعة.

أشارت مايا لعشرات اللوحات الزيتية النصفية بإطارات ذهبية معلقة على الجدران، كل لوحة عبارة عن رسم نصفي يمثل رجلًا جالسًا على كرسي بشكل جانبي بكل وقار وإجلال، سألته بحماس مبالغ فيه، وقد انتبهت إلى اندهاشه من جمال اللوحات ودقة تفاصيلها:

- هل استطعت التعرف على هؤلاء؟!

نظر تامر إلى الوجوه المتشابهة في اللوحات دون تفكير، والدهشة تعتريه من جمالها ودقة تفصيلاتها، ثم أجابها وهو يهز رأسه نافيًا:

- وكيف لي أن أعرف من هم؟!

- ألا تلاحظ أوجه التشابه الكبير بينك وبينهم؟ هؤلاء هم أسلافك، سلالة الإنفوكار الذين حققوا الأمجاد للمنظمة.

أشارت بيدها إلى لوحة في منتصف الردهة وقالت: "هذا جدك الأول أندريه رفاييل مُؤسسُ التنظيم"، فتحت ساعديها بفخر وأكملت: "أجدادك كلهم هنا ليشهدُ التاريخ على تضحياتهم، فقط أنت ووالدك من تغيبان عن هذا الحائط، هل تعلم أن مِنهم من يُشبهك كثيرا! أنظر إلى هذه اللوحة في أقصى اليسار إنه «جون الخامس» جدك المباشر أنتما تملكان نفس العينين والأنف، وحتى لون الشعر تمامًا!

اقترب بفضول يتفحص اللوحات التي أشارت إليها، ثم قال بكبرياء محاولًا تصنعه:

- "نعم صحيح هو يشبهني في الشكل، لكنني اختلف عنه كثيرًا في العقيدة والمبادئ، وأنا لا يشرفني أصلًا أن أكون حفيدًا لشخصٍ مثله باع أقدار الناس من أجل المال والسلطة، مهما حاولت يا مايا فلا تَحسبي أبدًا أنني سأسقطُ في هوتكم السحيقة؛ حيث تنفلتُ الإنسانية كما فعل هؤلاء الغرباء الذين أسميتهم بأسلافي".

تجاهلت مايا إجابته تلك وطلبت منه الاستمرار في المشي، لكن عينيه ظلتا مُتسمرتين على اللوحاتِ، والدهشة تعتريه لشدة التشابه التي تجمعُه مع أغلبهم.

صعد الإثنان دَرْجًا رخاميًا جميل الشكل إلى الطابق العلوي للقصر، ثم عبرا ممرًا طويلًا فيه مجموعة من الغرف المتشابهة.

كان القصر محفوفًا بأشخاص لا تُميزُ لهم وجوهًا، كلهم بسحنة واحدة، يقومون بأعمالهم في صمت شديد، ولا يُكلمون بعضهم إلا للضرورة، ما إن يمر تامر ومايا قُرب أحدهم حتى يحني رأسه احترامًا وهو يقول: "مرحبًا بعودتك لمنزلك يا سيدي".

قالت له مايا بعد أن لاحظت اندهاشه منهم:

- هؤلاء هم خدم القصر، وكلهم تحت إمرتك.

أجابها بذهول:

- وهل يتحدثون العربية مثلكم؟!

- فقط بضع كلماتٍ تعلموها عندما علموا بمجيئك، ليتمكنوا من الترحيب بك وتلبية طلباتك.

- وهل يعرف جميع الخدم حقيقتي!؟

-لا بالطبع! يعرفون فقط أنك شخصٌ مقدسٌ، وأهم عنصر في المنظمة، ولكن لا يعرفون شيئا عن التحكُم بالزمن، فأنت بالنسبة لهم شخصٌ يملك قوى روحية تُمكِّنُهُ من تَلقي أوامِرِ الشيطانِ والتخاطُب معه دون واسطة!

أجابها تامر وقد زاد فضوله:

-إذن فأنتم تكذبون عليهم كما تكذبون على العالم بأسره! وكيف تضمنون أنه لن يكتشف أحدهم سر سلالتنا؟

-نحن دائمًا نُراقب سلوكهم، وكل ثلاثة أشهر نعرضهم على جهازٍ لكشف الكذب، ونقوم بالتحقيق معهم، وإذا شككنا في معرفة أحدهم لسر من أسرارنا العظيمة يتم استبعاده أو تصفيته بتُهمة الخيانة.

وصلا أخيرًا أمام باب غرفة كبيرة مختلفة عن الغرف الأخرى، يقفُ فيه رجل ضخم الجثة مربع الصدر بملامح حادة، يُعلق على حزام خصره العديد من المفاتيح الذهبية اللون.

أمرته مايا أن يفتح الباب؛ فلبى نداءها بسرعة، ثم التفتت إلى تامر قائلة:

- لقد وصلنا إلى جناحك الملكي سيدي، ارتح هنا اليوم واستعد جيدًا، غدًا يوم مهم فسيجتمع العظماء الثمانية من جميع دول العالم ليقرروا مصيرك.

زادت حيرة تامر وقال:

- مَن الذي تقصدينه بالعظماء؟ وما علاقتهم بمصيري؟

- المنظمة لها نفوذ قوي حول العالم، ولدينا تعليمات صارمة باستعمال نظامٍ للمستويات، ولكل عضو عملٌ معين ونطاق تدخلٍ محدود، لذا لا يعلم أحدهم شيئًا عن سر الإنفوكار، وإذا أثبت العضو أنه جدير جدًا بالثقة يختاره سيد الإنفوكار بنفسه ليُصبح واحدًا من العظماء الثمانية الذين يُمكنهم التواصل معه مباشرةً وأخذ القرارات المصيرية معه.

قال لها باستغراب:

- أنتِ والرجل الذي قتلته، وذلك المدعو فرناند، هل تنتمون للعظماء؟

-نحن حراس الإنفوكار، نتعلم منذ صغرنا خدمة الدعاء المقدس، ولا نخضع لنظام المستويات، فمهمتنا مقتصرة على تحديد التغيرات التي يجب أن يُحدثها صاحب الإنفوكار في الزمن، والمحافظة على سلامته.

- عندما وصلتني رسالة والدي انكفأت على نفسي أبحث في أسرار المنظمة، وأقرأ الكُتب والمراجع العديدة التي تتحدثُ عنكم، واكتشفت أن أغلب المهتمين متأكدون أن منظمتكم هدفها السيطرة على العالم، وهناك من يقول إنكم تخدمون الشيطان بنفسه.

ضحكت قليلًا ثم أجابته:

- هل تعرِفُ أصل هذه الفكرة يا تامر؟ سأخبرك:

- أيام القمع الديني في أوروبا كانت الكنيسة تُسمِي كل الطقوس الغريبة عن معتقداتها بأعمال شيطانية لتُبعد الناس عنها ولترهبهم منها، لذلك اتُهمت

المنظمة آنذاك بالكفر والهرطقة والولاء للشيطان وقُتل العديد من أعضائها وصُفي زعماؤها؛ وذلك لأنهم كانوا يحاولون جاهدين إخفاء سر الإنفوكار، هذه الاتهامات التي تعرضت لها المنظمة كانت غطاءً مناسبًا لإخفاء الحقيقة الكبرى، وهي تحكمها بالزمن، ومع مرور الوقت كبر نفوذ المنظمة وازدادت حدة الشائعات.

إن الإنسان بطبيعته ثائر، ويحب الأشياء المبهمة والغامضة؛ لذلك تجد الناس حول العالم وخصوصًا المثقفين منهم يلفقون قصصًا عنا، ويدّعون معرفة أسرار منظمتنا بسبب طقوسنا الغامضة والتي ستراها غدًا، ما يجهله هؤلاء هو أننا لسنا لنا دين، رغم أن نظرتنا للخالق مطابقة للأديان السماوية.

حتى الماديون حول العالم ممن لا يؤمنون بالغيبيات يتهموننا بالهرطقة والإلحاد، لكننا لسنا بملحدين، فمن شروط الالتحاق بنا الإيمان بقوة إلهية سامية، نحن نمجد الخالق ونعتبره القوة المطلقة في الكون التي يجب أن نهب لها أنفسنا بعد الموت.

وماذا عن إجباركم للناس بالانضمام لكم، وتصفية من يرفضون ذلك؟

سريتنا هي ما يجذب الناس من مختلف دول العالم إلينا، فالإنسان بطبيعته فضولي، ويعشق كل ما هو غريب ومجهول؛ لذا يقوده إلينا حبُ الاستطلاع والغموض الذي يعترِي طُقوسنا.

أما عن القتلِ فنحنُ لا نقتُل سوى من يهدد مصالحنا فقط.

من ينضمُ إلى أمثالكم ضعافُ القلوبِ، ممن ابتعدوا عن طريق الله، وسيكون مثواهم النار يا مايا.

ابتسمت مايا ابتسامة باردةً وأجابته:

- الإنسان يفعلُ ما يتوجب عليه فعله في هذه الحياة، أما عن مثواه الأخير فذلك سؤال لن يجيبك عنه سوى الموت!

قال تامر وقد زفر زفيرًا عميقًا، محاولًا تغيير الموضوع الذي أرهق تفكيره:

- أنا لا أهتمُ لكل ما تفعلونه، ما يُهمني فقط هو زوجتي، أين هي؟! هل أحضروها إلى هنا أيضًا؟!

أجابته وهي تنظر إلى ساعة يدها:

- لقد وصلتْ هي وفرناند قبلنا بساعتين، هذا القصرُ مُكونٌ من ثلاثة أجزاءٍ مُنفصلة، هي الآن في الجناحِ الغربي ومعها أمهر الأطقم الطبية والممرضون ذوو الخبرة العالية، يراقبون وضعها ويسهرون على راحتها، سآخذك لتراها إذا حصلت على موافقة أعضاء مجلس العظماء، فمهمتي تقتصر فقط على إحضارك إلى هنا.

أخد تامر نفسًا عميقًا ثم قال:

- وماذا تتوقعين أن يحصل غدًا؟

قالت وقد سبحت بنظرها إلى بعيد:

لا أعلم في الحقيقة! لكنني أريد أن يحدث ما أتمناه، فأنا وفرناند مصيرنا يتوقف على مصيرك أيضًا.

استغرب تامر لتغير تقاسيم وجهها وشرودها المفاجئ وقال لها:

- وما الذي تتمنين حدوثه؟!

نظرتْ إليه نظرة تأمُلٍ، ثم قبَّلتْ وِجنتَهُ بهدوءٍ وانسحبت دون أن تجيبه، وما أن تجاوزت باب الغرفةِ نحو الخارج حتى التفتت لتبتسمَ في وجهه وقد تلألأت عيناها بالدموع قبل أن يُغلِقَ الحارسُ الصلد باب الغرفة بالمفتاح.

****

دارت عينا تامر سريعًا بفضول يتفقد المكان؛ جناح رحبٌ بمقاعد كلاسيكية فاخرة، موزعة على الأطراف، تحف أثرية نادرة، ولوحات زيتية كلاسيكية معلقة على الجدران بشكل متناسق، على اليمين في أقصى الغرفة يقبع سرير إنجليزي عريض من القرن الماضي ذو أعمدة ذهبية مرصعة بالجواهر، ومغطى بملاءة بيضاء فاخرة.

أمام الشرفة مباشرة نُصبت مائدة رخامية عريضة الشكل عليها أشهى أنواع المأكولات العالمية.

توجه تامر نحو الشرفة المطلة على الحديقة وحاول فتح بابها لكنه كان موصدًا بإحكام.

كلَّم نفسه وهو يتفحص زجاج النوافذ: "الهرب شبه مستحيل من مكان كهذا". استلقى على السرير كجثة هامدة، وبدأ يفكر فيما يحصل له، وكيف سينقذ زوجته من هذه المصيبة العظيمة التي يعيشها.

كان الليل قد أسدل ستاره، شعور غريب في داخله خلفته الأحداث التي وقعت في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، جعلته أقرب ما يكون إلى الحُلم، قبل أيام فقط كان ينامُ في منزله قرب زوجته، ثم انقلبت حياته بطرفة عين، أغمض عينيه بصعوبة، واستسلم لنومٍ عميق سبَّبه الإرهاقِ الذي عاناه.

استيقظ جزعًا في هزيع الليل وجسده يتصببُ عرقًا، فقد زاره كابوس مُخيف جثم على أنفاسه الثقيلة، لقد رأى هدى واقفة في البهو الرئيسي للقصر، ترتدي ثوبًا أبيض مُمزقًا وملطخًا بالدم، وتحملُ رضيعًا عاريًا بين يديها، يصرخُ بأعلى صوته، كانت تنزفُ دمًا غزيرًا من فمها وأنفها، وتنظرُ إليه بغضب، أصابه خوف وهلع شديد فانتفض من فراشه، وجلس على أحد الكراسي الوثيرة المقابلة للشرفة، ومسح عرقه بطرف ثوبه، وهو يتأمل ضوء القمر المُنْسَلِ عبر زجاج النافذة الشفاف، حاول النوم لكنه رفضَ زيارته مرة أخرى حتى بزغَ فجر اليوم التالي.

في الساعات الأولى من الصباح الباكر عادت مايا إلى جناحه تتبعُها خادمةٌ شقراء تحمل ثوبا كهنوتيًا حريريًا أبيض اللون ومُزركشًا بخطوطٍ ذهبيةٍ على

شكل مثلث تُشبه تمامًا الوشم الذي كان يملكه تامر، دقّقت في ملامحِهِ المُتعبة بعد أن قضى الليلة شاردًا يُفكرُ وقالت له بتعجب:

أنت لم تنم جيدًا بالأمس!

- أشعر بجمرةٍ مُشتعلةٍ في مؤخرةِ رأسي.

- ما يحدُثُ لك أمرٌ طبيعي جدًا، فذلك جزءُ البدايات فقط فما عِشته اليومين الماضيين ليس بالأمر الهين، لكنك ستعتادُ على كل شيء عما قريب.

أمرت الخادمة بالاقترابِ ثم أكملت كلامها:

- سنبدأ بعد نصف ساعة، بعد انتهائنا مباشرة سأطلب من الطبيب زيارتك، أما الآن ستساعدك الخادمة على تغيير ملابسك لكي لا نتأخر.

نظر باشمئزازٍ إلى الرّداء البُني الذي يُشبه لباسَ رجال الدين الكهنوتيين ونزعه من يد الخادمة ليرميه أرضًا وهو يقول بتذمر:

- أنا لا يمكنني أن ألبسَ هذه الأشياءَ السخيفة حتى ولو حاولتم إرغامي على ذلك.

طلبت مايا من الخادمة الانصراف والتقطت الرداء من الأرض لتضعه بلُطفٍ فوق الكنبة قربه، ثم قالت له بهدوء تام:

- يجب أن تعلم يا سيدي أنه محرم عليك دخول المعبد السري بدون الزي الملائم، الأمر ليس اختياريًا، بل القوانين الصارمة تنصُ على ذلك.

إن كنت ترفضُ الحضور والامتثال للأوامر، فلن يُجبرك أحد حتى العظماء

رغم أن ذلك التصرف سيعتبر إهانة لشخصهم المُوقر، لكن مثلُ هذا القرار لن يزيد مشكلتك سوى تعقيدًا، وستظلُ حبيس هذا الجناح إلى أجل غير مسمى وستُعتبر خائنًا للتنظيم كوالدك، وبالتالي لن يوافقوا على أي طلباتٍ تطلبها، ومنها رؤية هدى، وستظل حبيس جناحك الملكي حتى تلد مولودها، وربما لن تراها بعد ذلك أيضًا.

أحنى تامر رأسه ولم ينبس بكلمة واحدة.

ابتسمت وأخرجت من جيبها قلادة ذهبية على شكل نجمة سداسية مرصعة بقطع صغيرة من الياقوت الأحمر، وقالت وهي تضعها حول عنقه:

حاول التركيز في كل خطوة تخطوها وكل قرار تأخذه، فاليوم أنت من تملكُ مصيركَ بيديك، البس رداءك وضع هذه القلادة حول عنقك وتعال معي!

أجابها بفظاظة وهو يتفحص القلادة:

- "إنه رمز شيطاني يا مايا".

ابتسمت قائلة:

- ألم أطلب منك أن تنسى أمر الشيطان؟! أنت تُصدق الكلام الخرافي الذي يُنشر في القصص والروايات وعلاقة النجمة باستحضار الأرواح والشياطين، هذه فقط نجمة داوود كان يستعملها المصريون القدماء والهندوس في طقوسهم، نحن اخترناها أيضًا شعارًا لنا لسبب وجيه! تمعن

جيدًا في شكلها الهندسي، إنه يتكون من مثلثين متساويي الأضلاع؛ كل ضلعٍ في المثلث الأفقي يرمز لكل مرة من المرات الثلاث التي يعود فيها السليل إلى الماضي، وأضلاع المثلث المقلوبِ هي التغييرات التي تحدث في الزمن بعد كل عودة.

وضعت القلادة حول عنقه، ثم ساعدته على ارتداء الرداء، وغطت رأسه بالقلنسوة، ثم ربطت خصره بحزام جلدي بني اللون يشبه في شكله حبلًا متينًا.

نظرت إليه مايا بإعجاب فور انتهائه وقالت:«إنها على مقاسك بالضبط!».

التفت إلى المرآة ونظر إلى شكله المُنعكس عليها وهو يُحدق في ملامحه ويسأل نفسه " هل هذا حقًا أنا؟ تامر حمدي الشاب العربي المسلم الذي درس واجتهد وعانى ضيق الحال والبطالة والتهميش، والذي كان مبلغ أمله في الحياة أن يجد عملًا ثابتًا ويتزوج الفتاة التي يُحبها؟! أم أنا سلاحٌ سري لأخطر منظمة في تاريخ البشرية؟!

لم يُوقظه من شروده سوى صوت مايا وهي تُغادر الغرفة، وتطلب منه الالتحاق بها بسرعة.

خرج من الباب يتبعها عبر الممر الرُخامي، ونزلا إلى الطابق السفلي ثم إلى الردهة الرئيسية؛ حيث كان في انتظارهم عشرة رجال، أخفوا وجوههم تحت

قلنسوتاهم ويرتدون رداءًا كهنوتيًا من الصوف بلون بني، كأنهم رهبان من العصور الوسطى، ويحملون شمعًا أحمر مشتعلاً، تقدموا نحوه واصطفوا خلفه في صفين متوازيين، وقد أحنوا رؤوسهم، وهم يتلون بصوت عالٍ ترانيم مبهمة بلغة لم يستطع التعرف عليها.

حملق تامر فيهم بذهول، واشتد عليه الخوف قبل أن تتدخل مايا قائلة:

- "لا تخف فهؤلاء هم حكماء المعبد، إنهم يسهرون على خدمته، والقيام على شئونه يسكنون القسم الغربي القصر لقد جاءوا للترحيب بك ومرافقتك.

مشى تامر يتوسط صفي الحكماء يمرون بين بنايات ودهاليز القصر التي لا تنتهي، وكلما مروا بجانب خادم أو حارس أحنى لهم رأسه احترامًا.

وصلت المجموعة إلى القسم الغربي، ودخلوا عبر ممر طويل إلى قاعة مركزية شكلها دائري رُسِمت على أرضيتها نجمة سداسية كبيرة بلون أسود وأمامها مباشرة باب يقف عليه حارسان، اقترب الموكب منه دون توقف ففُتح الباب ليتجلى أمام تامر منظرٌ مهيبٌ، لم ير مثله في حياته؛ غرفةٌ شبه مظلمةٍ أشبه بمعبدٍ قديم، سقفُها شاهق جدًا يرتفع لمئتي مترٍ، مضاءة بسلسلة من الشموع الحمراء، مرتبة بدّقةٍ متناهية، أما الجدرانُ فقد رُسمَت عليها أشكالٌ هندسيةٌ غريبة.

عند دخوله سمِع صوت ترانيمٍ مهيبة تَبعثُ الرعب في النفوس بِلغة قديمة مبهمة المعاني، توقفت المجموعة في وسط القاعة أمام طاولة رخامية

عريضة وُضعت عليها أشكال ومجسماتٌ غريبة كالتي يستعملها السحرة، يجلس حولها ثمانية أشخاص يلبسون عباءات تشبه تمامًا التي يرتديها تامر ويضعون حول أعناقهم قلائد متنوعة تحمل شعارات غريبة.

أحنت مايا ومعها الحكماء رؤوسهم في خشوع وانتصب الجالسون حول الطاولة، يتأملون تامر في جو صامت مهيب، امتد لدقائق طويلة مرت عليه وكأنها سنوات.

تقدم منه رجل ستيني تبدو عليه ملامح الهَيْبة والوقار، وعينان تشعان بسلطة قوية وذكاء متقدٍ، يظهر من خلال موضع مقعده الذي يتوسط الطاولة والمرتفع قليلًا عن المقاعد الأخرى، إنه رئيسهم، قال له وهو يفتح ذراعيه ويبتسم:

- مرحبًا بعودتك بيننا يا سليل الإنفوكار، أنا الرئيس الأعظم، نحن فعلًا سعداء؛ لأننا وجدناك أخيرًا بعد رحلة بحث طويلة عن والدك السيد مارك الذي خان أجداده وهرب تاركًا مستقبلنا وهويتنا في خطر.

تأمله ليحلل قسمات وجهه المرعوبة ثم أكمل:

- نحن نعلم أنك خائف وتائه، فكل شيء بالنسبة لك غريب! ذلك طبيعي جدًا؛ فروحك الطاهرة قد تدنست بالأفكار المُلوثة للعامة والمغيبين الذين أجبروا والدك أن تُولد وتتربى بينهم.

أحس تامر بحنق وغضب شديدين امتزجا بالخوف والرهبة ليولد شعورٌ غريب تمامًا لم يشعر بمثله طيلة حياته، لكنه لم يستطع أن ينبس بكلمة لهول الموقف وعدم استيعابه الوضع.

أشار ذلك الرجل لمايا بيده لتُغادر، فأحنت رأسها وتراجعت إلى الخلف حتى وصلت إلى الباب يتبعها الحكماء بانصياع تام، وأُغلِقَ البابُ خلفهم ليبقى تامر وحيدًا مع الرجال الثمانية.

نزع الرئيس الأعظم القلنسوة التي يضعها على رأسه ليظهر من تحتها شعر غزاه الشيب، وكذلك فعل الأخرون في آن واحد.

حدَّق تامر في وجوههم واحدًا واحدًا وبدت صدمته كبيرة عندما تمكن من التعرف على بعضهم، ثلاث شخصياتٌ نافذة في عالم السياسة والاقتصاد، واثنان من أشهر نجوم الفن في العالم، لم يستطع التعرف على الباقين، ولكن ظهر جليًا من هيئتهم أنهم شخصيات مرموقة، يملكون سلطة ونفوذًا واسعين.

طلب الرئيس الأعظم من تامر التقدم والجلوس على مقعد فارغ على يمينه؛ تحرك بخُطى خجولة مُمسكًا بطرف عباءته الطويل لكي لا يتعثر به، ونزع قلنسوته وجلس بحذر وهو ينظر إليهم واحدًا تلو الآخر، متعجبًا ويسأل نفسه: كيف لأناس كهؤلاء أن ينتموا لهذا التنظيم السري؟ ويحضرون اجتماعاتٍ سرية كهذه دون أن ينتبه إليهم أحد.

وضع الرئيس القلادة التي تلف عنق تامر على راحة يده وقال بفخر:

- " أرى أنك استعدت القلادة التي توارثها أجدادك على مر القرون، أنا أتذكر جيدًا عندما أعطيتها لوالدك يوم انتقلت قوة الدعاء إليه؛ لكنه للأسف لم يكن أهلًا لتحمل الأمانة فرماها ليلة هروبه، كانت أيامًا صعبة للغاية علينا، فقد كاد يَهدِمُ كل ما بناه أجداده في طرفة عين.

قبل أن نبدأ اجتماعنا يا سيد تامر أريد أن أوضح أمرًا مهمًا، وهو أن تعرف أن سر الإنفوكار هو سرنا الأعظم والمقدس، ولا يعلم به أحد سوى النخبة المختارة؛ لذا كل ما يقال هنا يجب ألا يتعدى أبدًا جدران القاعة، مهما كانت الظروف، فسر سُلالتك هو أعظم سر في الوجود".

قال تامر وهو يُبعثرُ الكلمات:

- نعم أنا أعلم ذلك فقد نبهتني مايا من قبل.

- هنا في القصر ما يعرفه الخدم والحراس أن سلالتك وسطاء بيننا وبين عالم الأرواح والجن، وأنك تخدم الشيطان بنفسه، حرك رأسه مؤكدًا وهو يحدق في الأشخاص المحيطين به والذين تلمع عيونهم كأشباح على ضوء الشموع الخافت.

- لا تخف، تكلم براحة، فنحن في هذه الغرفة كلنا متساوون، إخوة يجمعنا رابط روحي واحد، أنت تعلم جيدًا أن أجدادك هم مؤسسو التنظيم، ونحن نقدسهم تقديسًا خاصًا.

أحنى رأسه متهربًا من الإجابة، فأكمل الرئيس الأعظم كلامه:

- لكن والدك أراد تحطيم كل ذلك، عندما قرر التخلي عنا وعن ورث أجداده، واختار الهرب للعيش مع العبيد وعامة الشعب.

أجابه تامر بتردد:

ذلك كان قراره، وتلك كانت رغبته، أنا لا يمكنني أن أحكُم على أفعاله.

تجهم وجهه فجأة، وقال بنبرةٍ يُحاول جاهدًا السيطرة عليها:

- وأنت يا سيد تامر ابنه وحامل كلمته ووريث دعائه، عندما عرفت الحق وانكشف لك اليقين بدل أن تعيد لسلالتك العظيمة مجدها، حاولت الهرب من قدرك، بل قتلت حارسًا من حراس الإنفوكار المخلصين، السيد مكسيم.

- لقد قتلته بالخطأ، فقد هددوني باختطاف زوجتي حتى إنه كان سعيدًا جدًا بموته بيدي وشكرني أيضًا.

صمت الرجل قليلًا وكأنه يحاول السيطرة على غضبه ثم أكمل:

- هذا كان خطأك الأول، أما خطأك الثاني فلا يغتفر أبدًا فقد استنفدت دعواتك الثلاث في تغيير الزمن من أجل أطماعك الشخصية.

قال تامر بحدةٍ مدافعًا عن نفسه:

- عندما حصلت على تلك القدرة بعد وفاة والدي لم أكن أعلم حقيقتها، ولم أعرف أيضًا أنها محدودة في ثلاثة استعمالات، وعندما اكتشفت ذلك كان الأوان قد فات.

قال الرئيس الأعظم بحسم:

- كل هذا أصبح من الماضي، الآن أمامك خياران يا سيد تامر: إما أن تنضم إلينا بروحك وجسدك، وإما أن ترفض ذلك فتتحمل العواقب.

أجابه تامر وقد استعاد جزءًا من شجاعته المفقودة:

- أنا أمقت هذا المكان منذ دخلته، فسلطتكم الزائفة قائمة على التلاعب بأقدار البشر، حتى أجدادي الذين تفتخرون بإنجازاتهم أحتقر نفسي كل لحظة لكوني حفيدًا لهم.

على وقع تلك الكلمات الجافة التي أطلقها غرقت القاعة في صمت تام للحظات، التفت الرئيس الأعظم إلى الرجل الجالس عن يساره، وتبادل معه كلمات مبهمة قبل أن ينظر إلى تامر مرة أخرى، ويضرب الطاولة بقبضة يده بحسم قائلاً:

- "يمكنك أن تقول ما تريده يا سيد تامر، فالأمر خرج عن سيطرتك الآن، فمصيرك بيد الوريث القادم الذي سيولد عما قريب.

لقد اجتمعنا اليوم من جميع أنحاء العالم؛ لنعقد هذا الاجتماع الاستثنائي من أجلك فقط، أحضرناك لنعطيك فرصة لإنقاذ شرفك الأبدي، ولتفعل ذلك عليك أن تنضم إلينا بقلبك وروحك وجسدك وتنسلخ عن الدين الذي تعتنقه وتطبق شعائرنا بالحرف، حينها فقط سنقوم بمراسم الخلاص من أجل روحك أنت وحارسي الإنفوكار الباقين عند ولادة ابنك، وسيكتب اسمك

في التاريخ مع العظماء، أما إن رفضت الانضمام إلينا والإيمان بمبادئنا، وأصررت على التمسك بدينك وعقائدك، فسيتوجب علينا أن نحبسك في غرفتك حتى تُنجب زوجتك مولودها، أو سنجبرك على القيام بالتلقيح الصناعي ليولد السليل الذكر الذي ننتظره، بعدها مباشرة ستُشنق بتهمة الخيانة، وتموتُ دون شرف أو هوية، وتحرق جثتك ليُنثرَ رمادها في الخلاء، كما فعلنا مع جُثة والدك تمامًا".

استقبل تامر هذه الكلمات وكأنها قذيفة، وارتجفت أوصاله عندما أيقن أن مصيره سيكون الهلاك مهما كان خياره.

استغرق الرئيس الأعظم في تفكير عميق، ثم أكمل كلامه بعد أن رأى الحيرة والخوف يعلوان وجه تامر:

- "ربما ترى أنه لا فرق بين الميتتين، وأنه مهما كان قرارك ستفقد حياتك بالتأكيد، ذلك الظاهر فقط من المسألة؛ لأنك تراه من منظور دنيوي خالص، هل تعلم يا سيد تامر أنه في القرون الوسطى إذا شك الناس في كون امرأة ما ساحرة فإنها كانتُ تربط وترمى في النهر، فإن غرقت فهي بريئة من تهمة السحر والشعوذة، وإن طفت على السطح فهي ساحرة ويتم إعدامها!

إن الناظر لهذا الحكم يراهُ جائرًا وغير عادل لكنه في الحقيقة هو العدل بعينه، فالفرق بين الميتتين شاسع، غرقها تضحيةٌ لتَظهر براءتها وشهادةٌ يمحي بها الرب كل ذنوبها ثم ستندمج روحها مع النور العلوي في السماء، ويتذكرها

الناس كمُخلصة، أما إن كانت ساحرة فموتها عقابٌ لها وتعجيل لدخولها الجحيم، وخلاص للناس من شرورها، الموت ليس المشكل بحد ذاته فهو قادم لا محالة ليقتلع أرواح الخلائق أجمعين، المشكل الحقيقي هو أين ستذهب روحك بعد الموت، نحن لا نُجبرك أن تنضم إلينا وتترك دينك وتُؤمن بمعتقداتنا، تلك مشيئتك والملاذُ الأخير الذي تتمناه لنفسك، نحن فقط نريد منحك فرصةً للنجاة من العذاب الأبدي الذي سيعقُب قرارك".

صراع داخلي بدأ ينهش روح تامر، هل ينسلخُ من جلدته ويساور رغباتهم؟ أم يرفضُ ذلك ويكون مصيره السجن في غرفته؟ حاول السيطرة على توتره وهو يحذق في الجمع الذي يثير الرهبة في النفوس، فكر قليلًا واستجمع أفكاره ثم حزم أمره، قرر مسايرتهم في لعبتهم ليكسب المزيد من الوقت وليتمكن من رؤية زوجته والبحث عن سبيل للهروب قبل فوات الأوان.

أجابه بارتباك:

- "حسنًا سأفعل كل ما تريدونه".

عَلَتْ وجه الرئيس الأعظم إشراقةٌ مميزةٌ، وأمسك مطرقة خشبية صغيرة موضوعة بقربه، ثم ضرب على الطاولة بقوة أربع ضربات ثم قال:

- يجب أن تنسلخ عن أصلك القديم، وتتخلص من القيود الزائفة للأفكار والعقائد التي تؤمن بها، وتُخلص روحك للخالق فقط.

أومأ تامر برأسه موافقًا بتردد.

قام الرئيس الأعظم من مقعده، فانتصب العظماء خلفه وكأنهم رجل واحد، ثم رفع يده اليمنى إلى أعلى وقال بصوت مرتفع:

- يا إخوة السلام، ها هو سليل الإنفوكار يعود إلينا من جديد.

ضرب بمطرقته أربع مرات، وهو ينظر إلى السماء ويقول:

- "يا إله النور دع نور الحقيقة يصل إلى سيد الإنفوكار، وحرره من آثامه السابقة".

وضع يده على كتف تامر بفخر وقال له:

- الطريق نحو النور يكون مُظلمًا ووعرًا في الوقت نفسه يا سيد الإنفوكار، لكن ما إن تلمِس ذلك النور بيدك حتى يتلاشى كل ما قاسيته من معاناة وألم، لقد أصبحت واحدًا منا الآن، وستنالُ شرف الميتة المقدسة وُتدفن مع أجدادك.

أخرج الأستاذ الأعظم خنجرًا صغيرًا معلقًا بطرف ثوبه وجرح بها إبهامه لتنزل قطرات منه داخل الكأس، وكذلك فعل الأخرون مثله، ثم حمل الكأس ومدها إلى تامر وهو يقول:

- اشرب ليختلط دمك مع دمنا ونُصبح إخوة في الدم والعقيدة.

أمسك الكأس بصعوبة وتجرع بعضًا من ذلك السائل القرمزي بتقزز، وهو يرتجف وفور انتهائه أخذ العجوز الكأس مرة أخرى، ورفعها إلى السماء يُحركها فيما يشبه الدائرة وهو يقول:

- "أيها الخالق القادر على كل شيء، انعم علينا بعبادتك، وتجل على هذه الحضرة بهيبتك وصرف ما بقي من حياة سيد الإنفوكار في طاعتك، وتجاوز عن خطاياه الدنوية ليكون مخلصًا لاسمك، ويدًا تبطش بها على أعدائك، وتعُدل بها مواقيت زمنك.

إنه شرف لنا أن تعود إلينا ولو أن ذلك حدث متأخرًا، ستعيش في القصر أفضل من الأمراء والملوك حتى يأتي موعد إنجاب وريثك، كل الخدم هنا تحت إمرتك، والحكماء سيعلمونك كل شيء عن طقوسنا، لكن الخروج محرم عليك أبدًا".

وضع الحاضرون قلنسوتاهم على رؤوسهم ثم انسحبوا واحدًا تلو الآخر بعد أن أحنوا رؤوسهم تحية لتامر.

غادر الغرفة خلفهم مباشرة، وهو يتصبب عرقًا ومذاقُ الدم المُرِ امتزج مع ريقه اللزج فأصابه بالغثيان، كانت مايا واقفةً أمام الباب تخيط محيطه جيئة وذهابًا، اقتربت منه وسألته بلهفة:

- ماذاحدث بالداخل؟!

نظر إليها تامر مطولًا ثم قال لها:

- لقد فعلتُ كل ما طلبتهم مني، هل يمكنني أن تأخذيني لرؤية هدى؟

- أخبرني قبل ذلك؟ ماذا قرر العظماء بشأنك؟

أجابها وهو يزفر، وقد بدا عليه الإنزعاج ممزوجًا بالحسرة:

- لقد أخبرتني من قبل يا مايا أنه ليس لكم علاقة بالشيطان وبأعمال السحر، فلماذا تلك الطقوس الغريبة التي يُمارسونها بالداخل!؟

إنها شعائر توارثها أعضاء التنظيم منذ قرون عديدة، هدفها طرد الخوف من النفوس لنكون إخوة بالدم والروح.

لقد وافقتُ على الانضمام إليكم، بل أجبروني على شرب دمٍ مُقززٍ ذي رائحة كريهة.

نظرت إليه بعينين تبرقان وقد غمرها الفرح غير مصدقة الخبر الذي سمعته، وقالت له بحماس:

- إذن هو خلاصي أنا وفرناند، سننال معك الميتة المقدسة فور إنجابك ولدًا! لقد انتظرت هذه اللحظة الغالية بشغف.

طأطأ تامر رأسه، وقال لها بنبرة يائسة: "خلاصكم أنتم وهلاكي أنا"!

- أنا أعلم جيدًا أن تحت هذه النظرة القاتمة التي تُظهرها يا سيدي يشتعل جمر حارق لا يصله الهواء، لكن من فضلك لا تحاول فعل شيء لا تُحمد عقباه، حتى التفكيرُ في الهرب أو القيامُ به أمر مستحيلٌ؛ فالقرار قد صدرَ وأصبحتَ واحدًا منا بعد تأديتك لمراسم الولاء.

- ليس من شأنك ما أريده أو أفكر فيه، خذيني لرؤية هدى فقط.

- أنت الآن عضوٌ رئيسي في المجلس الأعظم، ولن يُمانع العظماء أن ترى زوجتك، ويُمكنك التجولُّ في القصر وحوله كما تريد.

لقد اتصلتُ بفرناند عندما كُنتَ بالداخل هو يُلازم هدى منذ وصلا إلى هنا، سأخذك لزيارتها في المساء، أما الآن فيجبُ أن تعود لغرفتك؛ لأن الطبيب سيزورك كما أخبرتك لمعاينتك، ثم حاول أن تنال قِسطًا من النوم الكافي، لكي لا تراك شاحبًا فيزداد خوفها وقلقها.

عاد إلى غرفته بخطواتٍ ثقيلة وجبينه يتفصّدُ عرقًا رغم برودة الجو، وقف أمام المِرآة الذهبية الضخمة، ثم خلع العباءة بصعوبة ورماها على الأرض تاركًا جسده العاري يسقط على السرير كخرقةٍ غلبتها الرياح، تنفسَ ببطء وصعوبة، فما عاد يُطيق صبرًا، فما يحصلُ له يهد الجبال من قوته.

****

في المساء أخذته مايا عبر الممرات الطويلة إلى القسم الشرقي من القصر، وفي إحدى الغرفِ البهيجة كانت هدى مُستلقية على فراشٍ عريض يحيطها طاقم طبي، وقد أسدلت جُفونها.

تنفس تامر الصعداء بعد ضمانه لسلامتها ولو نسبياً، ثم تقدّم نحوها بخطواتٍ بطيئة وجلس على حافة السرير، وضع يدها بحنان بين كفيه،

وتأملها مُطولا بحسرة وقلبٍ مُحطمٍ، ثم ابتسم بمرارة وقال بصوت هامس: "حبيبتي أنا هنا، هل أنتِ على ما يرام؟!"

فَتحت عينيها ببطء، ورفعت رأسها تنظُر إليه بصعوبةٍ بالغة، كانت مقلتاها تحملان بريق عتابٍ ممزوجًا بأسئلةٍ حائرة لا يملِكُ أحدٌ جوابًا عنها سواه، سحبَت ابتسامةً ميتة تعكِس خوفها وألمها فانفجرت شفتاها كأنها بوابة مقبرةٍ مُفعمةٌ بظلام الموتِ وقالت:

- تامر حبيبي هل هذا أنت؟! كيف حالك؟! وأين نحن؟

قَبَّل بحُرقةٍ يدها الدافئة وقال:

- انتبهي لنفسك فقط يا هدى، كل شيءٍ تحت السيطرةِ فلا تقلقي.

تأثرت مايا بهذا اللقاء الرومانسي فقاطعت حديثهما قائلة:

سأُغادر الآن، لدي عملٌ مهم يجب القيام به، فرناند سيرافقك إلى غرفتك فور انتهائك.

راقبت هدى خطوات مايا بعينين ذابلتين وهي تُغادر حتى اختفت، ثم التفتت إلى تامر قائلةً بكلماتٍ تخرج ببطء:

- أين نحن يا تامر؟ ومن هؤلاء الأشخاص؟ لقد سئمت من سؤالهم، لكن لا أحد يجيبني.

- اعذريني يا حبيبتي، فأنا من وضعك في هذا المأزق.

- أنا متأكدة أن الأمر فوق طاقتك، ولم تتعمد أبدًا أذيتي.

وضع يده على بطنها وقال:

- كيف أخبارُ حملك يا هدى؟

أجابته بصعوبة بنبرةٍ يغمرها الأنين:

- لقد كنت أود أن أفاجئك بخبر حملي فور عودتي من مراكش، لكن فرحتي لم تكتمل فقد ظهر هؤلاء واختطفوني، لقد أخبروني قبل قليل أننا في لندن! كيف استطاعوا إحضارنا إلى هنا، وأنا لم أحمل معي جواز سفري ولا أذكر أنني ركبت أي طائرة؟!

دنا برأسه منها ليقول لها بصوت هامس لا يسمعه أحد:

- أنا أعلم أنه من الصعب عليكِ استيعاب ما سأقوله، لكننا مُختطفون من طرف هؤلاء الأجانب، التخلصُ منهم شبه مستحيل، لكنني سأحاولُ أن أجد حلًا للخروجِ من هنا سريعًا، أنا أعدك بذلك يا حبيبتي.

انسلّت دمعة من عينها لتُبلّل خذها الدافئ وقالت له:

- ما الذي يريدونه منا فنحن أناس بسطاء؟ لقد توسلتُ إليهم أن يسمحوا لي بالاتصال بوالدي، لكنهم لم يجيبوني، أنت تعرف أمي جيدًا يُمكنها أن تموت همًّا ونكدًا بعد أن اختفيت فجأة، أرجوك يا تامر اتصل بهم وطمأنهم عليّ.

تصنع ابتسامة مشبعة بالتوتر، وقال محاولًا إرضاءها رغم إدراكه لاستحالة الأمر:

- حسنًا سأفعل لا تقلقي، المهم أن تتعافي الآن، فقد وعدوني أنهم سيطلقون سراحك فور شفائك، سامحيني على كل ما يُحدث لك، ذنبك الوحيد أنك أحببتِ شخصًا ملعونًا مثلي، حياتك كانت ستكون أفضل بدوني.

رفعت يدها بصعوبة لتُلصقها بخده وقالت بحنان:

- أنا التي يجبُ أن أشكرك، فلم أتوقع أن أجد في حياتي شخصًا يحبني بهذا القدر، وإن كان قدري هو الموت فسأرحل عن هذه الحياة وأنا سعيدة؛ لأنني كنتُ زوجتك.

ما إن أكملت جملتها تلك حتى اشتد عليها الألم في بطنها؛ فتدخلت مجموعةٌ من الممرضات لتهدئتها.

ضم كفها بذراعيه وهو يَسمعُ دقات قلبها بوضوح، ويكادُ يُحسُ بخرير الدم في عروقها، تسرب أنينها إلى روحه فشواها، وتساقطت دموعه على صدرها، وهو يطلب منها أن تتحلى بالصبر.

طلب منه طبيبُ إنجليزي بأدبٍ الابتعاد عنها ليتسنى له معاينتها، لكنه نهره بعينيه وحاول أن يدفعه، فتدخل فرناند الذي أمر ثلاثة ممرضين بإخراجه من الغرفة بلباقة فقاومهم.

نزلت دمعةٌ على خد هدى وهو يُفلت يدها مرغمًا بعد أن حمله الممرضون على أكتافهم، حركت فمها تناديه بكلماتٍ صامتةٍ وهو يبتعدُ عنها ببطء حتى اختفى.

غادر الغرفة حاملًا في صدره شعورًا قويا بتأنيب الضمير، واعتصر قلبه حزنٌ عميق، امتزج بإحساسٍ قوي بالذنب، التفت بعينين دامعتين إلى فرناند فهزه هزة عنيفة وهو يصرخ:

- ما الذي حدث لها؟ تكلم وإلا قتلتك.

- لقد تعرضت لنزيف حاد بسبب حالة الخوف والهلع الذي أصابها عند اختطافها، هناك احتمالٌ أن نفقد الجنين فجسدها ضعيفٌ جدًا، ولا يتحمل الضغط الشديد، للأسف يا سيدي فقد اخترت زوجة ضعيفة جدًا!

انتابته رغبة شديدة في ضربه، لكنه تحكم بأعصابه بأعجوبة، وقال وهو يَضغطُ أسنانه.

- ما الذي سيحدثُ لها إن أنجبت.

سكت قليلا يُفكر ثم رد:

- لا شيء إن كان الجنين ولدًا فستعيش معه في القصر حتى يبلغ السابعة من عمره، ثم تغادر بعد أن تأخُذَ مكافأة سخية جدًا، ولكن بشرط أن تلتزم الصمت ولا تخبرَ أحدًا بما عاشته ورأته هنا، وإلا ستتعرض للقتل.

ثم أكمل بسخرية:

- لا تحزن يا سيد تامر عليها! إن أردت فتاة سنحضر لك العشرات منهن، هي فقط وعاءٌ يحفظُ ابنك داخله!

حدَّق فيه تامر بغضب، وقال له وعيناه تنفجران احمرارًا.

- لن أسمح لك أن تقول هذا الكلام عن زوجتي، عرضك الرخيص هذا أرفضه فلا يمكنني أن أخون زوجتي أو ألمسَ فتاةً أخرى، فذلك مخالف لمبادئي، وحرام في ديني.

قال فرناند محاولًا إخراج تامر من دائرة حزنه:

- لا أحب أن أدخل في صراع معك، إنها مسألة وقت فقط حتى تستسلم للشهوة وتطلب منا إحضار أجمل الفتيات لك، فكما قال فرويد "لا يمكن لبشرٍ أن يمنع نفسه عن المتعة مهما كان، حتى الديانات عندما تطلب منك الامتناع عن المتعة؛ فإنها تعدك بمتع أكبر وأفضل في عالم آخر".

لم يغير تامر نظرته الصارمة، فصمت فرناند مُتجنبًا الاصطدام معه، وهمَّ بمرافقته إلى غرفته، لكن تامر قال بصوت حاد:

- سأذهب وحدي، فأنا أعرف طريق العودة.

شعر فرناند بخطئه، فانقلبت نبرة استهزائه إلى اعتذار وقال:

- أنا أعلم أن المشاعر تعصف بك في هذه اللحظة، وأنا اعتذر على طريقة كلامي الفظة معك، فأنت لم تستوعب بعد ما يحصل، سأتركك وحدك لكي تتمكن من التفكير ويصفى تركيزك.

شعر تامر أن عقله فارغ تمامًا من الأفكار، واتخذ طريقه راجعًا بغير هُدىً عبر الممرات والأروقة حتى وصل إلى الردهة الرئيسية للقصر؛ حيث عُلقت صور أجداده، توقف يتأمل اللوحات واحدة تلو الأخرى، ويُدقق في

تفاصيلها بغضب، وما إن وصل إلى لوحة جده الأكبر أندري رفاييل حتى نظر إليه بعينين دامعتين، وبدأ يضرب بكلتا يديه بهستيرية على طبقة الزجاج الشفاف التي تحميها حتى كاد يكسرها وهو يقول:

- "أنت السبب في كل هذا أيها الطماع الشرير، أنت من يحمل إثم البشرية على عاتقه، لماذا فعلت كل هذا؟! هل لتعيش بضع سنوات في النعيم؟ وماذا بعد ذلك؟ ماذا عن الآثام التي ستحملها على عاتقك إلى يوم الدين والتي ستجعلك خالدًا في الجحيم لا تغادره أبدًا أنت وكل هؤلاء الظالمين الذين ولدوا بعدك؟!"

التفت ينظر إلى صور أجداده واحدًا واحدًا، ثم قال بنبرة صارخة وهو يحرك بسبابته باتجاههم: "ألم يولد فيكم طيلة هذه القرون رجل صالح يُوقف نسلنا الملعون؟"

سكت منتظرًا سماع صوتهم فأجابوه بكلمات أخرسها جدار البرزخ، فلم تَصِل إليه أصواتهم.

رفع رأسه إلى السماء وفتح ذراعيه على مصراعيهما وكأنهما جناحان سيخفقان ليحملاه نحو السماء، وانهمرت الدموع بغزارة من عينيه وهو يقول مناجيًا ربه:

- "يا إلهي أنت تعلم أنني انسلخت عن ديني مُجبرًا، وقتلتُ نفسًا مُجبرًا وحطَّمتُ حياة زوجتي مُجبرًا، فلا تعاقبني ولا تُحاسبني بما فعل أجدادي، أنا

أعلم أنني فرطت في حقك وحق نفسي الكثير، ولا أستحق حتى أن أرفع رأسي إلى السماء وأطلب منك انقاذي، ولكنني أعلم في قرارة نفسي أن مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أعظم من أخطائي، إن أبقيتني حيًا فخلصني من عذابي وإنْ أردتني ميتًا فعجِّل بذهابي".

خانته قدماه ولم يقدر على الوقوف فجثى على ركبتيه وأحنى رأسه إلى الأسفل لثوان ثم صرخ صرخة تردد صداها في كل أرجاء القصر كشيطان صفدته ملائكةُ الجحيم، فكسرت بقوتها هدوء القصر في تلك الليلة المُقمرة.

الفصل الحادي عشر

حراس الدعاء

-فرناند هارفي-

مرت خمسة أشهر على مجيئه إلى القصر، لم يتمكن من زيارة هدى سوى مرتين، كانت حالتها تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، أخبروه أنها ستُنقل إلى أحد المستشفيات المتخصصة بعد أن تفاقم الخطر على الجنين، انقطعت أخبارها، ورحلت سالبة معها عقله وقلبه، حتى مايا التي رافقتها مع طاقم الأطباء لم تعد مرة أخرى، يقضي يومه بين القصر والحديقة يجلس وحيدًا، ويعانق الورود متذكرًا حبيبته، اشتياقه لها يزداد يومًا بعد يوم، وصور حارته القديمة لا تفارق خياله، الحكماء مكلفون بكل التفاصيل البروتوكولية ويحاولون بيأس تعليمه، كان كرهه لنفسه ولهم يتفاقم أكثر كلما تعلم منهم طقسًا جديدًا من طقوسهم الغامضة أو حضر لاجتماع العظماء الذي يقام كل شهر، كان يشعر بأنه طائر جريح سُجِن غصبًا في قفص ذهبي يلمع، لم يكن يجد أبدًا من يخاطبه رغم أن المكان يفيض بالخدم، جميعهم هادئون لا تكاد تسمع لهم صوتًا يرمقونه بنظرات يرسلونها ببطء وحذر كلما مرَّ بقربهم،عندما يُكلم أحدهم أو يطلبُ منه طلبًا يحني رأسه احترامًا ثم يلبي له رغبته بسرعة فائقة.

أصبح تائهًا وشاردًا يقبع طيلة اليوم مع نفسه يحاورها في حزن وحيرة ، فقد كان يشعر أنه يحمل همًّا كبيرًا على عاتقه لا يمكنه تحمله، فبعد أن عاش طول

حياته رجلًا عاديًا كالأخرين يجب عليه اليوم أن يواجه أخطر تنظيم على وجه الأرض لوحده، أن يناضل من أجل أشياء لم يفكر أبدًا أنه كان سيناضل من أجلها يومًا؛ أقدار البشر ومستقبل العالم، في أيامه الأولى بعد وصوله كان يحاول إبعاد الخوف عنه والتركيز أكثر على إيجاد سبيل للخروج من تلك المحنة وإنقاذ حبيبته، لكن الخوف والحزن والترقب هزموه أخيرًا فاستسلم لليأس منتظرًا مصيره المروع.

في ذلك اليوم قام من فراشه مبكرًا بعد أن منعه الأرق والتفكير من إيجاد سبيل للنوم، كانت أشعة الشمس تتسلل من الشرفة وتغمرُ الغرفة بالدفء والنور صفاء يبعث في النفس النشوة والرغبة في الخروج، أطل من الشرفة فإذا الطبيعة ملء العيون بما أبدع الله فيها من ألوان زاهرة، وأغصان ناضرة، قرر الخروج إلى الحديقة كما اعتاد ليتمشى قليلا كلما ضاق صدره لعل رائحة النسيم تنعشه، منذ أن أصبح عضوًا رسميًا في التنظيم أصبح حرًا ويمكنه التجول في القصر وحوله كما يريد، لكنه كلما حاول الاقتراب من البوابة الحديدية كان حراس الأمن يطلبون منه بأدب الابتعاد عن المدخل، ويتدخلون لإعادته إلى القصر عندما يرفض ذلك.

خرج من جناحه الملكي وحيًّا الحارس ذا الوجه المُتجهم الذي لم يجبه كالعادة، يعتبره تامر كقطعة أثاث لا تتحرك، فقط عينان مفتوحتان وشهيق وزفير في صدره هو ما يثبت أنه حي، وصل إلى الحديقة الخلابة وجلس يتأمل

جمالها، ويفكر في محبوبته الغالية التي لا يعلم شيئا عنها، والتي تحمل في أحشائها طفله الوحيد الذي إن رأى الدنيا سيكون سببًا في هلاك الكثير من الناس وأولهم هو، وبينما هو غارق في تفكيره يُخلل بأصابع يديه العشب الأخضر؛ يجمع أصابعه ليقتلعه بشدة من مكانه ثم يسحقه بيده وكأنه لم يجد أضعف من العشب لينتقم منه.

بعد لحظات لمح فرناند يخرج من أحد أبواب القصر الخلفية، ويتوجه بخطوات بطيئة نحو مكان مجهول في أقصى الحديقة تحفه الأشجار، أحس بالسعادة لرؤية شخص يمكنه أن يبادله الكلام حتى ولو كان يكرهه، فقد اختفى منذ فترة مثل مايا، ولم يعد يصادفهما في القصر، اتجه نحوه بخطوات متسارعة ليلحق به ويسأله عن محبوبته الغالية التي انقطعت أخبارها، فتح فرناند بابًا حديديًا ظهر من خلفه ممر طويل حجبت فيه الأشجار الكثيفة ضوء الشمس، فتبعه تامر عبر الممر وهو مستغرب من ذلك المكان الغريب الشبه مهمل، والذي لم ينتبه لوجوده أبدًا، في أخره ظهرت أرض شاسعة، فيها مجموعة من القبور، مشى فرناند بخطوات حذرة بينها ثم توقف أمام أحدها وبعد تدقيق استمر للحظات في شاهد القبر تغيرت ملامحه، وأرخى رأسه فوق صدره فأصبح عنقه كأنه حبل لين لا يقوى على حمله، تاركًا الحزن يسقط فوق صدره وهو يتأملُ ذلك القبرَ الغامض في صمت.

اقترب منه تامر ببطء، ثم توقف على يمينه مباشرة دون أن يتكلم.

نظر إليه فرناند بطرف عينه ثم أكمل خشوعه لفترة قصيرة قبل أن يقول بصوت هادئ:

- ما الذي تفعله في هذا المكان يا سيد تامر؟

أجابه وهو يحوم بنظره حول القبور:

- لا شيء!.... رأيتك تدخل إلى هنا فتبعتك.

سكت قليلًا ثم أكمل:

-الحقيقة أنني أريد أن أعرف منك أخبارًا جديدة عن هدى، لا أحد هنا يطلعني على شيء؛ فالخدم والحراس رغم تلبيتهم لكل طلباتي فإنهم يتحولون إلى أصنام خرساء، إن تعلق الأمر بزوجتي فلا أحد منهم يمدني بمعلومات عنها، حتى العظماء عند اجتماعهم يخبرونني أن كل شيء على ما يرام فقط، ولا يسمحون لي أن أكلمها رغم إلحاحي المتكرر.

- ليس هنالك امرأة حامل على وجه الأرض تنال معاملة أحسن من زوجتك يا سيدي، فلا تقلق، فهي تحمل في أحشائها مُستقبل المنظمة بأسره، ولا يُمكننا المغامرة بحدوث شيء لها.

حدَّق تامر مطولًا إلى شاهد القبر الذي يقفُ أمامه فرناند، ثم قرأ الاسم المنقوش بحروف لاتينية بارزة: **Mr JACOB**

قال فرناند بصوت ناعم أشبه بثلج متساقط:

- هل تعرف من هذ الرجل يا سيد تامر؟

أجابه نافيًا: "لا وكيف لي أن أعرف؟!

تنهد فرناند تنهيدة طويلة وقال:

- إنه جايكوب، الرجل الأسطورة، معلمنا وأبونا الروحي: أنا ومايا ومكسيم، الرجل الذي اختارنا لنكون حراسًا للإنفوكار، هل تعلم أن صدى كلماته لنا أول يوم أحضرنا فيه إلى المعهد يتردد دائمًا في أذني؟تلك الكلمات لن أنساها ما حييت، فهي النبراس الذي سيضيء طريقنا إلى أخر يوم في حياتنا لقد :

- "الخلاص هو أن تُنهوا حياتكم كما أردتموها أن تنتهي، أن تموتوا مُطمئنين وراضين على ما فَعلتم طيلةَ حياتكم، أن تنالوا السلام الأبدي الذي كُتب في الأزل للمخلصين، عندها ستَندمِجُ رُوحكم بروح النُّورِ السماوية التي خلقتكم على هذه الأرضِ وجعلتكم مُختلفين عن الأخرين.

"إن كنتم تريدون أن تعيشوا حياتكم دون أن تتركوا بصمتكم فيها، دون أن تخلفوا وراءكم شيئًا يتذكركم به المستقبل، دون أن تنقشوا أسماءكم على حائط الإنجازات الخالد، فإعلموا أنكم ميتون أصلًا لكنكم فقط تجهلون ذلك".

- لقد تعلمنا منه ألا نعطي اعتبارًا لحياتنا، وأن نهب أنفسنا لخدمة أهداف المنظمة السامية والرقي بالجنس البشري نحو الأفضل، وذلك بنشر العدل والمساواة بين جميع سكان الأرض.

وضع يده على شاهد القبر، ثم أكمل كلامه:

- هل تعلم يا سيد تامر، ربما تُحب أحدًا في حياتك فتراه مَلكا نزل من السماء، ثم بعد ذلك يخذلك أو يخونك فيصبح في عينيك شيطانا لفظته الأرض، في الحقيقة هو لم يكن لا هذا ولا ذاك، فقط إحساسك ونظرتك إليه هي ما تغير.

لقد كنا عشرة أطفال يجمعنا الذكاء الخارق عندما أحضرنا جايكوب إلى المعهد أول مرة، كنا نصرخ ونبكي بكاءنا الطفولي ونفكر في الهرب، كنا نكره أشد الكره ونسميه بالشيطان لوسفير، مكسيم كان أشدنا عنفًا وتمردًا عليه، وحاول الهرب أكثر من مرة، لكن جايكوب كان دائمًا يبتسم في وجوهنا ويخبرنا أن ما نشعر به اليوم من خوف وألم هو إحساس طبيعي، وسنستوعب الحقيقة مع مرور الوقت.

ومع توالي السنوات اكتشفنا فعلًا حقيقة وجودنا في هذه الحياة، وأننا وُلدنا من أجل هدف أسمى بكثير من عيش حياة عادية ومُملة، ودورنا هو استعمال ذكائنا لتحقيقه، فارتقينا في تقديرنا للأشياء كارتقاء ذكائنا، وتوقفنا عن التفكير في رغباتنا الدنيوية ونزواتنا الساذجة وأحلامنا البسيطة، واكتشفنا أنه لا يوجد شيء اسمه الحب أو الترابط الأسري، فالعلاقات البشرية ساذجة ولا تحمل أهدافًا صريحة، أهم شيء في الوجود هو أن تترك بصمتك على هذه الحياة، وتحصل على خلاصك في النهاية.

سأله تامر وقد زاد اهتمامه بالموضوع:

- لقد سمعت مايا تتكلم عن ذلك المعهد السري من قبل! وكذلك مكسيم أخبرني شيئًا عنه قبل أن...

ثم توقف عن الكلام.

نظر إليه فرناند وابتسم بكل هدوء قائلاً:

- لماذا سكت يا سيدي؟ أكمل كلامك.... قبل أن تمنحه خلاصه يا تامر.

زفر زفيرًا طويلًا، ثم صمت قليلًا كأنه يفكر ثم أشار بإصبعه إلى قبر حديث على يمينه وهو يقول:

- انظر هناك، ذلك قبر مكسيم، لقد دُفن بجانب جايكوب، هل هناك شرف أعظم من ذلك؟ مات شهيدًا في سبيل هدفه، ودُفن قُرب معلمه؟ كل ذرة في جسدي تحسده على هذا التشريف.

سمع تامر صوت الرصاصة التي أطلقها على مكسيم تتردد في أذنه، وأحنى رأسه أسفًا ليتحاشى النظر إلى القبر، فرغم تسارع الأحداث المخيف، فلم يستوعب بعد اقترافه لجريمة قتلٍ بيديه.

- هل تعلم يا سيدي لقد كان محرمًا علينا التكلم عن حياتنا السابقة في المعهد، لذلك لم يكن أحد من الطلاب يعلم شيئًا عن الآخر، وفي الشهر الماضي أوكل لي مجلس العظماء مهمة سرية جديدة خولت لي زيارة المعهد الذي أُغلقت أبوابه مرة أخرى، فتمكنتُ من الإطلاع على ملفات الطلاب القدماء، وقد اكتشفتُ أن مايا كانت فتاة يتيمة تتسكعُ في شوارع الهند قبل أن تلتحق

بالميتم، أما مكسيم فقد وُلد في سجنٍ وأمضى فترةً من طفولته في الإصلاحية بتهمة القتل.

لقد تدخل القدر ليجعل طفولتهما متشابهة في الألم والحزن والمعاناة، ربما لهذا استطاعا التفوق على الطلاب الأخرين والنجاة طيلة سنوات الدراسة، رغم وجود أطفال أشد منهما ذكاءً، لقد تمكنا من تخطي كل العقبات والتوتر الشديد الذي كنا نعيشه، فالألم والمعاناة كانا جزءًا من طفولتهما، أما أنا والطلابُ السبعة الأخرون فكنا من عائلات ميسورة أو حتى ثرية كعائلتي.

استغرقَ تامر في التفكير للحظات قبل أن يقول:

- لقد كنت متأكدًا من ملامح وجوهكم أنكم من أُصولٍ وجنسيات مختلفة، أنا لا أخفيك سرًا هناك العديد من الأسئلة والأمور الغامضة لم أستطع إيجاد جواب شافٍ لها حتى الآن، فأنا لم أستوعب دوركم بالضبط في هذه المنظمة ولماذا يسمونكم بالحراس؟ وكيف اجتمعتم كلكم في ذلك المكان الذي تسمونه المعهد؟ ولماذا اخترتم دخول ذلك المكان؟ وماذا كنتم تفعلون هناك؟

ابتسم فرناند ثم أمسك حفنة من الثرى بيديه، ونثرها في الهواء وهو يتأمل سقوط حباتها على القبر وحوله وكأنها رذاذ مطر تنعش ترابه الجاف وقال:

- أنا لم اختر دخول المعهد، لا أحد منا اختار فعل، القدر هو من اختارنا لذلك.

ألقى بنظرة أخرى إلى قبر معلمه وأضاف:

- هل تريد معرفة قصة ولوجي للمعهد؟ إن رغبت في ذلك فسأتشرف بسردها لك.

أومأ تامر برأسه موافقًا، فابتسم فرناند ورفع رأسه نحو السماء مُغمضًا عينيه وهو يغوص في ذكرياته...

اسمي الكامل فرناند هارفي، ولدت سنة ١٩٦٨ في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية، والدي اسمه ماكس هارفي كان رجل أعمال ثريًا ومشهورًا في المدينة، ويملك واحدة من أكبر شركات السمسرة المالية في أمريكا، عشت طفولة جميلة يتمناها أي طفل في العالم، كنت ابنه الوحيد، رغم أنني فقدت والدتي التي ماتت بسبب السرطان وسني لم يتجاوز ثلاثة سنوات إلا أنني وجدت في والدي كل العطف والحنان الذي يحتاجه أي طفل، ولم أشعر أبدًا بغياب والدتي.

إلى جانب امتلاكه لشركة ناجحة في مجال الاستثمار، كان والدي يعشق المضاربة في البورصة، فعندما كان أغلب الأمريكين ليلة السبت يشاهدون مباريات كرة القدم ويشجعون فرقهم المفضلة بحماس، كان يجلس هو في مكتبه ويُراقب أسهم البورصة ويتفاعل مع تغيرات مؤشراتها بالحماس نفسه أيضًا.

منذ نعومة أظافري ورثت عنه ذلك الحب الأبدي، ربما لأننا كنا نعشقُ المغامرة أكثر من أي شيء آخر، وكان يؤخذني معه دائمًا إلى شركته، ويعلمني الطرق السليمة للمضاربة كما يفعل المحترفون بالضبط.

هل تعلم يا سيد تامر أن المضاربة عمليةٌ غير عشوائية كما يظن معظم الناس؟ بل هي معقدة وتحتاج إلى ذكاء شديد؛ لأنها مبنية على حسابات دقيقة، والنجاح فيها قائم على المعالجة السريعة للبيانات الحديثة، ما يجهله الناس أيضا أن الإحساس فيها أيضًا يلعب دورًا مهمًا، لم أكن أرى الأرقام أرقامًا، بل نوتات موسيقية تتراقص أمام عيني، لقد اكتشفت أنني أستطيع توقع ارتفاع أو انخفاض الأسعار بسهولة، وكأنني قائد أوركسترا محترف يعزف على إيقاع سمفونية يحفظ ألحانها عن ظهر قلب.

كان يقول لي والدي دائمًا أن الذكاء وحده لا يكفي لتصبح مضاربًا ناجحًا، بل التعلم والصبر هو ما يصنع المضارب الناجح، ربما كان على صواب، لكن مقولته تنطبق فقط على الناس العاديين، أما طفل خارق الذكاء مثلي فلم يحتج للصبر ليتعلم، كنت أُحلل البيانات الرقمية بسهولة وحدسي كان يصيب دائمًا فيما يتعلق بارتفاع وانخفاض أسهم الشركات، استغل والدي قدرتي الخارقة في عمله فتهافتت الصفقات على شركته واستطاع في مدة وجيزة تكوين ثروةٍ طائلة لم يتوقعها في أكثر أحلامه جموحًا، صرت ذائع الصيت بين رجال المال

والأعمال، وقبل بلوغي الحادية عشرة أصبحت مستشارًا لكبرى الشركات الأمريكية.

كان كل شيء ممتازًا بالنسبة لنا، نفعل ما نحبه ونجني أموالًا طائلة، تخطت شهرتي الولايات المتحدة الأمريكية، وذاع صيتي في أرجاء العالم، ثم جاء ذلك اليوم الشتائي البارد، كنتُ جالسًا في غرفتي عندما سمعت والدي يصرخ بأعلى صوته، نزلت إلى الطابق السفلي بسرعة لأصطدم برئيس الخدم في نهاية الدَرج ووجهه شاحب، أخبرني أن والدي في مكتبه منذ ساعات ومعه شخص غريب، اقتربتُ من الباب المغلق ونظرتُ خلسة من فتحته لأستفسر الأمر، لمحتُ رجلًا يلبس بذلة رسمية سوداء ويجلس بهدوء واضعًا رِجلًا فوق الأخرى.

لقد كان الغضبُ باديًا على وجه والدي وهو يُكلمه بنبرةٍ صارخة بينما كان ذلك الرجل هناك يتأمله بهدوء وينصت باهتمام، وعندما انتهى من الكلام قام من مكانه وابتسم في وجه أبي قائلاً:

- هل هذا أخر كلامك سيد هارفي؟

استشاط والدي غضبًا ثم طرده من المنزل، حمل الرجل قبعته الدائرية بهدوء، ثم توجه نحو باب المكتب، وما إن فتحه حتى رآني مُنتصبًا أمامه، تفحصني للحظات ثم قال في خبث مبتسمًا وقد لمعت عيناه بنظرة ماكرة ضاربًا بكل تهديدات والدي عرض الحائط:

- "البرد قارس في هذه الفترة في إيطاليا يا فرناند، يجب أن تُحضر معك ملابسًا دافئة، أنا أتشرف بأن تكون أول من اختاره لولوج المعهد"، ربت على كتفي ثم وضع قبعته الأرستقراطية الفاخرة، وخرج من المنزل وهو يُدندن بلحن من سمفونية أنشودة الفرح لبتهوفن.

كان أبي يستشيطُ غضبًا ويرتعش، ركض نحوي واحتضنني بقوة مشبعة بالحنان وممزوجة بالخوف قائلا: " لقد فقدت أمك عندما كنت صغيرًا، ولن أفقدك أنت أيضًا".

سألته عن هوية ذلك الشخص، فأخبرني أن اسمه جايكوب، ويريد أخذي إلى إيطاليا للدراسة في معهد مُخصص للأطفال العباقرة أمثالي، ولكن والدي رفض ذلك وطرده من المنزل.

كنتُ متأكدًا أنه لن يقبل أبدًا المساومة على ابنه، فبالإضافة إلى حبه الجارف لي، فأنا ابنه الوحيد الذي لا يمكنه الاستغناء عنه، ومنبع ثروته التي تتضاعف كل يوم بسبب ذكائي الاستثنائي.

لكن في مساء اليوم نفسه تلقى والدي اتصالًا دام للحظات انقلبت خلاله موازين كل شيء، وأصبح وجهه شاحبًا وهو يعيد سماعة الهاتف إلى مكانها، ركض إلى غرفتي وعانقني، وبدأ يبكي كطفل صغير، لقد كان رئيس الولايات المتحدة شخصيًا من اتصل به وأمره أن يتركني أذهب إلى إيطاليا، وإلا ستكون العواقب وخيمة عليه وعلى مؤسسته، فستحجز الدولة على كل

ممتلكاته ويتابع بالسجن بتهمة التهرب من دفع ضرائب وهمية، لم يصدق والدي ما يحصل، فقد علم في قرارة نفسه أنه لن يستطيع فعل شيء، لأن القضية أكبر وأخطر مما كان يعتقده.

تجمد تامر في مكانه، وبرقت عيناه قائلاً:

- وكيف اتصل به الرئيس شخصيًا؟

- أغلب رؤساء دول العالم القوية موالون للمنظمة من قريب أو بعيد، ذلك بالطبع إن أرادوا الحفاظ على مناصبهم، تلك هي استراتيجيتنا، فقوة المنظمة وحدودها واسعة للغاية، هل تعلم أن العديد من رؤساء أمريكا كانوا أعضاء في التنظيم، وكانوا يعلمون بسر سلالة الإنفوكار؟

انتبه تامر كأنه تذكر أمرًا مهما، وقال مؤكدًا كلام فرناند:

- عندما كنت أبحث عن معلومات عن المُنظمة صادفت الكثير من الفيديوهات على الإنترنت التي تتحدث عن وجود شعاراتٍ ورموز متعلقة بكم على معالم أثرية معروفة في أمريكا وخُصوصًا في العاصمة واشنطن.

حرك فرناند رأسه مُؤَكِدًا استنتاجه ثم أكمل كلامه:

لقد لعبت المنظمة أدوارًا حاسمة على مر السنين في تاريخ أمريكا، فنحن من قاد الثورة ومهَّد لتوقيع وثيقة الاستقلال، ووضعنا بعد ذلك الدستور وتحكمنا باقتصاد العالم، لذلك فمن البديهي أن تحمل رموز أمريكا ومعالمها الأثرية شعاراتنا الخاصة.

في اليوم التالي جاء ذلك الرجل الغريب ليأخذني، لم يستطع والدي مواجهته مرة أخرى أو النظر إلى وجهه، بل لم يجرؤ حتى على توديعي، صعد إلى غرفته وأغلق عليه الباب في صمتٍ وهو يلوم نفسه على تخليه عني مُجبرًا، كان المطرُ الخفيف ينهمر على السيارة التي ستأخذنا عبر الطريق وأنا أتأمل منزلنا عبر الزجاج الخلفي والحسرة تملأ قلبي، كنت أتمنى أن يخرج والدي من شرفته ولو لبرهة ليودعني الوداع الأخير، ابتعدتِ السيارة لكنه لم يظهر أبدًا.

في اليوم نفسه سافرنا إلى إيطاليا، وعند وصولنا إلى المعهد شعرتُ بموجةٍ مفاجئة من القلق، فقد كان ذلك المكان مُختلفًا وغريبًا بسبب حراسته الأمنية المشددة وغموضه الكبير، سألتُ السيد جايكوب بكلمات واثقة: "أشعر أنني لن أغادر هذا المكان أبدًا يا سيدي هل هذا صحيح؟"

ابتسم ولم يُجبني، ثم غادر المكان، بعد رحيله فُتِحَ الباب الحديدي الكبير، سمعت صوتًا من الداخل يطلب مني الدخول، فدلفتُ وحيدًا نحو المجهول وأنا أرتجف.

لقد كنت أول طالب يصل إلى هناك لذلك أتيحت لي فرصة لمراقبة كل الأطفال الذين وصلوا بعدي وتحليل تعبيرات وجوههم المختلفة، أغلبهم كانوا تائهين ومرعوبين، فقط مكسيم من تجاوز عتبة ذلك الباب، وهو يضحك غير مكترثٍ لغرابة وغموض العالم الذي يجتاحه.

رغم صعوبة الأمر حاولتُ التأقلم مع المكان والتركيز على كل خطوةٍ أخطوها، ومع توالي السنوات ارتفعت نسبة ذكائي واجتزتُ الامتحانات بجدارة، وحصلت على المرتبة الأولى بين الطلاب العشرة.

إزدرد تامر ريقه مبهوتًا لما يسمعه من كلام، وقال بلهفة:

- ما الذي كنتم تفعلونه في ذلك المكان؟ وما علاقة وجودكم هناك باستعمال أجدادي للدعاء؟

سأخبرك بكل شيء تريد معرفته مادمت طلبت ذلك، لكن يجب أن تجيبني قبل ذلك على بعض الأسئلة التي ستُساعِدكَ على فهم واستيعاب دورنا كحراسٍ للدعاء؛ عندما عُدتَ بوعيك إلى الماضي في المرّات الثلاث، كم هي المُدة الزمنية التي استغرقها سفرك في كل مرة؟

- تقريبًا عشرين دقيقة في كل انتقال.

- إذن كنت تَعلمُ أنك تملكُ عشرين دقيقةً لتقوم بالتلاعُبِ بالماضي، فكُنت تُسرع في القيام بالتغيرات التي تُريدها قبل انتهاء المدة الزمنية؟

- نعم صحيح، ففي المرة الأولى لم أستوعب ذلك، ولكن في المرتين التاليتين ركزتُ على الوقت لأستغلَ سفري بأفضلِ طريقةٍ ممكنةٍ.

- هل تعلمُ يا سيد تامر أن الروابط بين الأحداث الزمنية غير مرئية لكنها موجودة، فالعالم هو شبكةٌ معقدةٌ من الأحداث المُترابطة مع بعضها بقوة، فعندما تُغير شيئًا في الماضي يتأثرُ به الحاضر والمستقبل تلقائيًا، وهذا ما ركزَّ

عليه المؤسسون الأولون حتى تُحقق منظمتنا أهدافها السامية، ابتكروا بعد وفاة أندريه رفاييل طريقةً عمليةً وفعالةً لاستغلال قُدرة الدعاء.

كل شيء يبدأ عند ولادة السليل، عندها يَفتحُ المعهدُ السري أبوابه، هو مكان سري للغاية يقعُ قُرب مدينة صغيرة غربَ إيطاليا، مكان بحراسة شديدة مُحكم الإغلاقِ، ويُشبهُ المعسكر وتُوفرُ داخله المنظمة كل التجهيزات العلمية والتقنية، وقاعات للدراسة والتدريب العقلي والجسدي.

العظماء يُكلفون رجلًا من رجال المنظمة الأقوياء، شخصًا يمتلك شخصية فذة ويمتازُ بالسلطة والحزم ليبدأ رحلة البحثِ عن عشرة أطفال تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة، يُختارون بعنايةٍ فائقة من بين أذكى أطفال العالم، يلتحقون جميعهم بالمعهد ليدرسوا العلوم الفلسفية والرياضية والفيزيائية، وحتى علوم السياسية والاجتماع والاقتصاد، بالإضافة إلى التمارين الجسدية الشاقة، كل هذا يَتمُ تحت إشراف أساتذةٍ وعلماء كبار يتم تعيينهم من أجل هذه المُهمة الخاصة والسّرية، وبالطبع لا يُسمح لأحدٍ بمغادرة المعهد أبدًا.

في نهاية كل سنة يجتازُ الطلاب امتحانات كفاءةٍ صعبة للغاية تُختزل فيها كل الدروس التي درسوها وتمتدُ لساعات متواصلة، وبعد انتهاء المُترشح مباشرة يُعقد مجلسٌ للتداول بين الأساتذة، يحضر فيه كل طالب على حدة ليُناقِش كل ما تعلمه طيلة السنة، ويُبرهن لهم أنه يستحِقُ النجاح والانتقال للسنة التالية.

كانت المنافسةُ شرسة بيننا نحن العباقرة، والدروس مُعقدة وصعبة جدًا، أنا ومايا ومكسيم خريجو الدُفعة التي أَطلقها التنظيم عند ولادة السيد مارك والدك، وكان السيد جايكوب رجل المهمة الذي كلَّفهُ التنظيمُ بانتقاءِ العباقرة العشرة الذين التحقوا بالمعهد، ومن بينهم نحن.

- ولكن كيف تسمح أسركم باختفائكم هكذا؟ ألا يتدخلون لإعادتكم إلى أوطانكم؟

- عندما يُرشَّحُ طالبٌ لدخول المعهد السري يا سيد تامر فإنَّ شهادة وفاةٍ باسمه تُرسل إلى عائلته.

جحظت عينا تامر، وقال بصوت مرتعش:

- وكيف يصدقون موتكم بهذه السهولة؟

- أعضاء التنظيم يبتكرون حادثًا وهميًا ويشوهون معالم جثةٍ مجهولةٍ، ثم يُرسلونها إلى عائلة الطالب ليُصدقوا موته.

زاد ذهول تامر، وقال بصوتٍ مرتعشٍ وكلماتٍ مبعثرة:

- أنت تمزح يا فرناند أليس كذلك؟

- هل تجد هذا الأمر عجيبًا؟ سأخبرك بأغرب من ذلك، فبعد أيام من التحاقنا بالمعهد كنا نُجبر على العودة إلى أوطاننا مُتخفين لحضور جنائزنا تحت مراقبة شديدة، كان كل طالب فينا يقفُ بعيدًا ويُراقب بحزنٍ عميقٍ أقاربه وأصدقاءه يبكون لفراقه ويدفِنون جثةً غريبةً ظانين أنها تعود له، كان ذلك

أول امتحان نفسي يخضعُ له المترشح قبل أن يعود من جديد إلى المعهد، ولا يخرجُ منه أبدًا، لقد حضرنا كلنا ذلك المشهد المؤلم والخارق للعادة ماعدا مايا، فلم تكن لها عائلة تستقبل جثمانها.

- أحسّ تامر أن عروق رأسه ستنفجر، وتمتم بكلمات متقطعة:

- وماذا لو صرخ أحدكم في الجنازة أو حاول الهروب والعودة إلى أهله؟

- إن حاول أحد الطلاب لفت الانتباه إليه بطريقة أو بأخرى فعندها يعطي الضوء الأخضر لقيام مذبحة عظيمة في الجنازة، أتذكر جيدًا أحد الطلاب، كان أسمر البشرة قصيرًا وهزيل الجسد اسمه "حسن صدقي"، وقد أحضره جايكوب من اليمن، كان طفلًا خارق الذكاء، بل أذكى مني بكثير، بعد أيام من وصولنا أخذوه لحضورِ جنازته مثلما فعلوا معنا، لكنه استطاع الهرب بدهاءٍ من السيارة التي كان يُراقب منها الجنازة، وركض هاربًا نحو والدته المكلومة ليرتمي بين أحضانها.

انتاب كل الحاضرين الذهول والاستغراب، لكنهم لم يمتلكوا الوقت لاستيعاب ما يحصل، فقد طوَّق رجال المنظمة المكان بسرعة وقُتل بالرشاشات الأوتوماتيكية بدمٍ باردٍ كل من كان حاضرًا لتلك الجنازة وأمام عينيه.

بعد تلك المجزرة العظيمة أعادوه إلى المعهد، لكنه ظلَّ طيلة السنة شارد الذهن، يُفكر فيما حدث لأهله، ولم يستطع التركيز في الدراسة والتأقلم مع

الظروف القاسية؛ فانهار نفسيًا بسرعة، لذلك كان أول من يرسُب من التلاميذ العشرة.

سأله تامر باستغراب:

- لقد قُلتَ أنك ومايا ومكسيم الناجحون الثلاثة فقط، هذا يعني أن السبعة الأخرين رسبوا جميعًا في المعهد؟ فأين يذهبون؟! هل يتم طردهم؟ وكيف يعودون إلى حياتهم الطبيعية بعد ذلك؟!

سكت فرناند لثوان ثم قال:

- النظامُ في المعهد السري انتقائي وصارم، ويجب على الطالب أن ينتزعَ النجاح عن جدارة ليتجاوز السنوات التالية ويتفادى الرسوب، فلا يُمكنُ لأحدٍ العودة إلى حياته السابقة أبدًا؛ لأننا أموات في نظر المجتمع.

عند نهاية كل سنة دراسية يستقبل مجلس العظماء الطفل الراسب ويتم شُكره على إخلاصه وتفانيه في أداءِ مهمته، ثم يتِمُ تخليص روحه من معاناتها بعد أن بلغ أقصى ما يمكنه تقديمه، وله الحق أخيرًا في أن يرتاح.

ارتعب تامر لِما سمعه عن الطفولةِ المُرعبة التي عاشها هؤلاء! وتذكر المدارسَ العادية يوم إعلان النتائج، حينها يرتعِدُ الطلاب خوفًا من الرسوب وتكرار السنة، وكل ما يحملُه ذلك من مشاق ومعاناة، فكيف بطالب يعلمُ أن مصيره الموت إن رسب؟!.

أكمل فرناند كلامه:

- هكذا كل سنة يتم إعدام طالب من الطلاب العشرة أمام أعيننا، لقد كانت رغبتنا في النجاح في امتحان أخر السنة لكي لا نُقتل متساوية مع خوفنا المُقلق من المجهول إن نجحنا، فلم نكن نعرِف سبب وجودنا هناك أو المغزى من كل ما كنا نعيشه من معاناة، الخوفُ من الموت هو فقط ما كان يدفعنا لبذل أقصى ما لدينا، واستخدام ذكائنا الفائق للنجاة، حتى عندما تنتهي السنة الدراسية ونحضر جميعنا لنَشهَد خلاص الطالب الراسب، كان مشهد موته يزيدنا عزمًا وإصرارًا على تحدي المستحيل للبقاء على قيد الحياة.

كانت السنواتُ تمر تباعًا ببطء ويتساقطُ الطلاب واحدًا تلو الآخر حتى نَصِلَ للعام السابع، عندها يبقى ثلاثة طلابٍ فقط على قيد الحياة، هم من يتخرجونَ في المعهد ويُعَيَّنون حُراسًا للإنفوكار، في تلك اللحظة تنقشِعُ الظُلمةُ من القلبِ وتنجلي البصيرة فيستقبلهم العظماء، ويكشفون لهم نور الحقيقة الكبرى؛ حقيقة السُلالة وقوة الدعاء الجبارة في تغيير الزمن، وأنهم يد الرب التي يضرِبُ بها على الأرض، ومُهمتهم السامية هي تطبيق إرادته وتصحيحُ أقدار البشر بهدف السمو بالإنسانية نحو الأفضل، وعندما تنتهي مهمة الحراس ينالون شرف تخليص روحهم على يد السليل الذي خدموه ليكون ذلك هو خلاصهم الأبدي.

في السنوات الثلاث المُتبقية في المعهد، وبعد أن يُكشف لنا سر الإنفوكار، نبدأ بدراسة عِلمٍ جديد اسمهُ التاريخُ الموازي.

بدا الذهول على تامر وهو يسأله مجددًا:

- ما هذا العلم؟! أنا لم أسمع به من قبل؟

ابتسم فرناند وهو يجيبه بفخر:

ولن تسمع به أبدًا يا سيدي، فالتاريخُ الذي يُدرّسُ في المدارس والجامعات هو التاريخ الفِعلي الذي حدث لكنه واقع بديل فقط، أما التاريخ الموازي فهو دراسة للأحداث التي وقعت في الخطِ الزمني الرئيسي قبل أن يجري تغييرها باستعمال الدعاء.

- أنا لم أفهم بعد ما تقصده؟
- عندما عُدتَ لتغيير الماضي ألم يتغيرِ الحاضرُ بأكمله؟
- بلى، لقد تغير كل شيء! فالأحداث التي عِشتُها أنا ومن حولي لا يتذكرها سواي؛ لأن أحداثًا أخرى أخذت مكانها.
- هذا هو التأثيرُ الخارقُ للعودة عبر الزمن، فعندما يعود السليل يقومُ بتغيراتٍ جذريةٍ في الماضي فيتغيرُ الخط الزمني بأكمله.

التاريخُ الموازيُ هو عِلمٌ ينبنِي على دراسة الأحداثِ التي حدثت عَبرَ الزمن، لكنها تعرّضت للتغيير، فهناك أشياء وقعت لكنها مُحيت من الخط الزمني وكأنها لم تحدُث أصلًا ولا يعلمُ أحدٌ على وجه الأرض بحدوثها سوى سليلُ الإنفوكار بنفسه، فهو من غيّر أحداثها، وهو من يُوثِقها لنا، فكم من المُلوكِ والزعماءِ غيروا توجه العالم، لكن حُراسَ الإنفوكار قرروا حتمية اختفائهم

من التاريخ؛ لأنهم شكّلوا بطريقة أو بأخرى تهديدًا لمصالح التنظيم فأغتيلوا قبل أن يفعلوا شيئا أصلاً! فمن بين مهامنا تصفية كل من تُسوّلُ له نفسه المساسَ بمصالحِ المُنظمة من قريبٍ أو من بعيد حتى قبل يُفكِر في ذلك.

سأُعطيكَ مثالًا بسيطًا عن التغييرات الرهيبة التي يُمكن إحداثها في التاريخ، بما أننا تكلمنا عن أمريكا، هل تَعلمُ أن الرئيسَ السابِقَ جون كيندي الذي تعرّض للقتل وبقيت وفاتُه لُغزًا بالنسبة للعالم، مذكورٌ عِندنا في كُتبِ التارِيخِ الموازي أنه كان من أشّدِ المُعارضين للتنظيم، وبعد حُكمٍ دام ثلاث ولاياتٍ بدأ باستهدافنا مباشرةً ومُحاربتنا علناً، حتى أنه أوشك على فضحِ أسرارنا للعامة، لذلك قرّر حُراس تلك الحقبة كتابة اسمه في لائحة من يَجبُ تصفيتهم في الماضي.

صمت للحظاتٍ ثم تابع:

- الهدفُ من تأسيس المعهد هو تكوين أشخاص أذكياء جدًا يملكون قدرات تحليلٍ فائقة تمكنهم من استنتاج ودراسة كل الاحتمالات المُمكن حدوثها إذا تم تغيير أحداثٍ معينة في الماضي، فلا يملكُ سليل الإنفوكار سوى أن يعُودَ في الزَمنِ، ويَكتُبَ في الماضي ما يَجِبُ أن نفعله فيتغيرُ الحاضرُ تلقائيًا.

عندما وُلد والدك السيد مارك أطلق جايكوب المعهد السري، وبعد سبع سنواتٍ كُنا أنا ومايا ومكسيم النخبة الناجحة من أصل الأطفال العشرة، بعد

تخرُّجنا مباشرة عملنا طيلة السنوات التالية على إعداد المعلومات التي يجب أن ينقلها والدك إلى الماضي، لكن عندما جاء اليومُ الموعود الذي سيُسافر فيه بوعيه عبر الزمن ليَنقُلَ لذواتنا في الماضي التعليماتِ، اختفى تلك الليلة ولم نجد له أثراً! فتحطمَت آمالنا في القيام بالتغييراتِ التي كُنا نُخطط لها منذ سنواتٍ وإتمام دورنا كحراسٍ للإنفوكار، ومع مرورِ الوقت وصُعوبةِ إيجاده تبّخرَ أملنا في إتمام مُهمتنا الدنيوية والحُصولِ على خلاصنا الأخير بالموت بيديه الطاهرتين.

– قد بدأتُ أفهم لماذا كان مكسيم سعيدًا يوم قتلتُه، فأنا من السلالةِ أيضًا، وقد حصل على خلاصه عن طريقي.

– كذلك هو مكسيم دائمًا يُفكر ويُقرِّرُ وَحده، لقد أقدم على ذلك لأنه كان خائفًا من رَفضِكَ الانضمامَ لنا، وبالتالي لن يحصُلَ على الخلاص الذي نسعى إليه، لذلك اختارَ طريقًا مُختصرًا دون التفكير في عواقبه.

جثا فرناند على ركبتيه وقال:

– اليومَ جِئتُ لأزور قبر معلمي قبل أن أُغادر لإتمام المُهمة التي أوكلت لي، لقد وَصلنا التقريرُ الطبي عن زوجتك يا سيد تامر إنها حاملٌ بمولود ذكر، لذلك سيفتح المعهدُ السري أبوابه من جديد، وقد كلّفني مجلسُ العظماء بمهمة البحث عن المرشحين العشرة الذين سيجري تكوينهم السنوات المقبلة، استعدادًا لخدمة ابنك سليل الإنفوكار المقبل، أنا لا أُخفيك سرًا فأنا

خائف جدًا من الفشل في هذه المهمة الصعبة، وتتملكني هواجس سوداء، فرغم كوني شخصًا صارمًا جدًا وذا نظرةٍ ثاقبة، لكن حتى ولو ضاعفتُ هذه المزايا ألف مرة لن تكون شيئًا قياسًا بمواهب جايكوب.

ابتسم تامر ابتسامة يغمرها اليأس والخوف، ثم أحنى رأسه تاركًا الألم وخيبة اللاأمل يتساقطان من جسده وقال:

- إذن فالجنين في بطن هدى ولد! أنا لست خائفًا من الموت، بل بالعكس كنت أُفكر طيلةَ هذه المدة بوضع حدٍ لحياتي لتَزُولَ هذه السلالةُ اللعينة من الوجود، لكن ذلك لا يهم الآن فقد حصلتم على ما تريدونه.

- لو كانت زوجتك حامِلًا بفتاةٍ فلن ترى النورَ أبدًا، فلا يعيشُ من سلالتكم سوى ذكرٌ واحد.

غرق الرجلان في التفكير فامتزج صمتهما بصمتِ المقابرِ وشملتِ السكينةُ المكانَ، ولم تعد آذانهم تلتقط شيئًا سِوى حفيفَ أوراقِ الأشجار المتناثرة التي تحركها الرياح جيئة وذهابًا

الفصل الثاني عشر

الكِتابُ الأبيض والكِتابُ الأسود

"يقالُ إن التاريخَ يكتُبه المنتصرون....

هذه المقولة مغلوطة، فالتاريخ يكتُبُه من يَتحكمُ به ويصَنعُ أحداثه، هو وحدَهُ من يَملِكُ الحقَّ في تحديد المُنتصر والمُنهزم، البطلِ والخائن، الخالدِ في سطور التاريخِ والمحذوفِ منها، كل ما درستم في مدارسكم وجامعاتكم ليس التاريخَ الحقيقي، بل فقط الواقِعَ البديل الذي غيّر الحُراسُ أحداثه ونسجوا تفاصيله.

إنَّ من يدرُس التاريخ بتدقيقٍ يكتَشِفُ أنه سيناريو محبوكٌ لأحداثٍ مترابطةٍ ومُسطرة بعناية، وليس أحداثًا تتلاحقُ بعشوائيةٍ عمياء، لا شيء يحدُثُ عن طريق الصُدفة، وإذا حدث ذلك فقد كان مُقرّرًا لها سلفًا أن تكونَ بتلك الطريقة! ذلك كله بفضلنا نحن، فكل جيلٍ من الحُراس يكتُبُ فصلًا من فصولِ المُستقبل ثم يُغادِرُ العالم بعد حصوله على خلاصه، لِيحِلَ محلّهُ جيلٌ آخر يُكمِلُ هذه المُهمة السامية.

الحقيقة كلها عندنا نحن؛ نحن من نَملِكُها ونحرُسُها، نحنُ من نكتُبُ سطورَ المُستقبل بحبرٍ من ذكائنا، ونَمُدُ سليل الإنفوكار بالمعلومات التي يَجب نقلها للماضي، ليرسُمَ بها حاضرًا جميلًا ومِثاليًا كما تخيّلناهُ في أحلامنا، التي يعجَزُ العقلُ العادي على استيعابها.

نحن حماةُ الماضي، رعاةُ الحاضر ومهندسو المستقبل".

انتهى فرناند من خطبته المُطوّلة ثم نظرَ إلى تامر الذي يغمُرهُ الحزن وقال له مُحاولًا إثارة حماسه بعد أن فشلت كل محاولاته:

- هل تُريد أن ترى بأمِّ عينك أعظمَ سرٍ من أسرارنا؟

تأمل لثوانٍ تقاسيمَ وجهِ التي لم تُغيّرها كلماته فأكمل:

- هنا في القصر مكتبةٌ سريةٌ مُحرمة، لا يعلمُ بوجودها سوى النُّخبةُ المختارةُ التي تعلمُ بسرِ الإنفوكار.

هزَّ تامر كتِفيهِ غير مبالٍ بعرض فرناند، فعقلُه لم يَعُد يُطيقُ استيعاب طلاسِمَ وألغازٍ أُخرى، لكنه رَضَخَ في النهاية لإصراره، خُصوصًا أن المَللَ وكثرةَ التفكير كادا يقتُلانه بسبب طول الانتظار وغياب ما يَشغلُ به نفسه.

غادر الرجلانِ المقبرة وعادا إلى القصر، قاده فرناند إلى الجناح الغربي مُتجاوزًا مجموعة من الصالات المُتصلة ببعضها بكاميراتِ مُراقبةٍ مرئيةٍ وغير مرئية، موزعةٍ على السّقف، بعدها شقا طريقهما وسط متاهةٍ من الحجرات والقاعات الشعائرية حتى وصلا أمام باب فولاذي كبير في وسطه نقشٌ لمُثلثٍ يُشبهُ إلى حدٍ كبير وشم تامر المُختفي.

ضحك فرناند قبل أن يقول:

- هذا المثلث الذي تملكه في ظهرك، هو بالنسبة لنا رمزٌ للحماية الإلهية من الشرور، وبه نراقبُ الماضي والمستقبل والحاضر، فكل ضلعٍ فيه يرمز إلى مرة من المرات الثلاثةِ التي يَعُود فيها صاحب الإنفوكار إلى الماضي.

الناس عامة يحملون أفكارًا مغلوطة عنا عِلميًا وتاريخيًا، فتمويه الجماهير كان ضروريًا جداً؛ لأن العالم يجبُ ألا يكتشف ببساطةٍ حقيقة سلالة الإنفوكار، وأنهم يستطيعون السفر عبر الزمن، ذلك سيخلِقُ قلقًا رهيبًا وسيبث الشكّ والرُّعبَ في قلوب الناس، ولن يعيشَ أحدٌ مُطمئنا وهو يعلمُ أن ذكرياته الجميلة وحاضره يُمكن أن يتغير بلمحةٍ دون أن يَشعُر بذلك حتى! لذلك كان من اللاّزمِ نشر أفكارٍ خياليةٍ عن الجن والشياطين والطقوس الغريبة ومزجها بأمورٍ دينية لتُضفِيَ عليها طابعَ المِصداقية.

أخرجَ من جيبه بطاقةً إلكترونية ووضعها في الشّقِ المُخصّصِ لها في الباب فأُضيءَ جهازٌ إلكتروني باللّونِ الأخضر، رفعَ يدهُ ليضعَ بصمة إصبعه للدخول ثم التفتَ لتامر قائلًا بطريقةٍ تشويقية:

- "هل أنت مستعد لتعرف كيف يساعد حراس الإنفوكار السليل في تغيير الزمن؟"

شعر تامر بنبضه يتسارَعُ وهزَّ رأسهُ مُوافقًا، فضغطَ على الزّرِ ليُحدِثَ البابُ دوِّيًا قويًا.

جَمُد في مكانه وهو يتأملُ المنظرَ الغريبَ الذي يظهرُ أمامه ببطء، قاعة كبيرةٌ مضاءةٌ نصفُ دائريةٍ سقفُها عالٍ، تتوزعُ على أطرافِها تماثيل بيضاء بأحجامٍ واقعيةٍ لثلاثين رجلًا مُصطفين في نصف دائرةٍ عظيمة بتناسُق تام، كل تمثال يَرفعُ يده اليمنى إلى أعلى ويبسط يده اليسرى أمامه، مُشيرًا إلى طاولات رخامية مُزخرفة الشّكلِ وُضِعت أمامهم في تناسُقٍ تام، عددها بنفس عدد التماثيل، وفوق كل واحدةٍ منها ثلاثةُ كُتبٍ عريضةٍ بيضاءَ اللون.

التماثيل ترفع رؤوسها إلى السقف في منظرٍ تملأه الهيبة والإجلال، تتأملُ سقفَ الغرفة العالي الذي رُسِمت عليه لوحةٌ فنية كبيرةٌ لخريطةِ العالم دون حدودٍ بين البلدان، وكأنها تُخبِرُ الزائر أن العالم كله عبارة عن أرضٍ واحدة ووطنٍ واحد.

قال فرناند وهو يفسح الطريق لتامر فيما يشبه الترحيب:

- مرحبًا بك في مكتبة التاريخ يا سيدي، أنظر إلى تماثيل أجدادك واقفةٌ بشموخ تنظر بفخر لخريطة العالم الذي صنعته.

شعر تامر بموجة من الرهبة تجتاح جسده وراح يجول بنظره داخل القاعة البيضاء، ثم توجه نحو أقربِ تمثال منه ولمسه متحسسًا تفاصيل وجه الدقيقة بفضول، ثم تقدم أمام الطاولة الرخامية ومرر بإصبعه على الكتاب الأبيض المنقوش على غلافه في الأعلى بأحرف من ذهب:

«THE WHITE BOOK»

شعَّ وجهُه وهو يسألهُ باستغراب:

- ما هذه الكتبُ البيضاءُ اللون يا فرناند؟

أجابه بفخر وعيناه لم تتزحزحا عن التماثيل:

- كل تمثال أمامه على الطاولة ثلاثة كتب عظيمة تحتوي على المعلوماتِ التي نقلها عبر الزمن.

حمل تامر أحد الكتب ليتفحصه عن قرب، كان ثقيلًا جدًا رغم قلة أوراقه، وذا ملمس جلدي ناعم يُرسل القشعريرة إلى جسدك بالكامل فور لمسه ومنقوشٌ على غلافه في الوسط نجمة سداسية كتب فوقها بأحرف من ذهب باللغة الإنجليزية:

John Rafael and his gardiens
Between 1915 and 1925

فتحه بفضول ومرر يده على أوراقه لِيكتشف أن كل صفحةٍ مُكونة من خانات تملأها رموز عديدة وغريبة، فالتفت ينظر إلى فرناند بعينين تطلبان تفسيرًا أكثر.

ابتسم فرناند مُنتشيًا بنجاحِهِ في إيقاعِ تامر في فخٍ الفُضول ثم استرسل في الكلام:

- "كما أخبرتكَ من قبل فقد فتحَ لنا جايكوب البابَ لنُثبِتَ للتاريخ جدارتنا بحفر أسمائنا على حائطه الأبدي، الحُراس في الحقيقة لا يحرُسون صاحب الإنفوكار، بل يحرسون الزمن؛ لذلك يتم اختيارنا بتلك الطريقة الصعبة

والدقيقة، ونستعدُ جسديًا ونفسيا لهذه المهمة السامية التي تخلوا من العواطف وتحتاج لتركيز شديد.

عندما يُكمل حُراس الإنفوكار المختارون دراستهم في المعهد، يبدأ عملهم الفعلي، حيث يقومون بدراسة وربط الأحداث التي تَقعُ في الأماكن الحسّاسة في العالم ثم تحليلِ التغيرات الزمنية التي يجب إحداثها في الماضي لضمان استمرار استراتيجيتنا على المدى البعيد، وفي النهاية يتم اختزال كل تلك التعليماتِ الواجب نقلها إلى الماضي في جُملٍ بسيطة تُكتب على شكل رموزٍ في جداول مُبسطةٍ داخل كتابٍ لونه أسود، نسخةٌ طِبقُ الأصلِ عن هذا الكتاب الأبيضِ الذي تراه أمامك، الرموزُ نتعلمها في المعهد وهي بمثابة لغة مُختزلة لا يفهمها إلا نحن، وتسمحُ لنا بتلخيص جملٍ طويلةٍ إلى رموزٍ بسيطة، الحراس يُتقنونها جيدًا ويتكلمون بها بطلاقة.

- وكيف تنقلون هذه المعلومات إلى الماضي؟!

- كما كنتَ تفعلُ أنت بالضبط، فتلك هي مُهمة أفرادِ سُلالتك منذ قرون، الرموز المختزلة تسمحُ لحارس الإنفوكار بنقل أكبر عدد من المعلومات إلى الماضي وإعادة تدوينها.

فمهمة السليل الأساسية هي حِفظُ ما كتبناه في الكتاب الأسود من رموزٍ عن ظهر قلب، ثم العودة بوعيه عبر الزمن إلى ما قبل عشرة سنوات وتحديدًا إلى لحظة مُعدةٍ سلفًا، فيجد أمامه الكتابَ الأبيض فارغًا فيكتب فيه كل ما

حفظه من الكتاب الأسود من رموزٍ في ظرفٍ لا يتجاوزُ عشرين دقيقة، هنا يبدأ دور ذواتنا في الماضي، حيث إن الكتاب الأسود يختفي من الخط الزمني ولا يبقى له وجود، فما يكون لهم سوى أن يُطبِقوا حرفيًا ما كُتب من قراراتٍ قادمة من المستقبل في الكتابِ الأبيض لمدة عشر سنوات مقبلة، وبعد انتهاء المُدةِ نبدأ بتدوين التغييرات التي نريدها في العشر سنواتٍ التالية في الكتاب الأسود الثاني ثم بعدها الكتاب الثالث.

إن ما يُكتب في الكتاب الأسود هو خلاصةٌ دقيقة لاستراتيجيتنا؛ الدول التي يجب محاربتها أو دعمها أصحاب النفود، والذين يشغلون مراكز قرار حساسة في حكومات العالم ممن تجب مساندتهم أو حتى تصفيتهم إذا كانوا سيشكلون تهديدًا صريحًا لنا في المستقبل.

واحد من أسباب قوتنا المطلقة هو تحكُمنا في اقتصاد دول العالم العظمى، وقدرتنا على إغراق الدول بالقروض؛ وذلك يتم بإرسال كل المعلومات المهمة إلى الماضي، الشركات والمجموعات المالية التي يجب شراؤها أو بيعها والوقت المناسب لفعل ذلك فمن يتحكم في الاقتصاد يتحكم بسهولة في العالم.

لكل عشر سنوات خطان زمنيان مختلفان، الأول يَكتبُ فيه الحراسُ الكتاب الأسود، وهو الخط الزمني الأصلي، والثاني هو ما نُطبقُ فيه تعاليم الكتابِ

الأبيض بمعنى آخر نَحنُ نرسل لأنفسنا في الماضي ما يجب فعله لتغيير الحاضر.

صاحب الإنفوكار يستعمل القدرة للعودة للوراء على التوالي في عيد ميلاده العشرين، ثم الثلاثين وعندما يصل إلى سن الأربعين يستعملُ الدعاء للمرة الثالثة والأخيرة، عندها يختفي الوشم وتنتهي مهمته، فيرتبط مباشرة بفتاةٍ من اختيار التنظيم، وما إن يُرزَقَ بمولوده الذكر حتى يَفتَحَ المعهد أبوابه من جديد لاختيار الحُرّاس الذين سيُرافقونه.

– إذن فقد أعددتم الكتابَ الأسود في فترة وجود والدي معكم!؟

– تمامًا كما فعلت كل أجيالِ الحرّاسِ قبلنا مع أجدادك، يومَ تخرُجِنا في المعهد كان عُمر والدك عشر سنوات، أدخلناه إلى المكتبة السرّيةِ، ووضعنا أمامهُ الكتابَ الأبيضَ فارغًا ثم طلبنا منه أن يتذكر جيدًا تلك اللحظة؛ لأنه سيعودُ لها، بعدها مباشرة بدأنا بالعمل طيلة عشر سنوات على إعداد التغييراتِ التي يَجبُ القيام بها، وتحويلها إلى رموز تمت كتابتها في الكتاب الأسود، وفور انتهائنا أعطيناه لوالدك لِيحفظهُ عن ظهر قلبٍ قبل أن ينتقل بوعيه إلى الماضي، وينقُلَ معلوماتِه في الكتابِ الأبيض، لكنه في الليلةِ التي يجبُ عليه السفر اختفى من الوجود، وذهبت كل جهودنا أدراجَ الرياح.

سكت قليلًا كأنه يتذكر، ثم قطَّب حاجبيه، وقال بمرارة بالغة:

- " تغييرات بسيطة في الماضي يمكن أن يكون لها نتائج عظيمة على المستقبل، لقد أعددنا أنا ومايا ومكسيم أول الخطوات لقيام حربٍ عالميةٍ ثالثة، تكون هي السببَ الرئيسي في خلقِ نظام عالمي موحد".

ارتجفت أطراف تامر مصعوقًا، وهو ينصت لتلك الكلمات الصادمة التي تخرج من فم فرناند تباعًا:

- "بالتأكيد يصعب عليك استيعاب كل هذه الأفكار المعقدة، فهي فوق طاقتك، وتظن في أعماق نفسك أننا نريد تدميرَ العالمِ واستعباده، بل وتحسبُنا أشرارًا ومجرمين، ذلك طبيعي فنظرتنا للأشياءِ تختلف عما يراه عامة الناس، الذين يروننا بأقنعةٍ شريرة وبشِعةٍ، لكننا في الحقيقة أبطالٌ نسعى للخير، ونُضحي بحياتنا من أجله، نحاول توحيد العالم تحت نظام عالمي يسيِّره أشخاص يمتلكون قدرات فكرية كبرى، يسعون للسلام والأمن وينشرون العدالة والمساواة، ولن يكون ذلك ممكنًا إلا بقيام الحروب العالمية التي ستشكل صدمة للشعوب، وتغير توجهاتهم وأفكارهم.

هدفنا هو جعل العالم خاضعًا للواء واحد، ننشر به العدل والسلام بين الشعوب، وذلك لن يمكن أبدًا إلا إذا خلقنا نظامًا عالميًا جديدًا يحكمُه الأقوياء، ومن أجل تحقيق هذا الهدف قرر الحراس القدماء التخطيط لثلاث حروب عالمية منذ بداية القرن العشرين".

الخير موجودٌ لأنه من صنيع الخالق يا تامر، أما الشّر فهو من صُنع الإنسان، النفس البشرية يا تامر تنطوي على الخسة والقسوة واللؤم وحب الذات؛ لذلك تجد الصراعات في مختلف بقاع العالم. فكلمة الوحدة البشرية لا تملك مكانًا في قاموس البشر، حتى ولو حاولت توحيدهم بكل ما أوتيت من قوة، فالإنسان يظل راسخًا في ضميره، ولاؤه لدينه ووطنه ونفسه، فتعود الصراعات والحروب لتتأجج بسرعة من جديد.

لم يكن سهلًا أبدًا على حراس جدك جيمس رفاييل أخذ قرار مثل هذا، خصوصًا أن ملايين الأرواح ستُزهق بسبب ذلك، لكن لم يكن هنالك حل آخر لإيقاظ الشعوب من غفلتهم، جمعوا خيوط الأحداث وحللوها بحثًا عن سبب وجيه لقيام حرب عالمية، وفي النهاية اكتشفوا بذكائهم ذلك الخيط الرفيع الذي سيُشعل فتيل الحرب، وهو قتل ولي عهد النمسا فرانز فرديناند سنة ١٩١٤ فأرسلوا هذه المعلومات إلى الماضي باستعمال الكتاب الأسود، فقامت التحالفات بين الدول واندلعت حرب دروس استشهد فيها الملايين، ثم جلسوا يتفرجون على تعاقب الأحداث كما توقعوا حدوثها بالضبط، وتفككت أربع قوى عالمية آنذاك، وهي الإمبراطورية الألمانية، والنمساوية، والهنغارية، والروسية، وبذلك سقطت الأنظمة الملكية، وحلَّت محلها الأنظمة الجمهورية.

بعد ذلك بسنوات جاءت المرحلة الثانية من المخطط، وهي الحرب العالمية الثانية سنة١٩٤٥، فالتخطيط لها كان أسهل بكثير بالنسبة للحراس الذين أعقبوهم، فبعد إدخال معاهدة فرساي في الخط الزمني، تكونت الشرارة اللازمة لتأجيج الخلافات بين القوى المتناحرة، وجعل الحرب تندلع مرة أخرى، فانتهت النازية التي كانت تشكل تهديدًا صريحًا لنا آنذاك، وجرى تقسيم العالم إلى كتلتين متناحرتين ومتكافئتين تقريبًا، ثم الدفع بهما للدخول في حرب باردة؛ تمهيدًا للمرحلة الثالثة والأخيرة، وهي الحرب العالمية الشاملة التي كان يجب أن نطلق شرارتها الأولى أنا ومايا ومكسيم.

ازدرد تامر ريقه مبهوتًا مما سمعه من فرناند وقال:

- وهل تظن أن شعوب العالم ستقِفُ لتتفرّجَ وتترُككم تفعلون ما تريدونه؟

- يجب أن تعلم أن الدمار والحروب والفتن ليست موجودة بسببنا، فقد كانت تَقعُ منذ خُلِقَ البشر على وجه الأرض وستبقى حتى لو اختفت مُنظمتنا عن الوجود، ألم يُذكَر في قرآنكم أن أول من مات على وجه الأرض قتله أخوه غدرًا؟! إنَّ الدمار الذي يحدثُ في العالم مقدر له أن يكون سواء بسببنا أو بسبب الجماهير أنفسهم، فطباع البشر وغرائزهم العمياء هي السبب الأساسي في المآسي التي يعيشها العالم، ويومًا ما سيّملُ الناسُ من الفوضى، ومن غطرسة حكوماتهم ودياناتهم الزائلة، ومن الفقر والمرضِ، وسيصرخُونَ بأعلى صوتهم

أنهم يريدون زعيمًا واحدًا وأرضًا واحدةً، في تلك اللحظة بالضبط سنظهرُ للعلن ونحكُمُ العالمَ بمُباركةِ كل الشعوب.

تنهد تنهيدة طويلة، وهو يحوم بنظره بتأملٍ في الخريطة ويقول:

- أنا أعلمُ أنه من الصعب عليك استيعابُ كل هذه الأمور، لذلك سأدعك تكتشِفُ الحقائق الكبرى في هذه المكتبة، لعلك تقتنِعُ بالدور الكبير الذي نلعبه، وتكون مقتنعًا يوم تفدي روحك من أجل التنظيم لِتموتَ بسلامٍ، وتسمح لنا نحن أيضًا بنيل شرف الموت بسلامٍ معك.

هنا ستتعلمُ كل شيءٍ، وتنجلي أمامك كل الحقائق، هنا يوجد النور الذي سيضيءُ مستقبل البشرية، سأعطيك بطاقة الدخول الخاصة بي، وسأُدخِلُ بصمة إصبعك في بيانات الجهاز لكي تتمكن من فتح الباب بسهولة، لتتمكن من الدخول متى أردتَ ذلك.

ودّع تامر واتجه نحو المخرج مغادراً، وما إن تجاوز عتبته حتى سمع تامر يناديه بصوتٍ عالٍ مستفسرًا:

- لقد أخبرني والدي في رسالته أن رجلًا ساعده على الهروب تلك الليلة، هل يمكن أن يكون ذلك الغريبُ الذي تحدّثَ عنه هو جايكوب؟!

تجمد في مكانه ثم أجابه دون أن يَلتَفِت:

- ذلك مستحيل فجايكوب كان من أكثر الرجال أمانة وولاءًا للتنظيم.

سكت قليلًا ثم أكمل، وهو يُغادر المكان بخطواتٍ ثقيلة:

- جايكوب كان بِئرًا عميقًا من الأسرارِ، وأكثر رَجلٍ يعرف تاريخَ المُنظمة، كان السيد مارك يَعتبِرُهُ معلمه وأباه الروحي، لكن كل ذلك كان مُصطنعًا، فقد قتلهُ غدرًا ليلة هروبه من القصر.

اختفى فرناند فور نُطقه بهذه الكلمات التي أصابت تامر كرصاصةٍ خاطفة، وأُغلِقَ البابُ تلقائيًا وراءه، تاركًا إياه وحيدًا بالداخل تائهًا ومُشوشًا، ويحومُ بنظره بين تماثيل ذلك المكان الغامض الذي يحوي أسرار التاريخ، مُتخبطًا في حيرة وألغاز أعظم من التي دخل بها.

الفصل الثالث عشر

الخلاص

مرت الأيامُ والشهور سوداءً كأنها بدون شمس، يسكُنها الصّمت والترقب والعذاب، وتغمرها ظلمةُ الّليل، لا يعرف معنى الألوان، أيّامٌ غاب فيها القمر، ولم تعد تُتقن سوى لغة البكاء، أيامٌ كالأشباح، إنقطعت فيها الأنفاسُ وتملّكه فيها اليأس والضّياع، وهو يزورُ المكتبةَ يومًا بعد يومٍ ليقتُل الوقت؛ مُستعملًا بطاقة فرناند، يتفحصُ الكتبَ البيضاءَ بعنايةٍ، وكلما زاد فهمه للتاريخ وللتغييرات المُهولة زاد حِقده على التنظيم الذي يتلاعبَ بأقدار البشرية، ويتأملُ ما اقترفه أجداده باسم الحريةِ والمساواة والعدل.

كلّ شيءٍ يمر بَطيئًا في القصر، أصبحتِ الدّقائقُ والسّاعاتُ حارقةً، وأصبح يكتوي أكثر في ثوانيها، كان يتكلمُ مع من حوله بلا صوت، يحيا مُنتظرًا الموت، يشعُر بالسّأم ويرى كلّ من حوله من العدم، ويسوده إحساسُ النّدم على إثمٍ مجهول اقترفه، وذنبٍ غريبٍ لم يتعمده.

منذ مدة انقطعت الأخبار تمامًا عن هدى، ما أسوأَ أن تنزف الروحُ شوقًا فتتجرع مرارة الانتظار، كان الحزن يمتصُّ قلبه امتصاصًا، فيسلُبُه قوته، ويقضي عليه شيئًا فشيئًا.

في الساعة السادسة صباحًا من ذلك اليوم الغائم كان مُضطجعًا في فراشه، يُصارعُ النوم كعادته، إذ سَمِع قرع النواقيس الذهبية المُعلقة على أبراجِ القصرِ،

يتردّدُ صوتها في الأروقة والغُرف، كانت تُشبه في صوتها نواقيسَ الكنيسة، تُرسِلُ لحنًا حزينًا يتّفقُ وحالته النفسية؛ حيث كلاهما يَحمل عُمقًا غريبًا ومظلمًا.

كان ذلك الصوت مألوفًا، ويتردّد بين الفينة والأخرى في أرجاء القصر، لكن كانت هذه أولَ مرةٍ يسمعُ فيها هذا الكمَّ الهائل يُقرع بحدةٍ في آن واحد ودون انقطاع.

انتفض من فراشه جزعًا، وخرج إلى الشرفة ليستفسرَ عما يحصل، لاحظ حركةً غريبةً تدب في الخارج، الخُدّامُ تتسارعُ خطواتهم، وحراسُ الأمن يتكلمون عبر أجهزتهم، وقد زادت حدة يقظتهم، شعر بالقلقِ وتوجه نحو بابِ غُرفته؛ مُحاولًا الخروج، لكنه كان مُقفلًا على غير عادته، بدأ قلبه يخفق بقوةٍ، ويداهُ ترتعشان، وهو يَضربُ بقبضته، وينادي الحارس الذي لا يفارقه إلا نادرًا، لكن لم يجبه أحد.

بدأ القلقُ يتعاظم في داخله فعادَ إلى الشُرفة يَنظُرُ إلى الخدمِ، ويصرخُ طالبًا منهم فتحَ بابِ غرفته، لكنهم كانوا منشغلين عنه، ولم ينتبه لندائه أحد.

بدأ قرع النواقيسِ يزدادُ حدةً، أحسَّ برهبةٍ شديدة تحتلُ جسده بالكامل، وبوحشةٍ غريبةٍ تتملّكُه، وهو يسألُ نفسه مُرتجفًا عمّا يحصل!

انقضت الساعات بطيئةً، وهو يخيطُ الغُرفة جيئةً وذهابًا، ويُفكر في أسوأ السيناريوهات المُمكن حدوثها: "هل الأمر يتعلق بهدى؟! هل من المُمكِنِ أن تكون قد أنجبت؟! أم هو طقسٌ من طقوسهم الخاصة؟".

بينما هو غارق في شروده إذ سمِعَ صوت الباب يُفتَحُ ببطءٍ لتظهرَ من خلفه مايا، ودخلت بخطىً بطيئة، وقد أحنت رأسها إلى الأسفل.

اتجه راكضًا نحوها، وهزها من كتفيها بعنفٍ، وهو يسأل بلهفة:

- ما الذي يحدثُ في القصر يا مايا؟ لماذا تدب فيه حركة غريبة!؟

صمتَت للحظاتٍ وهي تتأمله بإشفاق، ثم أجابته بكلماتٍ مبعثرةٍ لم يعهدها فيها:

- لقد جئتُ مُباشرةً من المستشفى حيث تُوجد زوجتك، لقد وُلِد سليلُ الإنفوكار الجديد يا تامر.

تسمَّر تامر في مكانه، وتخدرت قدماه، وقال بحروفٍ مُتلعثمة:

- وهدى كيف حالها الآن؟

ارتبكت مايا ولم تجبه...

تضاعفَ قلقُ تامر، وضغطَ بقوةٍ على كتفها، وهو يُهزها بعنفٍ ويُكرّرُ سؤاله.

استجمعت قواها، ونحت عاطفتها جانبًا، ثم نظرت مباشرةً في عينيه وأجابته:

- لقد كانت ولادتها صعبةً، وفقدت الكثير من الدم، لقد كان من المُمكنِ إنقاذها لولا...

ثم سكتت.

لم يستطعِ العاشقُ الذي يسكنه أن يتحمل ضغطًا أكبر، وبالكاد تحامل على كرسيٍ بجانبه وقال: ""لولا ماذا يا مايا؟".

- اسمع جيدًا يا تامر وحاول أن تتفهم الوضع، لقد كذبنا عليك يوم مجيئك للقصر، لقد كان مُقررًا منذ البداية أن تَموتَ هدى مَوتًا رحيمًا بعد إنجابها سليل الإنفوكار مباشرة، وعندما أتمت مُهمتها صباح اليوم، وانتهى دورها حقنَهاَ الأطباءُ بمخدرٍ سام جعلها تموتُ بهدوءٍ دون الشعور بأي ألم.

غابت فجأة الشمس عن السماء، واختفت ألوان الكون وملامحه وأصواته، وأصبح ظلامًا دامساً، لم يعد يرى شيئًا سوى صورتها وهي تَحتضر، أنينها يترددُ في أذنه، ويسمعُ صداه في قلبه وعقله.

قال بصوت مترددٍ وبارد كنعيقِ الغِربان:

- لقد وعدتوني أنكم ستعتنون بها يا مايا.

نظرت إليه بإشفاقٍ، ولم تستطع أن تتمالكَ نفسها، فبكَت وهي تُجيبُه بصوتٍ صارخ:

- هنالك مبدأ يَقومُ عليه عملنا يا تامر، يجبُ ألا ندعَ إمكانيةً للخطأ في حساباتنا مُطلقًا، لم يكن بإمكاننا تركُها تعيش، أو إطلاقُ سراحها، فنحن لا

نضمنُ أنها ستلتزِمُ الصمت طيلة حياتها، ولا يمكننا أبدًا ائتمانها أو الثقة بها، فربما تُعرض السليلَ للخطر، أو تفضح سرًا من أسرارنا، كان لابد لها أن تختفي للأبد عن الوجود.

لم يكن يُنصت لحرفٍ من كلامها، فقد جثا على الأرضِ، وراح يُكلم نفسه بصوت هامسٍ وكأنه يهذي ويقول: "أنا السبب في كل ما حدث لها".

مسحت مايا دمعةً انسلّت من عينها دون إشعارٍ وقالت:

- "لقد جئتُ بنفسي لأخبرك يا تامر، العظماء يعرفون ما كانت تعنيه لك هدى، وهم متأكدون أنك لن تسكُت، ولن تتقبل أبدًا ما فعلناه، وربما تُؤذي نفسك، لذلك قرروا التعجيل بانتقالِ الدعاء، غدًا عند الفجر سيأتي العظماءُ، وسنُحضر السليل الجديد لنباشر المراسم، أنا وفرناند مستعدان، وأتمنى أن تستعد أنت أيضًا".

أحاطت بكفيها خديه المبللين بالدموع، ثم نظرت إليه بعينين صارمتين وهي تقول:

- "عليك أن تتشّجع يا تامر، اجمع شتات نفسك، وامسح دموعك، وكن قويًا فغدًا ستلتحم أرواحنا بروح إله النور، فلا مهرب مما سيحدث الآن، وتقبّل قدرك يا تامر، سأخبرك سِراً، أنا أيضًا لم أكن أرغب في موتها، فنظرات العشق التي كُنتَ تُرسلها لها عندما تَزُورها، وحُبُكَ الخالدُ لها تركا أثرًا خاصًا في قلبي، رغم أن قلبي صلبٌ وروحي باردةٌ كالثلج".

نظر إليها نظرةً باردةً بعينين حمراوين كقِطَعِ الجمر تحرِقُ كل من ينظُرُ إليهما، ثم وجَّه قبضته ناحية رقبتها ليُطبق بقوةٍ على حنجرتها وهو يقول بنبرة حادة:

- "بل أنتم من سترون، سأنتقمُ منكم أشد انتقام، وستُشاهدون بأم أعينكم أمواجًا عاتية من غضبي".

أمسكت يدهُ محاولةً التخلصَ من الضغط الرهيب على رقبتها، وسدّدت لكمةً بيدها الأخرى إلى صدره فتقَهقَر إلى الخلف، لكنه ما لبِثَ أن استعاد توازنه، والتقط مِزهريةً فضيةً صغيرةً موضوعةً على طاولة خشبية بقربه، وضربها على رأسها بكل قوةٍ؛ فشجّهُ حتى فار الدم منه، ثم ركضَ لاهثًا دون تفكيرٍ نحو الباب، وهو يصرُخُ كالمجنون باسم هدى، أما مايا فقد ترنحت على الأرضِ من شدة الضربةِ، لكنه ما إن تجاوز عتبةَ البابِ حتى انبعث الحارسُ الضخم من العدمِ، جاثمًا أمامه واحتضنه بذراعيه القويتين ليمنَعه من الخروج، بعدها مباشرةً انهمر سيلٌ من الحراس إلى المكان وأحاطوه من كل الجهات.

قامت مايا بصعوبة من الأرض، وهي تحبسُ بيدها انسيابَ الدم الذي غطى وجهها، وقالت بصوت صارخ:

- هل تريد أن تهرب من قدرك يا تامر؟ لا يمكن لأحد في الدنيا الهروب من قدره حتى أنت، رغم أن سُلالتك تتحكم بالزمن. هل تعلم لماذا تأثرتُ

بموت هدى؟! ليس لضعفٍ في نفسي، بل لأنني سئِمتُ من لعب دورِ القوية، فأنا في الأولِ والأخير امرأةٌ، ولي قلبٌ يُحّسُ ومشاعرٌ تهيج.

أخرجت منديلًا من جيبها مسحت به الدم الذي يغمُرُ وجهها، فتخضّبَ لونه بالأحمر، ثم أمرت الحرّاس بوضعه على السرير، وأَراحت نفسها على الكرسي، وهي تَنظُرُ مشفقةً إليه، فقد أصبحَ كمن أُصيب بالهلوسة وانتابه الجنون، وصار كمن لا يُميزُ شيئًا، يصرخ حتى برزت عروقه، ويحاوِلُ بيأسٍ التخلص من قبضتهم، ويُلقي اللعنات والشتائم جزافًا.

قالت له محاولة تهدئته:

- أنا أعتذر بشدة، ولكنني سأطلب منهم تصفيدك؛ لأننا لا نضمن أنك لن تقوم بأمرٍ غبي تُفسد به كل شيء، حَاوِل أن تَستعد للموت، وأنت مُرتاح البال يا تامر، فقد نَفّذنا ما طُلب منا، وسنمُوتُ والخالق راضٍ عنا، لا تحزن! فغدًا سترتاحُ لن تشعُرَ بأي ألم أو تأنيبٍ للضمير، وسترتاحُ نفسُك إلى الأبد، فكل ما حدث تضحيةٌ في سبيل تصحيح أقدار البشر، ولكي نصنع مستقبلًا رائعًا للأجيال القادمة.

- وهل تظنين أنه بعد موتكم سيغفِرُ الله بسهولة خطاياكم وكل ما اقترفتموه من آثام؟ أنتم شياطين متجسدة في ثوب بشري، لكنني سأريكم معنى القدر الحقيقي يا مايا، أُقسِمُ أنني سأنتَقمُ منكم واحدًا واحدًا، ولن أدع فيكم أحدًا حيًا.

مسحت دموعها التي امتزجت ببقايا الدم المُنسّل على خدودها، وقالت:

- إله النور منحنا الحياة، فلا يُمكن أن يسلُبها منا بالموت، نحن فقط سننتَقلُ إلى عالم أفضل وأجمل بعد إتمامنا لمهمتنا، لا تقلق، عندما سنذهب للقائه غدًا سيخبرنا هل أخطأنا أم كُنا على صواب.

غادرت مايا المكان يُحيطها حراس الأمن، وسط أمواجٍ هادرة من صراخ تامر، الذي هزم صوت النواقيسَ، وكأنه هزيم رعدٍ هادر في ليلة برق عاصفة.

جاء منتصفُ الليل بسرعةٍ، ودقت ساعةُ الحسم التي ينتظرها الحراس والعظماء بفارغ الصبر، دخل خمسةُ حكماء إلى غرفته، وفكُوا قيوده، ثم طلبوا منه مُرافقتهم نحو المجهول، كان مصدومًا وتائهًا، وكأنه مجنون ساكن، جامدا في مكانه، لا يُجيبهم ولا يتحرّك.

كان يرتدي قميص نومٍ أبيضَ اللون منذ استيقاظه في الصباح، طلبوا منه ارتداء ردائه الكَهنوتي، لكنه انتفضَ فجأةً، ورفض بشدةٍ نزعَ قميصه فتركوه بثيابه.

كان لا يقوى على السير ووجهه شاحبٌ جدًا، غادر الغرفة، مُساقًا إلى الموت، دون أن يدري بأي ذنبٍ سيُحاسب، ساروا به، وهو يمشي بصعوبةٍ بين الممرات، حتى وصلوا إلى الغرفة الشعائرية الرئيسية التي اعتاد أن يجتمع فيها بالعظماء، وقف أمام بابها قبل أن يُفتح، سمع صوت رضيع يبكي في الداخل، فسرت قشعريرةٌ في جسده، فُتِحَ الباب ببطء ليرى أمامه رضيعًا في

هيئته الأولية، كان لونه أبيض كالقمر، وناصعًا كالثلج، كأنه ملاك صغيرٌ أنجبته حورية في الفردوس، ملفوفٌ في قطعة ثوب حريرية، وموضوع في مركز سلسلةٍ من الشموع الحمراء، تُشكّلُ بتناسقها نجمة سداسية.

أغمض عينيه ورفع رأسه إلى الأعلى مُبتسمًا، وقال بصوتٍ لم يسمعه سواه، وهو يُحرّكُ شفاهه: "إنه ابننا يا هدى، وثمرة حبنا الأبدي، طفلٌ جميل أهداه لنا الله عز وجل، نوره كالقمرِ كما كنت تحلمين دائمًا."

غاص في تخيلاته يتصور كيف كانت ستكون حياته جميلةً مع هدى، وذلك الطفل الصغير، وشعر برغبة جامحة في حملِهِ بين ذراعيه، ومعانقته بشدة.

كان العظماء الثمانية حاضرين، ويجلسون في أماكنهم منتظرين مجيئه، غادر الحكماء لدقائقَ، ثم عادوا يقتادون مايا وفرناند اللذين يضعان عصباتٍ مخمليةٍ على أعينهما تحجُبُ الرؤية عنهما، ثم جثيا على الأرض خلف تامر مباشرة.

قام الرئيسُ الأعظمُ من مكانه، ورفع كلتا يديه، مُتوجهًا بالكلام إلى إخوانه قائلاً:

- "الآن يا إخوة السلام نحن نقف على عتبة عهد جديد، سنترُكُ الماضي خلفنا، وستَعودُ سلالة الإنفوكار لتُحقِّقَ المجد، والسُّلطة، والقوة من جديد.

فلنبدأ الآن مراسم انتقال الدعاء، ونشكر سليل الإنفوكار والحراس على كل ما فعلوه من أجل التنظيم، لقد أتممتُم مُهمتَكُم على أكملِ وجه، فلتنالوا مغفرة الرب وخلاصه ورضاه الأبدي.

الآن ستبدأ رحلتكم نحو الخلاص، ستُتحرر أنفسكم من أجسادها المادية، وتلتحقُ بقوة النور السماوية."

أعطى بيده إشارة البدء، فبدأ الحكماء بتلاوة ترانيم غريبة ومبهمة المعاني على وقع موسيقى روحية، أحنت مايا وفرناند رأسيهما لأنغامها بخشوعٍ مكلوم.

تقدم أحد الحكماء حاملاً في يده خنجرًا ذا مقبضٍ ذهبي، ومده لتامر وهو يقول بصوت جوهري: "خد هذا الخنجر يا سيد الإنفوكار واطعن به مايا وفرناند في قلبيهما لتُخلِّصَ روحهما، وينتقلا إلى النّورِ الأعلى في السماء".

أمسك الخنجر بيدين مرتعشتين، واستدار ناحية مايا وفرناند المُستسلمين لقدرهما بينما وقف الرئيس أمامه باسطًا ذراعيه، ورافعًا رأسه نحو السماء.

كانت الألحان الموسيقية الرهيبة التي يعزفها الحكماء في أقصى القاعة، تتسربُ إلى نفسه فتزيده خوفًا ورهبة، تنفس بقوة فملأ الهواء صدره، سمع دقات قلبه تضربُ بقوةٍ، وأحس بأنّ الزمن توقف، تجمد قليلًا في مكانه، واستجمع قوته، ثم ابتسم ابتسامة تشفٍ عميقة المفاهيم، ورمى الخنجر بعيدًا فجأة، ثم صرخ صرخةً عظيمةً توقفت لها الترانيمُ، وانحبست الألحان، وقال بصوتٍ مرتفعٍ، وسط ذهول الجميع:

- هذا خلاصي أنا، وليس خلاصكم أنتم أيها الكفرة، اليوم سأُفني سلالةَ الإنفوكار من الوجود.

قطّب الرئيس الأعظمُ حاجبيه، وتدخّل بغضب:

- لقد ظننتُ حقًا أنك فهمت كل شيء، وظهرت أمامك كل الحقائق، لكنك برهنتَ أنكَ جبانٌ كوالدك يا تامر، وستموتُ جبانًا.

ثم أكمل كلامه بثقةٍ مدروسةٍ، وهو يبسِطُ كفيه أمام وجهه:

- إن كُنتَ تُفكِرُ في الهرب، فأعلم أنه لا أملَ لك بذلك، إن كنت ترفضُ تخليصَ الحارسين، فذلك قرارك على العموم ستتحول قُدرة الدعاءِ إلى ابنك فور قتلك أيها السليلُ العاق، فلا يمكنك تحدي مشيئة القدر.

أجابه تامر، وقد ارتفع صوته بنبرة تهديد:

- عن أي قدر تتحدث؟ ولا تتكلم عن والدي بتلك الطريقة، فلم يكن أبدًا جبانًا، بل كان أذكى وأشجع منكم أجمعين، رجل مثله لم يكن ليموت هباءً، ودون سبب وجيه، أنا واثق أن والدي استعمل دعواته الثلاث لمواجهتكم، وحاول محاربتكم، لكنه فشل في ذلك لسببٍ لا يعلمُه إلا هو، لذلك غيَّر الماضي، ثم ضحى بنفسه عمدًا، لكي تنتقِلَ القُدرة لي.

أزالت مايا العصبة المخملية لتظهر خلفها عينان ذابلتان من فرط البكاء، فالتفت إليها تامر مكملًا كلامه:

- لقد كنتُ أسبقكم بخطوة دائمًا يا مايا دون أن تشعروا بذلك، فقد اكتشفتُ السر الذي أخفاه والدي في رسالته، أمرٌ خارقٌ عجز الجميع عن إدراكه، وقد كان محجوبًا عنكم منذ مئاتِ السنين.

بدأ الاضطراب يموج في وجوه الحاضرين، وهم يرمقُونهُ بنظراتٍ تعجبٍ، بينما تسمّرَ فرناند في مكانه، وبقيت مايا في حالة ذهول.

- قال الرئيس الأعظم: "عن أي سرٍ تتحدث؟!"

سكت تامر لبرهةٍ والابتسامةُ الماكرةُ لا تفارقُ مُحياه، ثم تكلّم بثبات:

- يُمكن استعمال قدرة الدعاءِ أربع مراتٍ وليس ثلاثًا فقط.

ارتبك الحاضرون، وبدا التوتر على الرئيس الأعظم، بينما منعتِ الدهشةُ والاستغراب مايا وفرناند من التحرك.

تدخل فرناند قائلاً بسخرية:

- هذا كلام غير منطقي! أنت تختلق الأمر لتنجو بحياتك!

- أنا أعلم أنكم لن تصدقوني، وكذلك أنا لم أُصدّق نفسي، وترددت كثيرًا قبل أن أُجرّب القيام بتفعيل شرطِ استعمال القُدرة للمرة الرابعة.

أمسك قميصه بكلتا يديه، وجرّهُ بكل قوته ليُمزقَهُ فظهرَ الوشمُ، وقد عاد إلى مكانه من جديدٍ، ثم أكمل كلامهُ، دون أن تُغادره ابتسامةُ المنتصرين.

- الشرطُ هو تلاوة الدعاءِ ألف مرة، حينها فقط يعودُ وشمُ المثلثِ إلى صاحب الإنفوكار ليسمح له بالانتقال مرةً أخيرة.

نظرة الرئيس الأعظم إلى الوشم بذهول وقال:

- غير معقولٍ ما تقوله! كيف لأمر خطير كهذا أن يغيب عن النصوص القديمة للمنظمة؟ ليس هناك ما يثبت كلامك.

عندما وصلتني رسالة والدي، كانت جملة :«عندما تُغلقُ في وجهك كل السُبلِ والمنافذ، وعندما تَفقِدُ كل شيء حتى نفسك، عندها فقط إقرأ ألفَ مرّةٍ سُطورَ حياتك لِتجِدَ خلاصك...» تُأرِقُ تفكيري، وشعرت أن والدي يُريدُ إخباري بشيء ما، لكنه لم يتمكن من كتابته، مخافة أن تقعَ الرسالةُ بين أيديكم وتكتشفوا سره، فقمتُ بالتركيز في كل سطرٍ من سطورها كما ألحّ علي، فاكتشفتُ أخيرًا ما يريد قوله لي، وذلك بجمعِ الثلاثةِ كلماتٍ الأولى من كل قاعدة من قواعد استخدام الدعاء فحصلت على القاعدة الأخيرة:

اقرأ ألفَ مرّةٍ سُطورَ حياتك لِتجِدَ خلاصك:

- كلمات الدعاء المحفوظة يمكنك تلاوتها بأي لغة تريدها مع الاحتفاظ بصيغة الدعاء ومعاني الكلمات.
- يمكنك استعمال القدرة ثلاث مرات في حياتك فقط.
- أربع مرات متتالية هو عدد المرات التي يجب تكرار تلاوة الدعاء فيها لتخرُج النفس من جسدك وتنتقل عبر الزمن.
- وشم رمز المثلث على ظهرك سيختفي بعد أن تستوفي ثلاثة انتقالاتٍ إلى الماضي.
- يعودُ لسليل الإنفوكار القرار في العودة لأي زمن يريده شريطة أن يركز تفكيره عليه عند التلاوة.

- بعد انتهاء التلاوة أربع مرات ستنسلخُ نفسك من جسدك وتعود إلى الزمان والمكان الذي تود السفر إليه.
- يجب أن تعلم أن السفرَ محدودٌ فقط في فترةٍ زمنية كنتَ تملِكُ فيها الوشم فقط ولا يُمكنك العودة إلى زمن قبل ذلك أبدًا فالنفس لا تتقمصُ جسدًا لا يملِكُ الوشم.
- بعد عشرين دقيقة من مكوثها في الماضي تعود النفس تلقائيًا إلى حاضرها.
- يموت سليل الإنفوكار اختياريًا في سبيل انتقال القُدرةِ إلى ابنه التالي.

والقاعدة الأخيرة هي:

اقرأ ألف مرة كلماتِ الدعاءِ المحفوظة، يمكنك استعمال القُدرة أربع مراتٍ متتالية، وشمُ رمزِ المثلثِ يعود لسليل الإنفوكار بعد انتهاء التلاوة. يجبُ أن تعلم بعد عشرين دقيقة يموتُ سليل الإنفوكار.

ضحك مُنتشيا بتفوقه عليهم وأكمل:

- العودة إلى الماضي للمرة الرابعة نهائية، ويموتُ صاحب الإنفوكار فور انتهاء المدة المسموح بها، لذلك طُمِست هذه الحقيقة، لأنها ستُهدِدُ كل ما تقومون به إذا قرّر سليلٌ العودة بالزمن وإلغاء كل ما قام به.

نظرَ الرئيس الأعظم إلى الحارسين الشاحبين اللذين كادت عيونهما تغادر جحورها يطلبُ تفسيرًا لكلام تامر، فتدخل فرناند قائلاً:

- كلامه منطقي جدًا، لو كنتُ مكان أندريه رفاييل والفرسانِ، سأفعلُ الشيء نفسه، سأُخفي سّرَ المرة الرابعة، لأنه لا يَخدُمُ مصالحَ التنظيم، وسيُدمّرُ كل شيء إن قرر فردٌ من السلالة الإنقلابَ على المُنظمة وإلغاء كل أحداثِ الماضي والموت قبل إنجاب خليفته.

أصاب مايا صداعٌ مفاجئ، فوضعت يديها على رأسها، وهي تهمهم كأنها تهذي: "ذلك غير مُمكنٍ أبدا!"

صمتَ الجميعُ لثوانٍ، ثم أضاف فرناند وقد عظُمَ شكه:

- هل تذكرين يا مايا يوم أخبرنا جايكوب أن هنالك سرًا خطيرًا توصل إليه ولا يمكنه أبدًا الكشفُ عنه؟! ربما كان هذا هو سره وأطلع عليه السيد مارك قبل أن يقتله ليلة هروبه.

أردفت مايا:

- ولماذا يُخبرُه جايكوب بسرٍ خطير كهذا؟ ألم يكن مخلصًا للتنظيم؟!
- جواب سؤالك دفنه جايكوب معه في قبره يا مايا.

نطق تامر بمرارة وعيناه تدمعان:

- لم أكن أملك الجرأة على فعل ذلك، فالعودة إلى الماضي للمرة الرابعة تعني موتي حتمًا، لكن الآن وقد ماتت هدى بسببي، ولم أستطع إنقاذها، فعلى الأقل سأمنحها فرصة لتعيش حياتها بسلام بعيدًا عني، رغم أن ذلك سيهدِمُ كل الذكريات الجميلة التي جمعتني بها، وسيختفي حبها لي للأبد.

التفتَ إلى مايا المندهشة وقال بثقة:

- "لقد أخبرتك أنني سأسحب أوراق اللعبةِ كلها من تحت أيديكم يا مايا، وها أنا سأفعلها الآن".

ما إن انتهى من كلامه حتى أغمض عينيه، وأطلق صيحة عالية شاركته فيها كل ذرات جسده، وبدأ يتلو الدعاء بسرعة وبصوت مرتفع، بدأت القاعة تتزلزل؛ اهتزت عباءات الحاضرين تحت يد الهواء الذي ملأ الغرفة.

ثار الحكماء وخلعوا ثوب الجلالة والوقار، وحاولوا الانقضاضَ عليه، لكنهم لم يتمكنوا من لحاقهِ بسبب ارتجاجِ المكان.

حاول الرئيس الأعظم ثنيه فأخذ الخنجر وبدأ يطعنه طعنات متتالية في صدره، أما فرناند القريب منه فقفز خلفه محاولًا إغلاق فمه بكفه، بينما ظلت مايا متصلبة مكانها لا تعرف ما العمل.

مرت الثواني خاطفة، اختفت خلالها حدقتا عيني تامر، وهو منصب التفكير في اللحظة التي سينتقل إليها في الماضي.

خرج جسده الأثيري من جسده الذي تهاوى ساقطًا على الأرض، وهم ينظرون إليه غير مستوعبين ما يحصلُ أمامهم..

استطاع أخيرًا الانتقال إلى لحظة كانت نقطة بداية كل شيء تمناه في هذه الحياة......

الأربعاء 14 فبراير الساعة العاشرة.

تحسّس جسده ليتأكد من أنه لا يزالُ حيًا، وتمكن من القفز عبر الزمن، نسيم عليل، مختلط بعبق الورد داعب أنفه، فتح عينيه حوله؛ ليتأكد من أنه سافر فعلًا إلى الزمان والمكان اللذين اختارهما، نظر إلى ملابسه المتواضعة وحذائه الرث، فباغتته دمعة اشتياق لتلك الأيام، عندما كان فقيرًا قبل أن يتغير كل شيء، فرغم قسوتها ومرارتها، فقط كان رجلاً عاديًا كالآخرين، يبكيِ كما يبكون، ويَفرحُ كما يفرحون، ربما من حوله الآن لا يعرفون قيمة ما هم فيه حتى يفقدوه يومًا، عندها فقط سيكتشفون أنهم كانوا يملكون أغلى شيء في الوجود : "حياة عادية".

رفع عينيه ينظر إلى ذلك الملاك الجالس أمامه على مقعدِ الحديقةِ الحديدي، وتقرأُ روايتها المُفضلة باهتمام، راحَ ينظرُ إليها مُطولًا، ويسترجعُ ذكرياته الجميلة معها، اللّحظاتِ الحلوة الّتي جمعتهما في زمنٍ مختلف، لم تُكتب سُطوره بعد، بل ولن تُكتبَ أبدًا. تذكر كل شيء... فرحهما... بُكاءهما.... ليلةَ زواجِهما... وكل ما عاناه، وضحى به في سبيل أن تُصبح زوجته، وتُبادِلَهُ مشاعر الحب.

اقترب منها بخطى خجولة ومضطربة، كانت مشاعره تتضاربُ، ونبضاتُ قلبه تتسارع، أراد أن يُعانقها، ويبكي بحرقة بين ذراعيها، أراد أن يعتذر لها، ويطلبَ أن تسامحهُ، لكن لا يمكنه فعل ذلك، فهي لا تعرفهُ، ولم تعِش بعد شيئًا من تلك الأحداثِ المُستقبلية التي يتذكرها هو.

كان صوته مشوبًا بهدوءٍ غريب، عندما اقترب منها وهو ينظرُ إلى الرواية التي تحملها بين يديها، والتي أرغمته على قراءتها مراتٍ عديدةٍ بعد زواجهما، حتى حفِظها عن ظهر قلب، قال بصوت سمعته بوضوحٍ:

- الحياة روايةٌ جميلة يا هدى، عليكِ قراءتها حتى النهاية، ولا تتوقفي أبدًا عند سطر حزين، فقد تكون النهايةُ جميلةً حقًا، لكنك لم تمنحي نفسك الوقتَ لتكتشفي ذلك.

رفعت رأسها ونظرت إليه باستغراب قائلةً:

- وإذا كان أخر سطرٍ فيها كئيبًا كموتِ البطل مثلًا، ألا تُسميها نهاية حزينة!؟

- ربما هي حزينة بالنسبة للبطل، لكنها بدايةٌ سعيدة لكلِ من حوله من شخصياتٍ أخرى يُحبها، وتستحق أن تعيش.

رتّبت وشاحها الأبيض حول عنقها وقالت بفضول:

- من أنت أيها الشاب؟ وكيف عرفت اسمي؟

- أنا عابر سبيل أتجول في بلاد الله الواسعة، أقرأ الطالع للناس مقابل دريهمات بسيطة أسد بها جوعي، دخلتُ اليوم إلى حرم الجامعة بالخطأ، وكنت أبحثُ عن طريقٍ للخروج حتى وجدتُ نفسي في هذا المكان الجميل وأمامك!

لقد كان سببُ اختيار تامر لهذه الكذبة، أنه كان يعرفُ جيدًا حُب هدى لقراءة الطالع، فقد كان محتاجًا لذريعةٍ مقنعة، ليستطيع أن يُكلمها أخر مرةٍ دون إثارة شكوكها.

أجابته باهتمام، وهي تبتسم وقد أشرق وجهها:

- تفضل أيها الشاب بجانبي، وأخبرني ماذا يخبئ لي المستقبل؟

- بسطت له كفها، فأمسكه بيده وارتعش ما إن لامس جلده جلدها، وأحسّ بدفء يدها الذي اشتاقَ إليه، تنهد تنهيدةً طويلة، وانسلت دمعةٌ دافئة من عينيه، مَسحها بسرعةٍ قبل أن تسقط وتفضحه.

تأمل كفها ليوهمها أنه يقرأه، ويُحلّل تفاصيله ودلالاتِه، ثم تكلّم قائلاً:

- " أنتِ فتاة ذكية وتملكين قلبًا صافيًا، لا يعرف الكره والحقد، لكن هناك الكثير من الأشياء التي يجب أن تتركيها خلف ظهرك؛ لتتمكني من الاستمرار في الحياة: أناس سيخيبون ظنك، أحلام من المستحيل تحقيقها، وأوهام ستصدقين وجودها، لكنها في الحقيقة ليست إلا سرابًا خادعًا، يجب أن تتجردي من الهموم والمشكلات، وأن تتركي كل شيء خلفك، عيشي واقبلي على الحياة، انحتي بيديك من الجماد روحًا، ومن اللاشيء جمالاً، لا تهملي الأشياء الصغيرة التي تحمل معاني ودلالات كبيرة لك، ولا تتذمري إن لم تحصلي على شيء تحبينه، فربما تكون نعمتك في الابتعاد عنه، ولا تفرحي عند حصولك على شيء تريدينه، فقد تكون نقمتك وتعاستك في امتلاكه، عندما تتعاملين مع صديق أو قريب انصتي لقلبك قبل عقلك لتكسبي مودته، وعندما تتعاملين مع حبيب رجحي عقلك قبل قلبك لتكسبي احترامه.

ابتسمت ابتسامة عذبة وقالت:

- معنى كلامك أنني يجب ألا أثق في الحب أيها الشاب؟

تأمل وجهها قليلًا، ثم نظر مرة أخرى إلى كفها كأنه يتأكد من أمر غاب عنه، ثم قال:

- حبيبك اسمه أحمد صحيح؟

أجابته بحروف مترددة، وقد بدا على وجهها الاندهاش:

- صحيح! وكيف عرفت ذلك؟

- لقد أخبرتك أنني خبير في قراءة الطالع، خطوط كفك تفضحك يا آنستي، وسأخبرك بأشياء ربما تساعدك على المصالحة مع نفسك، أنت لا تحبين ذلك الشاب، ولن تحبيه أبدًا، فقط ذلك الفضول الذي يعتريك في اتجاهه المظلم، وتلك الأنانية الهوجاء التي تنهشك والرغبة في تغييره، ذلك لا يُسمى حبًا، وإنما إعجاب وتحدٍ بينك وبين نفسك فقط، فالقلب لا يحب حقًا سوى من يبادله الشعور نفسه، ويسهر على راحته ويبث الروح في شرايينه.

شرد قليلًا ثم أكمل:

- عندما تتأكدين أن من تحبينه يبادلك الشعور نفسه حقيقة، عندها فقط امنحيه ثقتك العمياء، فمن يجعلك تبكين وتتوسدين الأحزان، ليس بشخص يحبك أبدًا.

أحس أن الدقائق تمر بسرعة، فرمق ساعته بنظرة سريعة ثم انتصب من مكانه، وهو يقول:

- لقد تأخرت، ويجب أن أذهب لحال سبيلي، لقد تشرفت بمعرفتك يا آنستي.

هزت رأسها بمرارةٍ قاتمة، وقالت:

- شكرًا جزيلًا على كل شيء، فقد فتحت عيني على الكثير من الأشياء، كنتُ أغض الطرف عنها، لكنني يجب أن أواجهها عاجلًا أم أجلاً.

فتحت محفظتها لتُخرجَ بعض النقود، فابتسم رافضًا وقال:

- هذه المرة بالمجان! المرةُ المُقبلة يُمكنكِ أن تدفعي لي ما تريدين من نقود.

لمح وردة بيضاء تبرُزُ بين الورود لِتزيدَ جمالَ الحديقة على جمالهِ، فتذكر أول مرة رأى فيها هدى كوردة بيضاء برزت من بين الجحافل اللآدمية التي تركبُ الترام ليستقر حُبها في قلبه، قطفها بلطف وأهداها إياها، ابتسمت وشكرته وهي تستنشقُ عبيرها بفرح، ثم غادر وعيناه تملأهما الدموع، وهو يقول بصوتٍ لا يسمعه سواه:

- "إلى اللقاء يا أجمل وردة في الوجود".

خرج من الحديقة يمشى بخطواتٍ أثقلها الحزن، بكى دون أن تسيل دمعة واحدة على خده، مر بمجموعات الطلاب المُتفرقة في الساحة، الشابُ ذو الشعر الطويل يعزِفُ لحنًا حزينًا بقيثارته البُنية، وأصدقاؤه يتمايلون على أنغامها، الطالبُ ذو النظارات السّميكةِ مُنهمكٌ في شرح درسِ الفيزياء، والطلاب حوله لا يستوعبون ما يقول، مشى تامر، وهو يتأملُ وجوه الخلائق،

يصطَدم بأكتاف المارة، ويمسحُ الدمع المنهمر من عينيه، وصل إلى الباب الحديدي الكبير، التفت إلى مقصورة الحارس فرآه جالسًا يتعبد في خشوعٍ أمام التلفاز يشاهد المباراة، ودَّعه بعينيه دون أن يتكلم، نظر إلى التوقيت في معصمه، ثم تقدم بخطى ثابتة ليكتب الأسطر الأخيرة من قصته، توقف في منتصف الشارع، وأغمض عينيه والدموع الساخنة تذرف تباعًا على وجنتيه، منتظرًا نهاية العشرين دقيقة، أحس براحة غير عادية وهو يرفع رأسه للأفق وينطق الشهادتين مودعًا العالم، لقد علم في قرارة نفسه أن ما فعله هو الصح بعينه، لذلك أعدَّ نفسه لهذا الأمر جيداً، وعرف أن هذا ما طلبهُ منه والده في الرسالة، أن يتحلّى بالشجاعة؛ ليقومَ بما لم يجرؤ أحدٌ من أجداده على القيام به، وهو إنهاءُ سلالة الإنفوكار.

فجأةً التقطت أذنه صوتَ الشاحنة قادمةً صوبه بسرعة فائقة، ابتسم بأسى عندما عَلِمَ أن القدر اختار له الموتَ بحادثٍ، فالتفت يتأملُ الشاحنة، وقد خانته قدماه ليتفاداها، بدأت الذكرياتُ توقظ عقله؛ زوجته ترتدي فستانًا أبيض ناصعًا، وتمد يدها لتحاول الوصول إليه، سمع صوت طفله الرضيع يبكي من بعيد، وجوه كل من أحبهم في يومٍ من الأيام تمُر تباعًا أمام عينيه وتبتسمُ له، أمه تبسط يدها له، وترسُمُ على وجهها ابتسامةً عذبةً وكأنها تُرحب به، صوتُ سكراتِ الموتِ وهي تدقُ بابه تتردّدُ في أذنه، فأغمضَ عينيه قبل أن ينحبِسَ الحُلم في قلب العتمة....

صدمته الشاحنة بكل قوتها، ولم يعُد يرى شيئًا سوى الظلام.

بعد لحظاتٍ تجمّعَ الناسُ حول الجسد، الذي قذفته الشاحنة إلى حافة الطريق، تضاعف عدد الحشود، وتكاتلوا حتى بدأت أعناقهم تشرئب لمُشاهدة المنظر، الذي لا يتكرّرُ ويوثقونه بتلفوناتهم، الكلُّ ينظرُ إليه بإشفاقٍ، وهو في النّزعِ الأخير يَحتضر، يُصارع الموت، وعلى شفتيه بسمةٌ غريبةٌ، وعيناهُ مفتوحتان تَنظران للأفُقِ، وكأنهما تريان شيئًا لا يرونه، كان صوته شبيهًا بالخوار، يخفُتُ تدريجيًا حتى اختفى، وسكن جسده للأبد.

رقد بسلامٍ وسط الجماهيرِ التي تتكاثرُ كالنمل، بعد دقائق ظهرت هدى مُمسِكةً بيد أحمد، اخترق الإثنان الحشود ليُرضيا فضولهما، ويُشاهدا كُتلة اللّحمِ الغارقةِ في الدم، التي انتشرت أخبارها بين الطلاب كالنّارِ في الهشيم.

أصيبت بالصدمة بعد أن ألقت بنظرةٍ على الجُثّةِ، ثم قالت بحروفٍ مُتعثرة:

– أنا.... أنا أعرف هذا الشاب، فقد كلّمني قبل قليل!

التفت إليها أحمد قائلًا بازدراء:

- ومنذ متى تعرفين مثل هذه الأشكال؟!

- إنه شابٌ متجول يقرأُ الطالع، قال لي كلامًا جميلًا، يضرِبُ في الصميم، أخبرني أن البطل في روايتي نهايته حزينة، لكنها ستكون بدايةً سعيدةً لكلِ من حوله.

نظر إلى الجثة بتقززٍ، ثم قال ساخرًا، وهو يُنصِتُ لهمهماتِ الناس:

- الجميع يقولون إنه تعمد الوقوف أمام الشاحنة والانتحار! لقد كان ضعيف الشخصية حقًا ليفعل أمرًا شنيعًا كهذا.

تأملت بإشفاق الجُثة الممددَة على ظهرها، والتي يَسيلُ منها الدم؛ ليُكوِّن حولها بركة كبيرة وأجابته:

- الله وحده يعلمُ لما أقدمَ على فعل كهذا، وهو الكفيلُ بمحاسبته، نحن البشر لا نملِكُ سوى أن ندعو له.

كانت الجثة لا تزال عارية، بحث حارس أمن الجامعة، والذي كان أوّل الواصلين، عن شيء يغطيها به؛ لحين وصولِ الشرطة والإسعاف لكنه لم يجد، رقَّ قلب هدى، وأعطته وِشاحها الأبيض ذي العطر القوي، الذي طالما عشِقهُ تامر، وطلبت منه أن يَستُر الجثة من أعين الفضوليين، أمام تذمر أحمد، الذي حاول منعها، فصدته ببرود لم تعتده في نفسها، ولم يشهده أبدًا فيها، شكرها الحارس، ثم غطى نصف الجثة العلوي، فامتصَّ الشالُ الأبيضُ الدم؛ ليتخضّبَ باللّون الأحمر.

ألقت هدى بنظرةِ أسفٍ أخيرةٍ على المنظرِ المُحزن، ثم غادرتِ المكان، غير مكترثة بأحمد، الذي يتبعها وهو يَصرُخُ مُعاتبًا إياها على تصرفِهاَ.

****

بعد يومين في مقبرة الدار البيضاء نعشانِ يتجهان إلى مثواهما الأخير؛ السيد تامر حمدي، المُتوفَّى في حادثة سيرٍ يوم الأربعاء، في تمام الساعة العاشرة

وعشرين دقيقة، وجدُه السيد صابر حمدي، المُتوفَّى في فجر يوم الخميس، في قسم الإنعاش لمُستشفى الزهور.

الشيخُ حسن يبكِي بحُرقةٍ فقيدين من أعزِّ أحبابه، ماتا في يومٍ واحِد، يوسف واقفٌ خلف الحشودِ، يَمسحُ دموعه الشحيحة، غير مُصدقٍ الخبر، سعيد وابن الحاجة أمينة، وجيرانٌ آخرون من أصدقاء الفقيدين، حملوا على أكتافهم النعشين، ومشوا بهما وسط الناسِ، في جو جنائزيٍ مهيب.

صلى الجمعُ على روحِ الفقيدين، ثم وُضِع جثمان الجد في القبر على جانبه الأيمن، مُواجها للقِبلة، يليه مباشرةً تامر في القبر المجاور له، ثم غُمِرا بالثرَى، بعد دقائق بدأت الأمطارُ تهطلُ بغزارةٍ، تلبدت الغيومُ، وأكفرت السماءُ، وكأنها تنعي ذلك البطل المجهول، الذي ضحى بنفسه من أجل البشرية، ودُفن تحت التراب، كرجلٍ عادي كالآخرين، شابٌ بسيطٌ فقير، تخرّج في الكلية، وعمل قيد حياته في مكتبةٍ صغيرة، لم يكن يكفيه راتِبُها؛ ليشتريَ الدواءَ لِجده المريض، أو ليدفعَ ثمن كوبِ عصيرٍ في مقهى للفتاةِ، التي أحبَها بكل جوارحهِ، ولم تعلم أبدًا بوجوده.

تمت.

الفهرس

الفصل الأول (رجلٌ كالآخرينَ) 8

الفصل الثاني (يومٌ مُختلف)...٢٤

الفصل الثالث (حُكمُ القَدَرِ) 47

الفصل الرابع (نفسٌ وروحٌ وجسدٌ)...58

الفصل الخامس (الدعاء الأخير)...92

الفصل السادس (رسالةُ القَدَرِ) 136

الفصل السابع (حُرّاسُ الدُعاء) مايا بريم– 167

الفصل الثامن (حراس الدعاء) - مكسيم كوزلوف-................................... 206

الفصل التاسع (السَّليلُ المُقَدّسُ) 231

الفصل العاشر (الانْسلاخ).. 268

الفصل الحادي عشر (حراس الدعاء) –فرناند هارفي- 306

الفصل الثاني عشر الكِتابُ الأبيض والكِتابُ الأسود................................ 320

الفصل الثالث عشر الخلاص.. 343

حروف من نور

١٠ برج الاشراف شارع الهداية المريوطية فيصل الجيزة

"جمهورية مصر العربية"

الايميل yavinour@gmail.com

ت/ ٠١٠٠٨٢٨٩٦٦٧ (٠٠٢)